الإرجاء

و

ضياع حقيقة الإيمان

إعداد

يسري أبو شعيشع

محتويات الكتاب

يحتوي الكتاب على ستة أبواب رئيسية يتضمن كل منها عدة فصول:

تقديـــــــم

الحمد لله الذي بعث النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وصلاةً وسلاماً على النذير المبين، المبعوث رحمة للعالمين، ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيَّ عن بينة، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه وسلك طريقه إلى يوم الدين.

أما بعد..

فإن أهمية هذا البحث تتجلى في تناوله لأمر من أعظم الأمور إن لم يكن أعظمها على الإطلاق؛ ألا وهو حقيقة الإيمان المؤدي إلى النجاة من النار والفوز بالجنة؛ وذلك لعظم أهميته في فهم دين الله الذي داننا به، وأيضاً لأنه من أكثر الموضوعات التي تغوَّل فيه الهوى وباض الشيطان فيه وفرَّخ، فتفرقت الأمة بسببه واضطربت الآراء فيه منذ القرن الأول الهجري ولا تزال مما كان له أعظم الأثر في طمس حقيقة هذا الدين.

فما هي حقيقة الإيمان الذي أراده الله منا وكما ورد في نصوص الشريعة؟.

وهل الإيمان الحق يتضمن في حقيقته ومسماه العمل بشرائع الإسلام وفرائضه كما دلت على ذلك نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكما عاشه صحابة رسول الله ﷺ واقعاً حياً وحققوه بأفعالهم قبل أقوالهم، وكما أكده من بعدهم التابعون لهم باحسان وعلماء السنة الكرام بناصع حجتهم والتي لم تخرج عن نصوص الشريعة المطهرة، فذبوا بها عن عرين الدين كل من سولت له نفسه النيل منه من أهل الأهواء والفرق؟

أم أن حقيقة الإيمان الموجب للجنة قد انحسرت في مجرد الإقرار لله بالعبودية دونما حاجة إلى العمل كما أراده المرجئة المبطلون؟ و هم من الفرق الضالة التي افترقت إليها الأمة وقد تعددت آراؤهم في تعريف الإيمان وإن اتفقت على إرجاء العمل وفصله عن حقيقة الإيمان، فالمؤمن عندهم من جاء بتصديق بلا عمل، فعلى قولهم هذا لا يصبح للعمل قيمة إذا كانت الجنة مضمونة بدونه، وما الضير من ركوب المعاصي واتباع الشهوات إذا لم تمنع من ولوجها؟

وهو الأمر الذي استقر في أذهان الناس اليوم، وغدا تصورهم للدين مبنياً على هذا الفهم المعوج، وتحولت الغاية التي من أجلها خُلِقُوا؛ وهي تحقيق العبودية لله من خلال العمل بشرائع الدين المنزلة على الرسل الكرام إلى مجرد الشهادة لله بالوحدانية وهي الأمر المستقر في الفطرة الإنسانية قبل بعثة الرسل، وأخذ بها الميثاق على ذرية بني آدم وهم بعد في أصلاب آبائهم، ولا حجة لهم في ادعاء الغفلة عنها كما نزل بذلك قرآنٌ يتلى.

فإذا كانت الغاية قد انجزت بالإقرار السابق في الفطرة، وقبل البعثة، فما الحاجة إذن إلى بعثة الرسل؟ ولم كانت معاناتهم ومن آمن بهم مع أقوامهم؟.

أقول: هذا ما أراده المرجئة العابثون بالدين حين فصلوا الأعمال الصالحة عن حقيقة الإيمان وحصروا مفهومه في مجرد التصديق القلبي الذي لا يمكن ضبطه، والإقرار الذي أصبح مجرد كلمة تكتب في الهوية لا ينسخها عمل مهما عظم.

إنهم المرجئة الذين قال قائلهم: " نحن نقر بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونشربها " [١].

هم المرجئة الذين قال فيهم كبار التابعين قولتهم الصريحة الواضحة، حين قال التابعي الجليل وكبير القراء سعيد بن جبير: " المرجئة يهود

1- السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، وتهذيب الآثار للطبري.

هذه القبلة "[١]، وضرب لهم مثل السوء حين قال: " مثلهم كمثل الصابئين "[٢].

وعن أثرهم على الأمة وعلى الدين قال التابعي الجليل إبراهيم النخعي كبير فقهاء الكوفة: " لفتنتهم عندي أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة "[٣].

هذا ما قالوه[٤] بلا مواربه عمن قال نقر بالأعمال المفروضة ولا نعملها، ونقر بالحرام ونفعله، دون أن يؤثر ذلك في حقيقة الإيمان وهو ما يقوله الناس اليوم، وهو حاصل ما قاله المرجئة الفقهاء من التابعين من أمثال حماد ابن أبي سليمان تلميذ إبراهيم النخعي، وشيخ الإمام أبي حنيفة، وتابعه على نفس المعتقد فقهاء الحنفية حتى سمي باسمهم (إرجاء الحنفية).

وهو ما قرره الطحاوي صاحب العقيدة الشهيرة والتي نسبها إلى أهل السنة والجماعة، ثم صاغه الأشعري [٥] والماتريدي[٦] والملقبان بإمامي أهل السنة، على أسس من علم الكلام مع اختلاف طفيف وجعلاها أيضاً مذهباً لأهل السنة.

ثم طوره مرجئة الخلف من شُرَّاح كتب الحديث وغيرهم؛ حيث أدخلوا العمل في مسمى الإيمان لفظاً وليس حقيقة؛ حيث أن ترك العمل عندهم لا يقدح في حقيقة الإيمان ولكن في كماله، وهو خلاف لفظي مع من سبقوهم ليدخلوا الشبهة على الناس بأن قولهم يتفق مع ما ذهب إليه علماء

1-- الإبانة الكبرى لابن بطة لوحة 168، عن كتاب ظاهرة الإرجاء للدكتور سفر حوالي.
2-- الإبانة الكبرى لابن بطة لوحة 169، سابقه.
3- الطبقات لابن سعد(191/6)، والأزارقة أشد فرق الخوارج غلواً.
4- ومع إيرادي لأقوال هؤلاء العظماء من التابعين فمن دونهم أقرر أن الحجة ليست في أقوالهم ولكن في مستندهم الذي اعتمدوه في تقرير مذهبهم وردودهم على أهل الأهواء والذي لم يخرج عن كتاب الله وسنة رسوله على خلاف مناوئيهم الذين اعتمدوا الرأي والكلام وبعض الشبهات النصية المجتزأة أو الضعيفة أو المغلوطة.
5- الأشعري: هو أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعري ولد بالبصرة سنة 260 هـ وهو مؤسس مذهب الأشاعرة.
6- الماتريدي: هو محمد بن محمود بن منصور ولد بماتريد من سمرقند وهو من الطبقة الرابعة للأحناف ومؤسس الماتريدية.

السنة الحقيقيون من أمثال: سفيان بن عيينة، وابن حنبل والحميدي والشافعي وغيرهم، وقد ذكر الشافعي اجماع السلف على أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر؛ أي أن ترك واحد منهم مبطل للإيمان على خلاف من ذكرنا من المبطلين.

هذا.. ولن نطيل الوقفة مع المذهب الغال والشاذ الذي أحدثه الجهم بن صفوان وتابعه عليه المتكلمون، والمعروف بمذهب الجهمية الذي اكتفى بتعريف الإيمان بالمعرفة بالله، فمن عرف الله عندهم فهو مؤمن دونما الحاجة إلى قول أو أعمل، فبسبب شذوذه ولوازمه الشائنة لم يعده نفر من المؤرخين من مذاهب الإرجاء وقالوا بأنه قول منسلخ عن الملل الحنيفية.

إذ إن كل عاب وذم لحق بالإرجاء إنما قصد به إرجاء الفقهاء ومن تابعهم، إلا من دخلت عليه الشبهة من العلماء.

ولذلك سنتاول في بحثنا هذا كل مذاهبهم من الناحية الفكرية بغض النظر عن الأشخاص المروجين لها فهي لا تعنينا في شيء، وإنما ذكرنا لهم لبيان المعتقد ونسبته إلى قائله فحسب. وسنسلط الضوء أيضاً على ظروف نشأة الإرجاء والبيئة الحاضنة له وأسباب تلك النشأة، وأبرزها أنه كان ردة فعل لغلو الخوارج المارقين في حق الصحابة رضوان الله عليهم، والذين ذهبوا إلى تكفير مرتكب الكبيرة بمجرد المعصية دون استيفاء شروط الحكم وإذا ما وجد مانع من تطبيقه على الأعيان كما هو مقرر في الشريعة.

وسيتبين لنا أن ظهور هذه الفرق كان من تداعيات تلكم الفتن التي عصفت بوحدة الأمة عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﵁، والتي أخبر عنها النبي ﷺ وأن نفراً من أصحابه سيعاينها؛ حيث سيكسر بابها بمقتل الفاروق عمر بن الخطاب ﵁ ثم يفتح على مصراعيه بمقتل ذي النورين لتستعر أوار حروب متلاحقة على مدى أكثر من نصف قرن تراق فيها أنهرٌ من الدماء وتزهق فيها أنفسٌ كانت محرمة بالأمس القريب وكان

الأولى بها أن تبذل في جهاد العدو، وخلال تلك الفترة القصيرة ظهرت الفرق المارقة وتطور أمرها.

ففي ظلال السيوف المخضبة بالدماء تغيب الفكرة وتأتي السكرة، سكرة الانتشاء بالنصر الزائف في مقابل مرارة الهزيمة وحرقة الثارات، فيعلو الصخب والضجيج وتخبو الحكمة والروية، ويحل المراء العقيم والانتصار للرأي محل الجدل بالحسنى والإذعان للحق، ويظهر الغلو والتطرف على حساب التوسط والاعتدال، وتؤدي تلكم التراكمات إلى تصاعد وتيرة الشطط والمغالاة وتغدو البدعة ديناً ومعتقداً.

ولم لا وقد رق الدين وغاب الوازع، وابتعد الناس عن دفء الشرع والمحجة البيضاء، وتخلوا عن هدى الله وصراطه المستقيم وهو الملاذ والملجأ والمنجى من الزيغ والضلال، وسلكوا سبل الشيطان فخرجوا يلتمسون الهدى من غيرهم، فبهرتهم أوهام الفلاسفة اليونانيين، وضلالات الملاحدة الهنود، وشطحات الوثنيين الفرس والتي حملوها إلى أهل الإسلام.

ولذلك سنتعقب ما أورده المرجئة من شبهات نصية أو فلسفية اعتمدوها في تأصيل مذاهبهم بالبيان والرد، مؤسسين لذلك بتحقيق وافٍ عن حقيقة الإيمان الشرعية والتي تعبر عن مراد الله منه، وكما دلت عليه نصوص الشريعة المطهرة، وبذلك نزيل الشبهة عمن دخلت عليه، ونرد الحق إلى نصابه كما كان عليه سلف الأمة من الصُحب الكرام والتابعين لهم باحسان وعلماء السنة العظام، قال تعالى:" **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** (18)" **[سورة الأنبياء]**

الـبـاب الأول

الـبـدايـة الـتـاريـخيـة لـلـفـتـن ومـنـشـأ الـفـرق

ويشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:-

- **المقدمة: البداية المبكرة للإختلاف والفتن كما أخبر بها الرسول الكريم ﷺ .**
- **الفصل الأول: الفتنة الكبرى، أسبابها وتداعياتها.**
- **الفصل الثاني: الخوارج.**
- **الفصل الثالث: الإرجاء والمرجئة.**

مقدمة الباب الأول

البداية المبكرة للإختلاف والفتن كما أخبر بها الرسول الكريم ﷺ

قد يندهش البعض إذا علم أن البداية مبكرة جداً وبعد وفاة النبي ﷺ بسنوات معدودة.

وها هو رسول الله ﷺ يشير إلى هذه البداية المبكرة في أكثر من حديث فعن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله لعلها موعظة مودع فأوصنا، قال ﷺ :(أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين،عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)[1]

يخاطب الرسول الكريم ﷺ صحابته ويقول من يعش منكم - أي بعده – فسيرى اختلافاً – وهو أصل كل الرزايا – وينصحهم بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء المهدين ، وحذرهم من محدثات الأمور، أليس البلية فيما استحدث؟

وعن ابن عباس في الحديث المتفق عليه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة – بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أشد حرصك على أمتك -. وفي هذا الحديث يقول" ألا إنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال لا تدري ما أحدثوا بعدك."

وفيه أيضاً " إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ أن فارقتهم".

يخاطب النبي أصحابه، ويخبرهم أن منهم من سيعايش تلك الفتنة، فينصحهم ويحذرهم؛ لذلك نجدهم كدأبهم حريصين كل الحرص على توقي الفتن وعدم الولوغ فيها. فها هو الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

[1] - السلسلة الصحيحة(937)

يسأل عن الفتن التي تموج كموج البحر، فيجيبه حذيفة بن اليمان ﵁ في الحديث الذي رواه مسلم متسائلاً: " مالك وما لها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً – علم حذيفة أنه يسأل عن مكانه من الفتنة القريبة ليتوقاها- ويعلم عمر أنه معنيٌ بها – فيسأل: " أفيكسر الباب أم يفتح؟ قال: بل يكسر، قال عمر – بحسه الإيماني – ذلك أحرى ألا يغلق أبداً " قال شقيق بن سلمة راوي الحديث عن حذيفة: قلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: كما يعلم أن دون غدٍ الليلة، فسأله مسروق: من الباب؟ قال: عمر".

فبدأت الفتنة بمقتل عمر على يد أبي لؤلؤة المجوسي، ثم استعظمت بالنقمة على ذي النورين عثمان بن عفان ﵁، ومحاصرته ثم قتله. فكان ذلك إيذاناً بإضرام نار فتنة هوجاء أزهقت فيها أرواح المسلمين، وعصفت بوحدتهم وجماعتهم، وكانت إرهاصاً [١] بانقضاء عصر الجماعة الفذة التي تعيش كالملائكة المطمئنين على الأرض.

---

[١]- إرهاصاً: إيذاناً. والإرهاصات مقدمات الأمور المؤذنة بها.

الفصل الأول

الفتنة الكبرى أسبابها وتداعياتها

كما أشرنا في المقدمة أن باب هذه الفتنة سيفتح على مصراعيه بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ﵁ ذاك التقي الحييّ السخي الذي تحمل الحصار الظالم وأبى أن تراق بسببه دماء المسلمين، فصرف حراسه ليكون عبد الله المقتول ولتتحقق فيه بشارة النبي ﷺ له بالجنة والشهادة مظلوماً. وهاكم بعض مناقب ذي النورين ﵁ وإخبار النبي باستشهاده :-

روى البخاري في الصحيح باب مناقب عثمان بن عفان ﵁ تعليقاً: " قال النبي ﷺ من يحفر بئر رومة فله الجنة، فحفرها عثمان وقال من جهز جيش العسرة فله الجنة، فجهزه عثمان".

وروى البخاري أيضاً من حديث أنس ﵁ قال: " صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف، فقال: أسكن أحد، أظن ضربه برجله، فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان".

وروى أيضاً عن أبي موسى الأشعري قوله: " أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط... " وفي آخر الحديث قال: " ثم جاء آخر يستأذن فسكت هنيهة ثم قال: إئذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه فإذا عثمان بن عفان ".

وفي سنن ابن ماجة عن محمد بن سيرين عن كعب بن عجرة قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فمر رجل مقنع رأسه فقال رسول ﷺ : هذا يومئذ على الهدى، فوثبت فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت هذا؟ قال: هذا ".

وفي رواية عند أحمد عن عبد الله بن عمر قال ذكر رسول الله ﷺ " يقتل فيها هذا المقنع مظلوماً، قال ابن عمر: فنظرت فإذا هو عثمان "[1].

1- رواه الترمذي ونقل شارحه عن ابن حجر أنه قال اسناده صحيح.

وروى الحاكم نحوه من حديث مره بن كعب، وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

- سبب نقمة البغاة والمتآمرين عليه:

ذكروا انتقاصاً من شأنه أنه فر يوم أحد، وأنه تغيب يوم بدر ولم يشهد، وأنه تغيب عن بيعة الرضوان، ثم ذكروا أموراً قد كثر فيها اللغط سنجملها لاحقاً.

أخرج البخاري من حديث عثمان بن عبد الله بن وهب قال: جاء رجل من أهل مصر يريد حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال: من هؤلاء؟ قالوا: قريش، قال فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا بن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: هل تعلم أنه تغيب يوم بدر ولم يشهد؟ قال: نعم، قال: تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان ولم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر.

قال بن عمر تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل شهد بدر وسهمه، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحدٌ أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكان بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله بيده اليمنى " هذه يد عثمان " فضربها على يده وقال هذه لعثمان، ثم قال له ابن عمر: اذهب بها آلان معك ".

أما باقي ما نقموه عليه أنه حمى الحمى [١]، وتوسع في الإنفاق من بيت المال، وآثر أقرباءه وتوليته لهم عمالاً على الأمصار ومنهم عبد الله بن عامر وعبد الله بن أبي السرح، ورده الحكم بن العاص، بالإضافة إلى بعض الأمور الإجتهادية وهذا في رأيهم عدولاً عن سيرة ومرتبة الشيخين.

وبالنظر في هذه الأمور كما يقول ابن تيمية في منهاج السنة (173/3) " إما أنها أمور اجتهادية فليس اجتهاد غيره بأولى من اجتهاده ولا سيما أنه خليفة الأمة وطاعته واجبة ترفع الخلاف، وإما أن يكون حاصل منه بعض التجاوز فماذا يساوي ذلك إلى جانب سابقته وفضله وعظيم قدره عند الله" أ.هـ

- مسار الفتنة :-

قال أبو بكر بن العربي في العواصم من القواصم: " وقد سموا من قام عليه، فوجدناهم أهل أغراض سوء حيل بينهم وبينها، فوعظوا وزجروا، وأقاموا عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وتوعدهم حتى تابوا فأرسل بهم إلى عثمان رضي الله عنه فتابوا وخيرهم فاختاروا التفرق في البلاد فأرسلهم، فلما سار كل إلى ما اختار أنشأوا الفتنة، وألبوا الجماعة، وجاءوا إليه بجملتهم فاطلع عليهم من حائط داره، فذكرهم وورعهم عن دمه، وخرج طلحة يبكي ويورع الناس، وأرسل علي ولديه- يعني ليدافعوا عن الخليفة – فقال البغاة: إنكم أرسلتم إلينا " أقبلوا إلى من غير سنة الله [٢] "، فلما جئنا قعد هذا في بيته – يعنون علياً – وخرجت أنت تفيض عينيك والله لا برحنا حتى نريق دمه.

1- كان أشراف الناس في الجاهلية دون سائر الناس يخصون ماشيتهم بحمى من الكلأ على مرمى سهم، وقد نهى عنه الإسلام وقال رسول الله ﷺ لا حمى إلا حمى الله ورسوله ، يقصد إبل الصدقة وقد توسع فيها عمر ومن بعده عثمان لما كثرت إبل الصدقة فلم يكن عثمان أول من حمى الحمى ولم يكن ذلك لإبله خاصة.
2- قال محب الخطيب في تحقيقه على العواصم " زعم البغاة أنهم تلقوا رسائل من علي وطلحة والزبير يدعونهم بها للثورة على عثمان بدعوى أنه غير سنة الله وهو ما أنكره كل منهم " وقال الظاهر أن منظمي الفتنة من السبئيين زوروا الرسائل التي ذكرها البغاة.

ثم قال ابن العربي" ولما أراد الصحابة الهم، فأوعز إليهم عثمان ألا يقاتل أحد بسببه، فاستسلم وأسلموا برضاه ".

فكان ما كان من أمر الحصار الآثم ولن نخوض في تفاصيله ومرارته والذي أفضى إلى مقتل عثمان ﵁، ووقعت الفتنة الكبرى وتفرقت الجماعة المسلمة الفذة، ونشأ القتـــال بيـــن أمتيـن عظميتين من المسلمين.

- أطراف الفتنة ومواقف الفرقاء إزاءها:

1- أهل العراق الذين بايعوا علياً خليفة للمسلمين، وكان هذا الفريق يرى أن الأولوية يجب أن تنصرف إلى اجتماع الكلمة، وحسم الفتنة، **واستتباب الأمن، ومن ثم محاسبة القتلة والقصاص منهم.**

وهذا الفريق كما أخبر المعصوم ﷺ هو أقرب الفئتين إلى الحق، وإن كانوا طرفاً في قتال أهدرت فيه دماء المسلمين.

2- أهل الشام تحت إمرة معاوية بن أبي سفيان وهم الطرف الثاني في القتال، ويرون أنهم أصحاب الدم ولذلك فإن أول واجب على الأمة – في رأيهم – هو القصاص من القتلة، فلم يبايعوا علياً رضي الله عنه وإن لم ينازعوه الأمر – واشترطوا لدخولهم في طاعته تسليم قتلة عثمان رضي الله عنه.
وإن كان الأجدر بهم ألا يسعوا في أحداث الفرقة وألا يرفعوا السيف في وجه إخوانهم- فهم إذاً مفضلون.
ونريد هنا أن ننوه إلى أن ابن عباس كان قد أشار على علي رضي الله عنه بألا يعزل معاوية عن إمرة الشام حتى يأخذ البيعة منه ومن أهل الشام ثم إذا كانت المصلحة تقتضي عزله يعزل، فإن رفض الطاعة يكون حينئذ ناكثاً، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا.
3- وبرزت طائفة ثالثة وهم معتزلو الفتنة رأت أن الخليفة المظلوم عثمان رضي الله عنه قد احتمل الحصار الآثم، ونهى أتباعه عن فكه حرصاً على دماء المسلمين ولذلك أمسكوا عن الخوض في الفتنة واعتزلوا المتقاتلين تمسكاً بالنصوص الواردة في هذا الأمر عن تثبت لا شبهة فيه، فهو في رأيهم قتال فتنة.
☜من هؤلاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه كما يروي البخاري:" أن رجلاً جاءه فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه(**وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُواْ..)** **[الحجرات:9]**

فما منعك ألا تقاتل؛ فقال: يا بن أخي أُعيَّر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إليَّ من أن أُعَيَّر بهذه الآية قال تعالى:(**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مّتَعَمّداً**.."**[النساء-93]**
ومنهم أبي هريرة وأبي بكره رضي الله عنهما، وقد حدَّثا عن النبي ﷺ أنه قال:(ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذاً فليعذ به)
وهذا ما صنعه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه فقد خرج إلى الربذة وتعرب حوالي أربعين سنة من مقتل عثمان في سنة 35 هـ وحتى قبل وفاته سنة 74 هـ ثم مات في دار الهجرة.
ومنهم أيضاً أسامة بن زيد، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن معقل وأبي برزه الأسلمي وكلهم رضي الله عنهم صحابة كرام متثبتون لم يوغلوا في الفتنة ولم يلغوا في دماء المسلمين.
4- وإلى جانب هذه الأطراف الرئيسية كانت هناك فئة من المرابطين وسكان الأطراف، أصابتهم الحيرة، ولم يستطيعوا حسم أمرهم في ترجيح طرف على آخر، وعنهم يقول الحافظ بن عساكر: " كانوا في المغازي، فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه - وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد - فقالوا: تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم خلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول: قُتِلَ عثمان مظلوماً وكان أولى بالعدل وأصحابه، وبعضكم يقول: كان علي أولى بالحق وأصحابه. وكلهم ثقة، وكلهم عندنا مُصَدَّق، فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون هو الذي يحكم بينهما ".[1]
5- ذلك إلى جانب الفئة الآثمة المتآمرة والتي أزكت نار الفتنة، وحرَّضت الغوغاء على الحصار ثم القتل والتي استمرت في تآمرها بعد ذلك وخاصة في واقعة الجمل، حيث عملت على إحباط محاولة الصلح ومنها وبسببها نمت بذور التشيع الذي بدأ بموالاة علي رضي الله عنه وتخطئه من قعد عن النهوض معه، فضلاً عمن ناوءهم. بل والبراءة منهم وتكفيرهم

[1]- تاريخ دمشق عن د/ نعمان القاضي " الفرق الإسلامية في الشعر الأموي "

وفيهم الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وأم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنهم) وامتد الأمر إلى الشيخين رضي الله عنهم أجمعين، ومنهم من غالى في حق علي ﷺ مثل عبد الله بن سبأ وجماعة معه ولن نقف طويلاً عند أصحاب هذا المذهب لأنهم خارج نطاق موضوعنا.

6- ونبتت فئة أخرى من حدثاء الأسنان، وبادي الرأي وضيقي الأفق، الذين ترعرعوا في البداوة ونشأوا على الجلافة، فقالوا: إن نزول عثمان عن مرتبة الشيخين مبرر كاف لقتله، وأنه ما من إمام إلى قيام الساعة لا يسير سيرتهما إلا استوجب الخلع أو القتل، فكان هؤلاء هم نواة الخوارج الذين خرجوا فيما بعد، وأعلنوا نقمتهم وسخطهم على كل الأطراف، إذ أنهم يرون كيف يختلف هؤلاء ويتقاتلون وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وأعلم الناس بالدين، إذاً فقد انحرفوا عما كانوا عليه في زمن النبي ﷺ بلا شك، ومن ثم لا حرمة لمن نكص على عقبيه ولا اعتبار لسابقته في الإسلام ما دامت هذه خاتمته، وهكذا تآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص وسيكون لنا وقفة موجزة مع هذه الفئة الضالة نستعرض فيها بذورها ونشأتها وتطور أفكارها وفقاً للمسار الحركي للأحداث، ذلك لأنه في مقابل غلوهم وشططهم نشأ الفكر الإرجائي المفرِّط والمضيع للدين.

7- وآخر الفئات هي التي حاولت أن تقف موقفاً وسطاً مع ما حدث من الصحابة بين القول بأنهم على الحق الذي يتنافى في رأيهم مع ما بدر منهم من خلاف واقتتال، وبين القول بأنهم على الباطل وهو ما يتنافى مع فضلهم وسابقتهم، فقالوا: أما نحن فلا نوالي أحداً منهم ولا نعاديه ولا نشهد له بحق ولا باطل فنكل أمر الجميع إلى الله، وسمي هذا بالإرجاء الأول وهو غير الإرجاء المتعلق بالإيمان، وإن كان الأخير هو التطور الطبيعي للأول. وممن تكلم وأول من كتب عنه هو الحسن بن محمد بن الحنفية، كما حكاه ابن عساكر في تهذيب دمشق والمزي في تهذيب التهذيب كلاهما عن عثمان بن حاطب حيث ذكرا قول الحسن: "ولم أر شيئاً أمثل من أن يرجأ علي وعثمان وطلحة والزبير فلا يتولوا، ولا نتبرأ منهما ".

والملاحظ هنا أن كل هذه الأطراف قد تباينت مواقفها حول الحدث والأشخاص الفاعلين فيه، أما ولاء أو براءة أو توقفاً ليس إلا فلم يكن ثمة أفكار أو مذاهب عقدية والتي تكونت فيما بعد مع تطور المسار الحركي للأحداث.

إن هذا التباين في المواقف مع وحدة الحدث – مقتل عثمان وتداعياته – أبلغ دلالة على أنه المنطلق الوحيد لما آل إليه أمر الأمة من تفرق وتشرذم ولم يكن انطلاقاً من فكرة مسبقة، ولكن الفكرة وليدة الأحداث، ويؤكد ذلك التقارب الزمني في نشأة كل المذاهب الباطلة والتي نشأت وترعرعت في ظل تلك الأجواء السامة، وهذا ما سيكشف عنه السياق التاريخي.

ويهمنا من كل هذه الأطراف والتي سنبدأ بها الفرقة المارقة – الخوارج – والتي كانت ولسبب غلوها هي الدافع لظهور المرجئة على اختلاف توجهاتهم وشطحاتهم والتي سنثني بها فهي أصل موضوعنا.

الفصـل الثانـي

الخـــــــوارج

علمٌ على الفرقة المارقة من فرق الأمة والتي خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ وشقت عصا الطاعة، ورفعت السيف في وجه المسلمين، وحكمت عليه بالكفر وغيره من أطراف النزاع، وكانوا يسمُّون بالقرَّاء المتعمقين، ثم سمُّوا الوعيدية لمَّا رأوا استحقاق مرتكب الكبيرة الوعيد بمجرد الفعل، وتسموا بالشراة أيضاً، وسموا الحرورية مكان تجمعهم الأول حروراء.

ويرجع أول أمر هؤلاء المارقين إلى ذي الخويصرة التميمي في زمن النبوة، عندما استدرك على النبي ﷺ في قسمة الغنائم، واتهمه بأنه لم يعدل.

وهاك الحديث الذي يكشف كثيراً من صفاتهم التي ما فتأت تلازمهم، والتي تعتبر التربة الخصبة لغلوهم في كل مذهب ذهبوا إليه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: " بينا رسول الله ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك من يعدل إذ لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب: دعني أضرب عنقه، قال: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في قذذه [١] فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل إحدى يديه مثل ثدي المرأة، يخرجون على حين فرقة من الناس، قال أبو سعيد: أشهد سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن عليا قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ.

وفي رواية " يخرج من ضئضئ هذا الرجل " وفي رواية لأبي سعيد " يقرأون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم " .

1- قذذه، نصله، رصافه، نضيه: هي أجزاء السهم

وفي صحيح البخاري أيضاً عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيخرج قوم في آخر الزمان حداثي الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فقاتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة ".

وقبل أن أشرع في الخوض في أمر ذي الخويصرة ومن تلاه من الخوراج وفجاجته مع رسول الله ﷺ أذكر موقف صحابي آخر في موضوع القسمة ينبئ عن أدب الصحابة مع رسول الله ﷺ .

فعندما وجد سعد أن النبي ﷺ يعطي أناساً ويدع من هم خيراً منهم، قال للنبي ﷺ ما لك عن فلان إني أراه مؤمناً، قال: أو مسلماً " ثلاثاً "، ثم قال الرسول ﷺ:" إني أعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه مخافة أن يكبه الله في النار" فهو استفهام مهذب معلل، وبيان من الرسول حانٍ مفسر.

ثم انظر أيضاً إلى أدب الصحابة الكرام مع رسول الله ﷺ وخاصة من تآمر هؤلاء المارقون على قتلهم، لا أقول علي بن أبي طالب وهو خير من على الأرض يومئذ، فحين أعطاه رسول الله ﷺ الراية وأمره أن ينفد إلى القوم ولا يلتفت، فلما أراد استيضاح أمر ما، رجع القهقري ولم يلتفت.

ولكن أشير إلى عمرو بن العاص وهو يصف أدبه مع النبي ﷺ قال: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه،ولومت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة. [رواه مسلم]

فأين هؤلاء من هذا التميمي المتجرئ، الذي دفعه غلوه المفرط الجانح، ومصلحته الذاتية الآنية، إلى جانب سفاهة العقل، وعدم التثبت في الأمر، وغلظة الطبع، وفجاجة المقال، والتسرع في الحكم ففي رواية يقول للنبي ﷺ: " اعدل فإنك لم تعدل " وفي أخرى يقول: " هذه قسمة ما أريد بها

وجه الله " فهي إذاً الجلافة والعجلة والسفاهة، وكلها صفات لازمت من بعده.
أقول دَفَعَهُ كل ذلك إلى اعتبار عدم التسوية في القسمة علامة على عدم العدل دون النظر إلى منزلة من يخاطب فيلزم نفسه بأدب الحديث ودون أن يكلف نفسه عناء التثبت كما فعل سعد حتى تتضح له المصلحة التي راعاها النبي ﷺ في هذا الأمر.
وهكذا القوم، فلم يشفع لهم إذن أنهم أهل صلاة وصيام وقراءة، وان عُمر ومن معه في هذا الموقف يحقر أحدهم صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم....
ولم يشفع لهم أنهم كانوا يسمون بالقراء المتعمقين، فهم ثبت في القراءة وحسن التلاوة ولكنها لا تدبر فيها ولا تجاوز تراقيهم إلى عقولهم ليعقلوها.
لم يشفع لهم ذلك أن اعتبرهم الرسول ﷺ مارقين من الدين بالكلية، ولنا وقفه مع هذا الحكم لاحقاً.
فمشادتهم للدين هذه أشبه بالثلاثة نفر الغالين الذين تقالوا عبادة الرسول ﷺ إلى عبادتهم فألزمهم النبي ﷺ بالتوسط وإلا فمن رغب عن سنته فليس منه.
وأبرز مثال على تشددهم في العبادة وفجاجتهم وعدم تثبتهم أن أحد شيوخهم وروادهم وهو عمرو بن جرير- أول من سل سيف للخوارج – والذي نجا يوم النهروان، وبقى إلى أيام معاوية، وظفر به زياد بن أبيه مع مولى له، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال فيهما خيراً وسأله عن عثمان رضي الله عنه فقال: كنت أوالى عثمان على أحواله في خلافته ست سنوات ثم تبرأت منه وشهد عليه بالكفر؛ وسأله عن علي رضي الله عنه فقال: كنت أتولاه إلى أن حكم الحكمين ثم تبرأت منه، وشهد عليه بالكفر، وسأله عن معاوية فسبه سباً قبيحاً، فأمر زياد بضرب عنقه، ثم دعا مولاه فقال له: صف لي أمره واصدق، فقال: ما أتيته بطعام في نهار قط، ولا

فرشت له فراشاً بليل قط. [١] فهذه عبادتهم واجتهادهم، وتلك جرأتهم وخبث معتقدهم.

☝ بعد أن استعرضنا جذورهم وصفاتهم الدافعة إلى ما ذهبوا إليه، نعود إلى الحدث الأهم إلى صفين وبزوغ أمر المحكمة الأولى.

المُحَكِمَة الأولى :- نقول : إنه قد ابتدأ أمرهم يوم صفين حين رفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح بعد أن كاد الأشتر [٢] أن يهزمهم وحينئذ قالوا لأمير المؤمنين علي ﷺ عليك أن تحكم كتاب الله وإلا فأنت كافر، فلما سمع رجل منهم يقال له الحجاج بن عبيد الله من تميم بذكر الحكمين ضرب معاوية على إليته وقال: أتحكم في دين الله؟ لا حكم إلا لله! فلتحكم بحكم الله في القرآن، فسمعها رجل منهم فقال: طعن والله فأنفذ. فسموا المحكمة[٣] .

وفي الفتح(284/12) والطبري(83/5) قال: " لما وافقهم علي على التحكيم كارها مرغما قالوا: قد حكمت الرجال في دين الله فأنت كافر لأنه لا حكم إلا لله، قال لهم، ما حكَّمت مخلوقا إنما حكَّمت كتاب الله وما فعلت ذلك إلا برأيكم، قالوا قد كنا لمَّا رضينا بالتحكيم كافرين، والآن نتوب من الكفر، فان شهدت على نفسك بالكفر وتبت عدنا إلى طاعتك،فقال: أبعد إيماني بالله ورسوله ﷺ وهجرتي وجهادي مع رسول الله، أشهد على نفسي بالكفر، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. وعندما كتبت وثيقة الصلح، وطلب أهل الشام منه أن يمحو كلمة أمير المؤمنين ﷺ فمحاها رغبة في الصلح ، وتصديقاً لما أخبر به النبي ﷺ يوم الحديبية، قال الخوارج قد محوت عن نفسك إمرة المؤمنين فأنت إذن أمير الكافرين. وعندما قيل لهم عودوا إلى طاعة أمير المؤمنين، ولا تشقوا العصا، قالوا: إذا جئتمونا بمثل عمر فعلنا " انتهي الطبري والفتح.

1- الشهرستاني في المِلل والنِّحل
2- الأشتر: هو الأشتر النخعي قائد جيش علي في حرب معاوية وأحد الرؤوس الذين ألبوا على عثمان ﷺ
3- الشهرستاني في الملل والنحل

وبايعوا أحد مشايخهم وهو عبد الله بن وهب الراسبي أميرا للمؤمنين، وهو كما يقول عنه ابن حزم في كتابه الفِصَل: " أعرابي بوال على عقبيه - لا سابقة له ولا صحبة ولا فقه"

انظر يطلبون مثل عمر ويبايعون من هذا نعته، وهكذا دأبهم تعجل ثم نكوص.

وهكذا ولد التأصيل الأول من بطن الحدث، فبعد أن كانت مجرد مواقف تجاه أشخاص بأعينهم وفقاً للأحداث – غدت مبادئ عامه مثل التكفير بالذنب، وكذا قضية الإمامة من خارج قريش. وتتابعت الأصول مع مسيرة الأحداث.

وتجرأ أشقاهم وقتل علياً ﵁ وهو خير من على الأرض يومئذ فقالوا في ابن ملجم (وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ...) الآية، وقالوا في علي ﵁ (**وَمِنَ النّاسِ مَن يُعْجِبُكَ...**) الآية، خابوا وخسروا!!.

ومن المضحكات المبكيات والتي تكشف عن شططهم، وتورعهم في الصغائر والسفاسف ، وولعهم وتجرأهم على العظائم والشنائع، مما يكشف عن خلل في العقل الجمعي لديهم، وأبرز مثال على ذلك هو " تلاومهم فيما بينهم علي تمرة معاهد أخذها أحدهم بغير إذن، وكان قد وقع في أيديهم عبد الله بن خباب بن الأرت، فقال لهم: " أنا أعظم حرمة من هذه التمرة فلم يبالوا أن يقتلوه كما بالوا بحرمة تمرة النصراني ثم دعوا سريته[١] وهي حبلى فبقروا عما في بطنها". عن الفتح بتصرف.

وكان من أعظم أسباب تطور الفكر واتساع مجاله نجاحهم في حكم بعض الأقاليم في زمن الخلاف بين ابن الزبير والأمويين في أواخر العقد الخامس الهجري، مثل الأهواز وفارس وكرمان على يد أحد أمرائهم وهو نافع ابن الأزرق، حيث أسسوا دار إسلام وهجره، ومن هنا ظهرت دواعي الأحكام التطبيقية والتي هي بمثابة أصول ككفر من لم يهاجر إليهم، وامتحان من قصد دارهم، والتقية في دار الكفر، والحكم على الأطفال، ودعوة من بلغ منهم... إلى آخر شطحاتهم.

1- سريته: أمته أو جاريته.

استجلاء موقف الخوارج في هذه الأحداث:-
يتقرر ذلك من خلال سرد الوقائع الفعلية المنسوبة إليهم وهي:-
١ -تكفير الصحابة وسبهم ولعنهم، ومنهم المبشرين بالجنة.
٢ -شق عصا الطاعة عن الإمام المبايع له.
٣ -رفع السيف في وجه المسلمين وقتالهم وقتلهم بل وقتل أمير المؤمنين علي.

دوافعهم التي بنوا عليها مواقفهم:-

1- وقوع القتال بين الصحابة وهم أعلم الناس بالدين، إذن فقد انحرفوا عما كانوا عليه زمن النبي ﷺ وهو القائل " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ".

2- التحاكم إلى الرجال وقد قال الله تعالى: (**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ** ...) الآية، وقال تعالى:(.. **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**). الآية

إذن فقد رأوا كفراً بواحاً يستلزم شق عصا الطاعة ولا حرمة لمن نكص على عقبيه ولا اعتبار لسابقته.... هكذا دأبهم في التنطع والعجلة.

استبيان موقف الصحابة الكرام من تلكم التهم:-

بادئ ذي بدء نقرر أنا لسنا في سبيل تبر ئ ساحتهم " رضي الله عنهم " ممن يسارع إلى تأويل النصوص وصرفها عن ظاهرها طالما كان فهمها على ظاهرها لا مشاحة فيه، بل وهو الأقرب للصواب، وفقاً للقواعد الأصولية المقررة، مع مراعاة شروط تطبيق النص وحين توافر الأسباب وزوال الموانع.

فعن وقوع القتال بين الصحابة، فلم تتوافر دلائل تفيد إصرارهم وعزيمتهم على القتال وحرص كل طرف على قتل صاحبه، بل كان كل طرف منهم سواء في واقعة الجمل أو صفين حريصاً على وأد الفتنة، وحقن الدماء، وتذكير صاحبه، والمسارعة إلى الصلح أو التحكيم، بل رجوع من ذكِّر منهم إلى الحق مثل طلحة والزبير إذ ذكرَّهما عليٌ أمراً فتذاكراه، وقُتلا رضي الله عنهما وقت انصرافهما، وأما عائشة رضي الله عنها فكانت محمولة على ما فعلت وندمت على خروجها وأثنيت عن

الرجوع، فقد روى الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن حازم أن عائشة لما أتت الحوأب سمعت نباح الكلاب فقالت ما أظنني إلا راجعة، إن رسول اللهﷺ قال: أيتكن تنبح عليها كلاب الحوأب، فقال لها الزبير: ترجعين عسى الله أن يصلح بك بين الناس..." الحديث وهذا إسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه(١).

حتى علي رضي الله عنه كما نقل عنه ابن تيمية - في مجموع الفتاوى- يزكي موقف المعتزلين بقوله " لله در مقام قامه سعد بن مالك، وعبد الله بن عمر، إن كان براً إنَّ أجره لعظيم وإن كان آثماً إنَّ خطأه ليسير" ولا يقول هذا إلا متندماً رغم أنه أدنى الفئتين إلى الحق.

فلم يكن لديهم رضي الله عنهم عزيمة ولا رغبة في القتال ، كما أنه قد تحققت لدى كل منهم موانع تمنع إنزال الحكم عليهم وتوجب إعذارهم، فقد كان لديهم جميعاً تأويلات سائغة في الجملة لهذا الاقتتال حتى معاوية لم يكن شاقاً لعصى الطاعة ولا منازعاً الأمر أهله، فلم يكن قد بايع، وكان صاحب دم، فلديه سلطان من الله وإن لم يستعمله في محله.

أمَّا عن تحكيم الرجال، فقد نفاه عليٌّ عن نفسه لهم، وبعث إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فألزمهم الحجة بأن علياً نزل على حكم الله، فرجع من رجع منهم، وشقى من شقى بجهله وعناده.

وإذ قد بَرِأت ساحة الصحب الكرام مما نسب إليهم وتبين عدم استحقاقهم الوعيد المترتب على الأفعال المنسوبة إليهم، وبطلت مبررات ودوافع القوم، فقد وجب أن نعود إليهم لتوصيف شنائعهم في حق الصحابة، ليتبين لنا استحقاقهم لحكم النبي ﷺ فيهم.

1- عن تكفير الصحابة (رضي الله عنهم) ومنهم المبشرون بالجنة، يقول الرسول ﷺ " من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان في

1- البداية والنهاية، دلائل النبوة

أخيه ما يقول وإلا حارت إليه " وفيه أيضاً تكذيب لوعد الرسول لهم بالجنة[1].

2- وعن شق عصا الطاعة فقد قال رسول الله ﷺ " من جاءكم وأَمْرُكُم جميع على رجل منكم يريد أن يشق عصاكم فاقتلوه كائناً من كان " وقال " من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه[2] " .

3- وعن رفعهم السلاح في وجه المسلمين، فقد قال ﷺ " من حمل علينا السلاح فليس منا[3] " وكلها نصوص واضحة الدلالة على كفر من كانت هذه صفاته وأفعاله، وإذ وضح إصرارهم عليها بعد تبيانها لهم، وبيان فساد تأويلهم، فقد لزمهم حكم رسول الله ﷺ فيهم بقوله " لا يجاوز إيمانهم تراقيهم ".

وحين قال: " يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " فهل هناك أصدق تعبير وأدق تمثيل عن الكفر وزوال الدين بالكلية من هذا الوصف، ثم يبالغ الرسول الحكيم – حتى لا يدع مجالاً لمتمحك – بقوله ﷺ " يُنظر في قذذه ... في نصله ... في رصافه... في نضيه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم " أي لم يبق أدنى أثر للدين لديهم.

فهل بقى لدى من كان دينهم وديدنهم التأويل ولى عنق النصوص من المرجئة، مسحة عقل أو ذرة حياء ليؤولوا النصوص ويصرفوها عن معانيها ليسلم لهم إفكهم ومذهبهم الفاسد فيثبتون لهم إيماناً بشبهة أنهم يقولون من خير قول البرية ولديهم من الخشية والورع والزهد والرغبة في التقرب والتزلف إلى الله ما أضج مضجعهم، وصرفهم عن طلب الملذات، فهم إذن مؤمنون، وهم أهل قبلة، فهل هذا نافعهم؟ "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا "

ويظهر هذا المنحى جلياً في شرح الإمام النووي لحديث: " إذا أكفر الرجل الأخاه فقد باء بها أحدهما " قال النووي في شرحه على صحيح مسلم: " وهذا الحديث مما عده بعض العلماء مشكلاً من أن ظاهره غير مراد "- يقصد أن رسول الله ﷺ لم يرد إلحاق الكفر به - وفي سبيله إلى

1- صحيح مسلم
2- مسند أحمد وسنن أبي داوود
3- صحيح مسلم

تأويله وصرفه عن ظاهره قال:" وإذا عرف ما ذكرناه فقيل في تأويل الحديث عدة أوجه: أحدها أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، قال النووي: وهذا الوجه نقله القاضي عياض عن الإمام مالك بن أنس، ثم قال النووي: وهو ضعيف لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع " أ.هـ هكذا يرى النووي أن تكفير الإمام مالك للخوارج رأي ضعيف.

وقد تمسح القوم بقول منسوب إلى الإمام علي ﷺ " هم من الكفر فروا " كعادتهم في التقاط الشوارد والإشارات الموغلة في البعد والمرجوحة وغير الصحيحة لرد الصحيح والصريح من النصوص ليسلم لهم إفكهم، مع ثبوت رواية علي نفسه للحديث الذي رواه البخاري وفيه قول رسول الله ﷺ(فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة "، فهل يؤجر المسلم على قتل أخيه المسلم وهو أعظم حرمة عند الله من فناء الدنيا؟ وقد قال الرسول ﷺ نفسه " لئن أظفرني الله بهم لأقتلهم قتل عاد " فهل كان قوم عادٍ مسلمين؟ !!

ولما كان الإمام علي كرم الله وجهه يرى الخوارج مارقين من الدين كما ذكر النبي ﷺ فقد طابت نفسه وانفرجت أساريره حين عثروا على ذي الثدية بين القتلى فهم وكما أخبر عنهم النبي ﷺ فيما رواه الترمذي : هم شر قتلى تحت أديم الأرض " فهل شر القتلى تحت أديم الأرض مسملون؟

هذا ... والأمر كذلك فالأجدر ألا نقع فيما وقع فيه الخوارج المارقون بتكفير الصحابة رضي الله عنهم – وكذا عموم التكفير بالذنب وبدون مراعاة شروط تطبيق النصوص.

وألا نلجأ إلى تأويل النصوص ولَيْ عنقها كرد فعل على منحى الخوارج كما فعل المرجئة فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فعطلوا النصوص، وفرغوا دين الله من مضمونه وجاءوا بدين جديد، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فآفة الفريقين موقفهم من نصوص الوعيد – فالخوارج غلوا ولم يراعوا الشروط الواجب توافرها لاستحقاق المعين الوعيد وكذا زوال الموانع

التي تحول دون ذلك الاستحقاق وهذه آفة كبرى لا يأبه بها الكثير – أما المرجئة فذهبوا إلى أن النصوص طالما لن تطبق على الصحابة وأطراف الفتنة فيجب أن تأول وتصرف عن ظاهرها بشتى طرق التأويل التي تؤدي إلى أن الوعيد غير مقصود وأنه للزجر فحسب أو أنه على سبيل المجاز... الخ فعطلت النصوص وضيع الدين. وقد حان الحين لكشف إفكهم وما يزعمون.

الفصل الثالث

الإرجاء والمرجئة

1- المرجئة الأولى: الذين أرجوا أمر الصحابة المتقاتلين فلا يشهدون عليهم بإيمان ولا كفر.

قال الإمام محمد بن جرير الطبري في كتابه تهذيب الآثار: فإن قال قائل: ومن هم المرجئة؟ وما صفتهم؟ قيل: إن المرجئة هم قوم موصوفون بإرجاء أمر مختلف فيما ذلك الأمر؟

فأما إرجاءه فتأخيره، ومنه قول الله تعالى:**" وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ "**

قال: ابن جرير: فأما الإرجاء الذي بتأخيره سميت المرجئة مرجئة فقد سئل بن عيينة عنه، فقال الإرجاء على وجهين: قوم أرجوا أمر علي وعثمان فقد مضى أولئك، فأما المرجئة اليوم فيقولون: الإيمان قول بلا عمل فلا تجالسوهم، ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصلوا معهم ولا تصلوا عليهم.

قال ابن جرير: "إن الأغلب من استعمال هذا الاسم فيمن كان قوله: الإيمان قول بلا عمل، وفيمن كان مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق بالقول دون العمل".

وعلى ذلك فقد كان هناك إرجاء متعلق بالموقف من الصحابة المختلفين لاسيما علي وعثمان (رضي الله عنهما) الذين غالا في شأنهم كل من الخوارج والشيعة السبئية، فمن مكفر لهم جميعاً وهم الخوارج، ومن غالا في علي وقدمه على سائر الصحابة بل وذهب إلى أبعد من ذلك في حين كفر ما عداه وهم الشيعة.

فكأن هؤلاء المرجئة أرادوا التوسط بين طرفي النقيض وقد سمي هؤلاء بالمرجئة الأولى.

وقد سبق أن ذكرنا أن أول من كتب عن هذا الإرجاء وتبناه هو الحسن بن محمد بن الحنفية حين قال: " ولم أر شيئاً أمثل من أن يرجأ علي وعثمان وطلحة والزبير فلا يُتَوَلَّوا ولا نتبرأ منهم " ومن هؤلاء أيضاً محارب بن دثار قاضي الكوفة المتوفى سنة 116 هـ، يقول عنه ابن سعد

في الطبقات (37/6): " كان من المرجئة الذين كانوا يرجون علياً وعثمان إلى أمر الله، ولا يشهدون عليهما بإيمان ولا كفر " كما نقله الذهبي في تهذيب التهذيب (249/10).
ومن أبيات محارب الدالة على هذا التوجه، ما أورده له صاحب كتاب الزينة.

يعيب عليَّ أقوامٌ سفاهـــــا بأن أرجى أبا حسن عليا
وإرجائي أبا حسن صـــواب عن العمرين براً أو شقيا
وعثمان وماج[1] الناس فيــه فقالت فرقة قولاً بذيـــا
وقال الآخرون إمام صـــدق وقد قتلوه مظلوماً بريـــا
فإن قدمت قوماً قال قـــــوم أسأت وكنت كذاباً رديـــا

وهذا عين ما قاله الشيعة في شأنه حين قال شاعرهم:-

يود محارب لو قد رآها وأبصرهم حواليها جثيا
وأن لسانه من ناب أفعى وما أرجى أبا حسن عليا

وهذا مجرد مثال على المشاحنات والمناظرات التي كثرت وانتشرت في هذه الآونة بين منظري الفرق الرئيسية – الخوارج والمرجئة والشيعة – حول الموقف من الصحب الكرام خاصة.

هذا ما يوضحه موقف التابعي الفقيه إبراهيم النخعي - ولنا وقفات معه - وكان معاصراً لمحارب بن دثار فقد ذكر ابن سعد بسنده: " أن رجلاً كان يأتي إبراهيم النخعي فيتعلم منه، فيسمع قوماً يذكرون أمر علي وعثمان، فقال أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين فيهما، فسأل إبراهيم النخعي عن ذلك فقال: "ما أنا بسبئي ولا مرجئي ".

هذا عن الإرجاء الأول والذي نشأ – كما قررنا – كردة فعل لغلو الخوارج وغيرهم، ومع تطور الفكر الخارجي والذي تعدى الموقف من الصحابة ليشمل كل أصحاب الكبائر واستحقاقهم الوعيد بمجرد الذنب،

1- ماج الناس: اختلفت أمورهم واضطربت

كان من الطبيعي أن يتطور الإرجاء ليصل في أحد أطواره إلى فصل العمل عن حقيقة الإيمان.

ولم لا – وفي رأي المرجئة – أن الصحابة الكرام ومنهم المبشرين بالجنة، يقعون في أعمال هي من عظائم الأمور، وهل هناك أعظم من حرمة دم المسلم؟ ومع ذلك لا يمكن الحكم عليهم بالكفر، فهم رغم ذلك مؤمنون، بل من أكمل المؤمنين إيماناً، ومن ثم يجب فصل العمل وتأخيره عن مسمى الإيمان!!!

وإن تشابك النوعان أحياناً – أي الموقف من الصحابة مع فصل العمل عن الإيمان – والأخير هو الذي يعنينا ولقد ألقينا الضوء على بذوره ومبررات نشأته، وسنبدأ بعون الله الكلام عن تاريخ ظهوره ورواده ثم تطوره وأسباب تطوره.

2- مرجئة الفقهاء:هم الذين ظهروا في عهد التابعين وادعوا أن الإيمان هو التصديق بالقول دون العمل وهو لا يزيد ولا ينقص.
وإليكم بعض من أقوال معارضيهم التابعين يتجلى من خلالها تاريخ ظهورهم وبدء انتشارهم:-
إن أوثق نص ورد فيه هذا الإصطلاح هو ما ورد في الجامع الصحيح للإمام البخاري في باب الإيمان والذي ترجم له بقوله " باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر " أورد تحته بعض الآثار مثل قول إبراهيم التيمي " ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً ".

وقول ابن أبي مليكه " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما فيهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل".

ثم قال البخاري: " حدثنا محمد بن عرعره، حدثنا شعبة عن زبيد، قال: سألت أبا وائل عن المرجئة فقال: حدثني عبد الله – يعني ابن مسعود – أن النبي ﷺ قال" سباب المسلم فسوق وقتاله كفر " وقد ساق البخاري تلكم الآثار وذلك الحديث ليرد على معتقد المرجئة بأن الإيمان قول بلا

عمل، وأن الناس متساوون فيه، بل إن إيمان تارك العمل كإيمان جبريل وميكائيل فهو لا يزيد ولا ينقص .

وبالرجوع إلى تراجم السائل والمسئول في هذا الحديث يمكننا أن نلقي الضوء على الفترة التاريخية التي كثر فيها اللغط عن هذه الظاهرة ومروجيها.

فالسائل هو زبيد بن الحارث اليامي، المتوفى سنة 122 هـ وهو من صغار التابعين ورأى عدداً من الصحابة ذكر منهم أبو نعيم في سير أعلام النبلاء أنس وابن عمر، والمسئول أبو وائل هو شقيق بن سلمة – راوي حديث الفتن عن حذيفة –من كبار التابعين، أدرك النبي ﷺ ودفع لعامله الصدقة ولكنه لم يظفر بشرف رؤيته، وهو من خيار أصحاب عبد الله بن مسعود قال ابن أبي شيبه: مات في زمن الحجاج سنة82 هـ بعد الجماجم[1] ووافقه خليفة بن خياط والمزي في تهذيب الكمال.

قال صاحب سير أعلام النبلاء عن شهاب بن خراش " قال هشام: لقيت شهاباً وأنا شاب في سنة أربع وسبعين، فقال لي : إن لم تكن قدرياً ولا مرجئاً حدثتك، وإلا لم أحدثك، فقلت: ما في من هذين شيء ".

وفي الإبانة الكبرى لابن بطه يذكر موقف سعيد بن جبير التابعي الشهير كبير القراء الثائرين على الحجاج، وقد قتله الحجاج لما خرج مع ابن الأشعث الكندي سنة 80هـ .

يقول سعيد بن جبير " المرجئة يهود هذه القبلة "وقال " مثلهم كمثل الصابئين، إنهم أتوا اليهود، فقالوا ما دينكم؟ قالوا اليهودية، قالوا فمن نبيكم؟ قالوا: موسى، قالوا فماذا لمن تبعكم ؟ قالوا: الجنة. ثم أتوا

1- الجماجم: هي آخر معارك الحجاج مع الأشعث الكندي

النصارى، فقالوا: ما دينكم؟ قالوا النصرانية، قالوا فمن نبيكم؟ قالوا: عيسى، قالوا فماذا لمن تبعكم؟ قالوا : الجنة، قالوا: فنحن بين **ذين** "[١]

يذكر إبراهيم النخعي التابعي وفقيه الكوفة الأكبر في عصره، وقد عاصر تلك الأحداث وتوفى بعد الحجاج بأشهر سنة 96هـ ، ومن تلاميذه أحد أكبر مروجي هذه الفتنة- حماد بن أبي سليمان – شيخ الإمام أبي حنيفه، يقول إبراهيم النخعي – بعد أن دخل عليه قوم من المرجئة – " لفتنتهم عندي أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة " [٢].

ويشير بن سعد إلى التابعي المحدث سالم ابن أبي الجعد المتوفى سنة 100هـ : " كان له ستة بنين – فاثنان شيعيان، واثنان مرجئان، واثنان خارجيان – فكان أبوهم يقول" قد خالف الله بينكم".[٣]

هذا غيض من فيض لمواقف بعض التابعين المتصدين لتلك البدعة الماحقة لبيان تاريخ شيوعها.

وإليك بعض أعلامها ومروجيها لبيان سوء معتقدهم، وكيف كان التابعون الأجلاء يردون على شطحاتهم وافتراءاتهم على دين الحنيفية.

1- **ذر بن عبد الله الهمداني** : وهو تابعي متعبد توفى قبل نهاية القرن الأول، نقل الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب أن ذراً شهد مع ابن الأشعث قتاله للحجاج وذلك سنة80هـ وفي السُنة لعبد الله بن أحمد (ص81)، والإبانة لابن بطة (لوحة 170)، كلاهما عن سلمة بن كهيل قال: "وصف ذر الإرجاء، وهو أول من تكلم فيه فقال: إني أخاف أن يتخذ هذا ديناً، فلما أتته الكتب في الآفاق، قال: فسمعته يقول: وهل أمر غير هذا ".

1- ابن بطه لوحة169، وفي لوحة168 يقول" قال الأوزاعي: كان يحي وقتاده يقولان:" ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء".
2- الطبقات: لابن سعد (196/6)، الأزارقة: هم أشد فرق الخوارج غلواً
3- الطبقات: لابن سعد (204/6)

وفي السُنة لعبد الله أيضاً عن الحسن بن عبيد الله قال: " سمعت إبراهيم النخعي يقول لذر: ويحك يا ذر ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال: ما هو إلا رأي رأيته، قال الحسن: ثم سمعت ذراً يقول: إنه لدين الله الذي بعث به نوحاً ".

قال: كان سعيد بن جبير شديداً عليه وقال له" إنك لا تزال تلتمس ديناً قد أضللته، ألا تستحي من رأي أنت أكبر منه؟ " وقال سعيد عنه" إن هذا يحدث كل يوم ديناً "[١]

2- **حماد بن أبي سليمان**: تابعي فقيه وتلميذ إبراهيم النخعي، وشيخ أبي حنيفة الإمام ثم تبعه أهل الكوفة.

روى عبد الله بن أحمد أن إبراهيم النخعي شيخ حماد – قال: " لا تدعوا هذا الملعون يدخل عليَّ بعد ما تكلم في الإرجاء".

وفي سير أعلام النبلاء (235/5)، قال أبو هاشم: " أتيت حماد بن أبي سليمان، فقلت: ما هذا الرأي الذي أحدثت لم يكن على عهد إبراهيم النخعي؟ فقال: لو كان حياً لتابعني عليه"

وفيه أيضاً (235/5)، قال معمر: قلت لحماد: كنت رأساً وكنت إماماً في أصحابك، فخالفتهم فصرت تابعاً، قال: " إني إن أكون تابعاً في الحق خير من أن أكون رأساً في الباطل" قال الذهبي: قلت يشير معمر إلى أنه تحول مرجئاً إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدُّون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان: إقرار باللسان ويقين في القلب".

3- **سالم الأفطس**: وهو أول من جلب الإرجاء من الكوفة موطن شهرته إلى الجزيرة.

وفيه هذه القصة كما أوردها الطبري في تهذيب الآثار، وعبد الله بن أحمد في السُنة كلاهما بسنده عن معقل بن عبيد الله الجزري العبسي قال:

---

[١]- الإبانة: لابن بطه (لوحة 169)

" قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء فعرضه، فنفر منه أصحابنا نفاراً شديداً، وكان أشدهم ميمون بن مهران وعبد الكريم بن مالك، قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر من أصحابي، فقلت إن لنا إليك حاجة فأخل لنا، ففعل فأخبرته أن قوماً قبلنا قد أحدثوا وتكلموا وقالوا إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين، قال عطاء أو ليس يقول الله :" **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** " ؟ فالصلاة والزكاة من الدين.

قال فقلت له : إنهم يقولون: ليس في الإيمان زيادة، قال: أوليس قد قال الله فيما أنزله: " فزادهم إيماناً " فما هذا الإيمان الذي زادهم؟

قال: قلت فإنهم قد انتحلوك، وبلغني أنّ ذراً دخل عليك وأصحابه فعرضوا عليك قولهم فقبلته، فقال لا والله الذي لا إله إلا هو ما كان هذا "

قال معقل: ثم قدمت المدينة، فجلست إلى نافع، فقال ما حاجتك؟ قال: فذكرت له بدو قولهم، فقال: قال رسول الله ﷺ " أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقه وحسابهم على الله" قال قلت: إنهم يقولون نحن نقر بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونشربها وأن نكاح الأمهات حرام ونحن نفعل قال: فنثر يده من يدي وقال: من فعل هذا الأمر فهو كافر".

قال معقل: ثم لقيت الزهري، فأخبرته بقولهم، فقال سبحان الله!! أوقد أخذ الناس في هذه الخصومات، قال رسول الله ﷺ " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن " ...انتهى.

فانظر هداك الله إلى مكانة هؤلاء القوم المفتونين فهم تابعون فقهاء متعبدون وأئمة متبعون وأنظر إلى سوء معتقدهم، وتذكر معي مقالة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه " لا تعرف الحق بالرجال ولكن اعرف

الحق تعرف أهله " ثم انظر معي إلى هذه الكوكبة العظيمة من التابعين الأجلاء، ذكرنا منهم أبو وائل شقيق بن سلمة، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، والزهري، ويحي، وقتادة والأوزاعي، وعطاء بن أبي رباح، ونافع، وشهاب بن خراش، وهشام، وميمون بن مهران، وعبد الكريم بن مالك، وابن عيينه، سلمة بن كهيل وسالم بن أبي الجعد، والحسن بن عبيد الله وابن أبي مليكه، ومعقل بن عبيد الله الجزري، وزبيد بن الحارث،ومعمر وأبو هاشم.

ثم انظر معي كيف كان هؤلاء النفر يردون على افتراءات المرجئة بالنصوص الشرعية وليس بحجج كلامية ولا بأوهام منطقية كمسلك هؤلاء المفترين.

وانظر كيف كانوا يصفون هذا المذهب بقولهم " دين محدث "، " إن هذا يحدث كل يوم ديناً "، " ما هذا الدين الذي جئت به " يرونه ديناً جديداً وليس ثمة مذهب وكيف كانوا يصفون معتنقيه " ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء " ، " لفتنتهم أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة "، " أضر بدعة على الإسلام "، " تركوا هذا الدين أرق من الثوب السامري " ، " المرجئة يهود هذه القبلة "، " مثل الصابئين "، " لا تصلوا معهم ولا تصلوا عليهم "، " من فعل هذا فهو كافر ". انظر لم يجتمع هذا التوصيف على أي من أهل الأهواء والنِّحَل حتى الخوارج المارقين الذين فر القوم ومازالوا خوفاً من التشبه بهم، فهل هذا رأي يرتجى؟ ودين يحتذي؟!!

أعاذنا الله وإياكم من الضلالة بعد الهدى... آميـــــن

الباب الثاني

البيئة والعوامل التي ساعدت على النشأة والتطور

ويتضمن فصلين:-

1- الفصل الأول: البيئة الخصبة للإرجاء، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

*** المبحث الأول: في ظلال السيوف وظهور الفرق والمقالات الشاذة.**

*** المبحث الثاني: حركة الترجمة وتطور الظاهرة.**

*** المبحث الثالث: اعتماد الكذب وسيلة لترويج ضلالاتهم.**

2- الفصل الثاني: قبسات من النور وسط الظلام الحالك

الفصل الأول
البيئة الخصبة للإرجاء

قبل أن نستطرد في بيان الظاهرة وتطورها، نحاول أن نلقي الضوء على الجو العام والمناخ الذي ترعرعت فيه وساعد على انتشارها وشيوعها.

المبحث الأول: في ظلال السيوف... ظهور الفرق والمقالات الشاذة

نعود القهقري لنسترجع مبدأ الفتنة والتي سأل عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ - والتي تموج موج البحر – وهل تنكسر موجات البحر إلا لتتابعها لاحقتها أشد ما تكون؟! فيجيبه حذيفة ﵁: " إن بينك وبينها باباً " فيسأل عمر: أفيكسر الباب أم يفتح؟ " قال: بل يكسر، فيقول عمر: ذلك أحرى ألا يغلق أبدًا"

وصدق حدسُ ابن الخطاب كعهدنا به ذلك العبد الرباني الذي يرى بنور الله وكما أخبرنا عنه الرسول ﷺ بأنه محدَّث كما ورد عنه في الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ : إنه قد كان في الأمم محدَّثون[١] فإن يكن في أمتي فعمر بن الخطاب ". أقول صدق حَدْسُ الفاروق فلم يغلق الباب أبدًا.

فها هي الفتن تتلاحق تبدأ بمقتله﵁، و تثني بمقتل ذي النورين عثمان ﵁ ويتوالى سفك الدم الزكي المحرم- دماء المسلمين- في واقعة الجمل، ثم صفين، ثم النهروان ثم كربلاء وما أدراك ما كربلاء وقد سفكت فيها أطهر وأزكى الدماء- دماء آل بيت النبوة- على يد أمراء بني أمية، ثم معارك عبد الله بن الزبير معهم والتي استبيحت فيها الكعبة ودكت بالمنجنيق ومعاركه مع الخوارج ومعارك الخوارج مع الحجاج بن يوسف الثقفي أمير جيوش بني أمية والذي كان يرى في خصومه أنهم ناكثون وخارجون عن طاعة ولي الأمر، وقد عرف بمظالمه حتى أنه لمَّا قام بعض العلماء ومنهم إبراهيم التيمي يدعو الخوارج للسلم والدخول في الطاعة، أنكر عليه إبراهيم النخعي بقوله: إلى من تدعوهم؟ إلى الحجاج؟[٢].

1- المحدَّث: هو الملهم الصادق التوقع

2- الطبقات لابن سعد (195/6)

ثم كانت ثورة القراء التابعين وعلماءهم ومنهم سعيد بن جبير مع ابن الأشعث الكندي علي الحجاج، والتي كان لها أسوأ النتائج حين ظهر الحجاج على الأشعث وقضى عليه وأخذ في ملاحقة العلماء وقتلهم واحداً واحداً ومنهم سعيد بن جبير(١)

وكانت الكوفة مركز إمارة الحجاج ومصب جوره في عهد عبد الملك بن مروان، ولهذا كان طبيعياً أن تكون أيضاً بيئة الإرجاء ومركزه، ولما لا فالحجاج مؤمن رغم شنائعه، فما جدوى الطاعات إذ لا حرج من المعاصي والكبائر؟

1- نقلاً من موسوعة الفرق بتصرف" بدأت المعركة بين الأشعث والحجاج بعد أن توقف الأول عن قتال التُّرك إمضاءاً لأمر الحجاج فعاب عليه الأخير ذلك، فما كان من الأشعث إلا أن أعلن خلعه للحجاج، وعلل ذلك لجنده بأن الحجاج يريد التخلص منهم، وكما يروي خليفة بن خياط عن مالك بن دينار قال: خرج مع ابن الأشعث خمس مائة من القراء كلهم يرون القتال "، وبإزاء سيرته الحسنة في الناس وما أفاض عليهم من الأعطيات، وعلاقته الطيبة بالفقهاء والقراء فقد بايعوه على خلع الحجاج، ومن أبرزهم ذر بن عبد الله الهمداني وهو أول من تكلم في الإرجاء كما قدمنا وكذا أبو البحتري الذي قام يحث الناس على قتال الحجاج فقال: أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدُن عليكم دينكم ودنياكم"، وقال سعيد بن جبير: " قاتلوهم، ولا تأثموا ولا يأخذكم حرج من قتالهم بنية ويقين، على آثامهم قاتلوهم، وعلى جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين، واستذلالهم الضعفاء، وإماتتهم للصلاة ". واستمر القتال ثلاث سنوات حتى حلت الهزيمة بابن الأشعث يقول الطبري: " إن الحجاج عندما دخل الكوفة أقام مجلساً وقال لمصقلة بن كرب العبدي وكان خطيباً؛" اشتم كل امرئ بما فيه ممن كنا أحسنَّا إليه، فاشتمه بقلة شكره ولؤم عهده"ثم استطرد قائلاً وكان لا يبايعه أحد إلا قال له: " أتشهد أنك قد كفرت؟ فإذا قال نعم بايعه وإلا قتله، قال وجاءه رجل من خثعم فقال له: أتشهد أنك كافر؟ قال: بئس الرجل أنا، إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر، قال إذاً أقتلك، قال: وإن قتلتني فوالله إني لأنتظر الموت صباح مساء، فقال: أضربوا عنقه – فضربوا عنقه ".

..فكانت تلك الممارسات سبباً في فتح الجدال، هل من يفعل ذلك مؤمن كامل الإيمان؟ وهل لأفعاله صلة بإيمانه الكامل؟ كما قال بذلك مرجئة الكوفة حينئذ وممن صنف ضمن هذا الفريق من المرجئة إلى جانب زر الهمداني، حماد بن أبي سليمان وطلحه بن حبيب العنزي وعمر بن زر الهمداني، وأبو معاوية الضرير، وأبو حنيفة النعمان، وخارجة بن مصعب، ومحمد بن السائب، ومسعر بن كدام، وعون بن عبد الله بن مسعود، وموسى بن أبي كثير وعباد بن منصور، وعباد بن كثير، وأصرم بن غياث، وسعيد بن سالم، والصلت بن مهران وسالم بن عجلان الأفطس، وقيس بن عمرو الماصر. انتهي موسوعة الفرق الإسلامية

ثم كانت ثورة الحارث بن سريج على هشام بن عبد الملك، ثم تهاوى عرش بني أمية علي يد سفاح العباسيين، الذي أعمل فيهم القتل حتى استأصل شأفتهم من المشرق الإسلامي.

والعجيب أن كل هذه الأحداث، وتلك الأنهر من الدماء، قد أريقت في فترة وجيزة تجاوزت نصف قرن بالكاد.

ففي هذه الفترة الوجيزة ظهرت الفرق المارقة وتطور أمرها، بدأت بالخوارج وقد علمت غلوهم وشططهم وعلى نقيضهم ظهرت الشيعة ثم برز قرن الإرجاء في محاولة للتوسط في شأن الصحابة ثم كانت مقالتهم الخبيثة في مسألة الإيمان.

وبسبب هذه المسألة تحديدًا ظهرت المعتزلة على يد واصل بن عطاء في عهد عبد الملك بن مروان، في محاولة لإيجاد موقف وسط بين الخوارج والمرجئة كما ذكر ذلك الشهرستاني في كتاب الممل والنحل (ص 52) يقول: " دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة لا تضر مع الإيمان، بل العمل علي مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، فكيف تحكم لنا في ذلك؟، وقبل أن يجيب الحسن، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فَسُمِّيَ هو وأصحابه المعتزلة".

وظهرت القدرية في نفس الفترة على يد معبد الجهني، وأنكر عليهم عبد الله بن عمر سوء اعتقادهم، وتداعى ظهور سائر الفرق.

ففي هذه التربة العفنة نبتت المقالات الشاذة والتي لم تكن تخطر ببال أحد من الصحب الكرام، فقد أغناهم الله عنها بِوَحْيِّهِ المنَزَّل، فتمسكوا به ورأوا فيه الهدى وفي غيره الضلال مصداقاً لقوله تعالى" **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ". [طه:123]

ومدار هذه المقالات حول أربع مسائل أساسية:-

الأولى: حول صفات المولى تبارك وتعالى فمن مثبت للصفات ومن ينفيها بدعوى التوحيد ومن يشبهه بخلقه، وقد اختلف في هذه المسألة كل من المعتزلة والأشعرية والمجسمة وأيضًا فرقٌ من الشيعة.

الثانية: الإيمان بالقدر إثباتاً ونفياً، والخلاف فيها بين القدرية والجبرية والأشعرية.

الثالثة: الإيمان وصاحب الكبيرة، والخلاف فيها بين الخوارج والمرجئة والمعتزلة.

الرابعة: السمع والعقل والإمامة، والخلاف فيها بين الشيعة والخوارج والمعتزلة. بالإضافة إلى المسألة الأسبق وهي الموقف من الصحابة فكانت بحق تلك الفترة هي البيئة الخصبة والمهيأة لتفشي فتن الرأي وازدهارها.

ففي ظلال السيوف المخضبة بالدماء تغيب الفكرة وتأتي السكرة، سكرة الانتشاء بالنصر الزائف في مقابل مرارة الهزيمة، وحرقة التارات، فيعلو الصخب والضجيج، وتخبو الحكمة والرَّوية، ويحل المراء العقيم والانتصار للرأي محل الجدل بالحسنى والإذعان للحق، ويظهر الغلو والتطرف على حساب التوسط والاعتدال، وتؤدي تلكم التراكمات إلى تصاعد وتيرة الشطط والمغالاة، وتغدو البدعة ديناً ومعتقداً، ولم لا وقد رق الدين وغاب الوازع، وابتعد الناس عن دفء الشرع والمحجة البيضاء، وتخلو عن هدى الله وصراطه المستقيم وهو الملاذ والملجأ والمنجى من الضلال والزيغ. وسلكوا سبل الشيطان، وخرجوا يلتمسون الهدى من غيرهم فبهرتهم أوهام الفلاسفة اليونانيين، وضلالات الملاحدة الهنود، وشطحات الوثنيين الفرس والتي حملوها إلى أهل الإسلام.

فهل هذا هو حال خير أمة أخرجت للناس؟. الأمة التي صنعها الله على عينه ورباها وامتحنها في إيمانها فصبرت وجاهدت في الله حق جهاده، وأيقنت بأن ما عند الله هو الحق وأن ما دونه هو الباطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟.

أمُة أيقنت بأنه بقدر ثقتها فيما عند غيرها يكون مقدار ما يعتورها من شك فيما عندها مصداقاً لقوله تعالى" **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُون** " [هود- 17] وبنفس القدر " **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ...**" فذا على حساب ذلك.

أمة رباها المعلم الأول ﷺ - وليس أرسطو – أن تعتز وتتمسك بمصدر الحق المعصوم وتطرح ما عداه حتى لو كانت شريعة سماوية ووحياً ربانياً سابقاً فما بالك بأوهام وضلالات البشر.

مصداق ذلك ما رواه الإمام أحمد وصححه الألباني عن جابر بن عبد الله " أن عمر بن الخطاب أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فغضب النبي ﷺ وقال:" امتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ثم قال: والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني ".

فوعى ابن الخطاب الدرس، وبيان ذلك ما أورده ابن خلدون في مقدمته ص480 قال" لمَّا فتحت أرض فارس وجدوا فيها كتباً كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منه، وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله ".

هذا شأن الأمة الربانية المتمسكة بمصدر عزتها وتميزها ولكن... قليلاً ما تذكرون فقد مضت الذكرى مع أهلها المعتزين بما أنزل إليهم من ربهم، وجاءت السكرة مع من هم أهلها المنبهرين والمفتونين بما عند من هم دونه من أولياء، مصداقاً لقوله تعالى:**(اتّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مّن رّبّكُمْ وَلاَ تَتّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ)** **[الأعراف- 3]**

المبحث الثاني: حركة الترجمة وتطور الظاهرة

ولقد زكى هذا التوجه اللعين ما صاحب ذلك من اتجاه إلى ترجمة كتب وعلوم الأمم الأخرى والتي فتح المسلمون بلادهم.

ذكر ابن النديم أن أول من بدأ الترجمة هو خالد بن يزيد بن معاوية سنة(85هـ) فأحضر جماعة من فلاسفة اليونانيين من مصر وأمرهم بالترجمة من اليونانية والقبطية إلى العربية، وكانت تلك الترجمة وما يرجى من ورائها عوضاً له عن فوات حظه من الخلافة، لأن بني أمية جعلوها في فروع مروان بن الحكم، وفي عهد عبد الملك بن مروان عربت الدواوين، وتصاعدت وتيرة الترجمة بانقضاء عهد بني أمية وبداية الدولة العباسية وفي طليعة من اهتم بذلك منهم المنصور الذي بالغ في الإنفاق على المترجمين، وترجمت في عهده كتب عن الهندية مثل كتاب(السند هند) وكتب عن الفارسية على يد ابن المقفع الفاحش كترجمته لآراء مزدك الوثنية الإباحية، وكذا ترجمته لمنطق أرسطو أس الفساد في تأصيل المنحنى الإرجائي، وكان قد سبق تلك الترجمة تداول هذا المنطق بين من أعلن إسلامه من اليونانيين وبين العرب المتهافتين والمتشوقين إلى بضاعة من دونهم.

وظهر ذلك في معتقدات الجعد بن درهم وتلميذه الجهم بن صفوان وغيرهم. واهتم أيضاً بالترجمة هارون الرشيد، والذي ترجمت في عهده التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء والصابئة. وقد فسر ابن النديم ذلك برغبة أهل الأديان الأخرى- الذين فتحت بلادهم- أن لا تنقطع صلتهم ولا صلة الأجيال الجديدة منهم بالدين الذي يعتنقونه بعد تعاملهم بلغة العرب.

وبلغت الترجمة أوجهاً في عهد المأمون وهو الذي أرسل البعثات لإحضار الكتب، ونظم بيت الحكمة وأنفق بسخاء على المترجمين.

ولم يهتم هؤلاء الحكام باختلاف ملة المترجمين، ولا توجهاتهم في الترجمة كاهتمامهم بالزندقة أو الشعوبية [1] وينطبق ذلك على يحي بن خالد البرمكي في عهد الرشيد، وكذا علان الشعوبي وابن حشية النبطي في عهد المأمون.

فلا غرو إذن في ظل تلكم العوامل مجتمعة، أن يتطور مذهب المرجئة الفقهاء – الإيمان تصديق بلا عمل – ليزداد سوءً على يد الجهم بن صفوان ليصبح الإيمان مجرد المعرفة بالقلب دونما حاجة إلى قول باللسان ولا عمل بالجوارح.

وقد ركب قوله هذا من كلام الفلاسفة الهنود الذين لا يعدو الإيمان عندهم مجرد الإقرار بوجود الله، ومن كلام المرجئة الفقهاء الذين أصروا على نفي دخول الأعمال في الإيمان.

وغاية ما فعله هذا الدعي أن نقل كلام الطائفة الأولى من محيط الفلسفة ليصبغها بصبغة إسلامية فأصبح مقاله من مقالات الإسلاميين وأخطرها، وإن كان بعض المؤرخين مثل الطبري وأبو عبيده يعدُّونَه مذهباً منسلخاً عن الملة، فمن لوازم هذا الاعتقاد أن اعتبر أهل الأديان الأخرى مؤمنين بمجرد معرفة الله وإن حملوا الصليب وأعلنوا التثليث.

ومما يؤخذ أيضاً على هذا الجهم تصديه لقضية الصفات – اعتماداً على تلك الفلسفة - والتي أخذها عن شيخه الجعد بن درهم والتي نفى فيها صفات المولى ﷻ باعتبار ذلك مخلاً بالتوحيد كما يزعمون، فضلاً عن انخراطه في التآمر على حكم هشام بن عبد الملك فقد كان كاتباً لقائد الثورة عليه آنذاك الحارث بن سريج - تلك الثورة التي جمعت إلى جانب العرب أهل الكتاب ومشركي الترك وهذا يدلك على المنحنى التآمري لأصحاب ذلك المذهب ولن نقف طويلاً عند هذا الاتجاه الحاد في غلوه وشططه، فلا يعنينا العرض التاريخي في شيء،وإنما أردنا أن نبين أنه من تداعيات إرجاء الفقهاء.

1- الشعوبية: هي دعوى ظهرت في العصر الأموي والعباسي لتفريق الأمة إلى أعراق بمقالة حق أريد بها باطل بأنه لا فضل لعربي على أعجمي.

كما أن المرجئة المتكلمين كالأشعري والماتريدي والملقبين بإمامي أهل السنة قد أسسوا عليه مذهبهم في الإيمان بعد أن أجروا عليه تعديلاً لفظياً أكثر من كونه حقيقياً، ليتخلصوا من تلكم اللوازم الشائنة التي سبق أن ذكرناها، ليصبح عقيدة أكثر طوائف الأمة وهو المعتمد اليوم عند عوام الناس ونخبهم على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، وسنعرض لهذه المذاهب في حينها بمزيد بيان.

المبحث الثالث: **اعتماد الكذب وسيلة لترويج ضلالاتهم**

هذا هو الجو العام لتلك الحقبة، هرج ومرج، دماء وأشلاء، حملت في أحشائها أجنة البدع والضلالات التي روج لها ألسنة الكذابين لينصروا مذاهبهم وافتراءاتهم على دين الحنفية السمحة وما أعظمه من كذب أن يصرفَ دينُ الله عن حقيقته وتتحول عبادةُ الله وهي التي من أجلها خُلقنا إلى مجرد إقرار له بالعبودية، فما أضيعه من دين وما أشنعه من كذب.

ومن الأمثلة على ما افتروه من أحاديث على رسول الله ﷺ لينصروا مذاهبهم:-

1- الحديث المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه " أنَّ وفد ثقيف جاءوا النبي ﷺ فسألوه عن الإيمان هل يزيد وينقص؟ فقال لا، زيادته كفر، ونقصانه شك" هذا الحديث وضعه الحكم بن عبد الله البلخي وهو من كبار أصحاب الرأي، قال عنه ابن حبان" كان من رؤساء المرجئة ممن ينقض السنن ومنتحليها "، وقد سرقه منه أحد أصحاب الرأي أيضاً وادعاه لنفسه وهو عثمان بن عبد الله المغربي الأموي- كما قال ابن حبان- ورواه عن حماد بن مسلم عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال: "قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ، فقالوا: "يا رسول الله جئناك نسألك عن الإيمان، أيزيد أو ينقص؟ قال: " الإيمان في القلوب كالجبال الرواسي وزيادته ونقصانه كفر " وفيه أيضاً أبو المهزم قال عنه شعبة " لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً ".

2- الحديث المروى عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "الإيمان قول، والعمل شرائعه، لا يزيد ولا ينقص" وضعه أحمد بن عبد الله المعروف

بالجوبياري، قال الذهبي " يضرب المثل بكذبه " وقال: " قال ابن عدي وكان يضع الحديث لابن كرام على ما يريد، فكان ابن كرام [1] يخرجها في كتبه عنه" **هذان مثلان** فقط يتبين منهما اشتراك المرجئة والكرامية في هذه الصفة الشنيعة لنصرة مذاهبهم.

1- محمد بن كرام السجستاني مؤسس مذهب الكرامية أحد مذاهب الإرجاء المندثر لشذوذه فهم يرون أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون القلب، والمنافقون عندهم مؤمنون على الحقيقة.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم يفشوا الكذب "[١-٢].

وليس أدل على ذلك من تلك الآثار التي يرويها الإمام مسلم في صحيحه فبسنده عن بن عباس قال: " إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يُكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه"، وبسنده أيضاً عن ابن سيرين "لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر

1- رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب وصححه الالباني في صحيح سنن الترمذي.

2- تحقيق عن مدلول القرن بحساب السنين:- القرن في اللغة: الجيل من الناس كما في المصباح المنير وفيه يقول الزجاج مستدلا بحديث" خير القرون قرني ..." على أن القرن هو أهل كل فترة كان فيها نبي أو طبقة من أهل العلم قلت السنون أو كثرت. فإذا أخذنا بالمعنى الأول وهو أن القرن هو الجيل من الناس، فمن المعلوم أن الجيل لا ينقضي بهلكة كل أفراده ولكن بظهور جيل جديد ورشاد أفراده، ومن البديهي أن جيل الآباء غير جيل الأبناء، وعليه فجيلُ عمر والعباس والزبير وعمرو بن العاص وعثمان وعلي وأبي موسى الأشعري بالضرورة غيرُ جيل عبد الله بن عمر وابن عباس وابن الزبير وابن عمرو والحسن والحسين وأبي بردة رضي الله عنهم أجمعين .
وبحساب السنين يكون جُل هؤلاء عند مقتل عثمان أو حتى علي رضي الله عنهما قد وفى الأربعين أو تجاوزها وبها تؤرخ للقرن الثاني والذي وافقهم فيه جيل كبار التابعين، ليبدأ الجيل الثالث مع معركة الحجاج وما كان من أمر الحجاج في زمن عبد الملك بن مروان.
الشاهد أنه على أكثر تقدير باستهلال القرن الثاني الهجري تكون قد مضت القرون الخيرة ثم فشا الكذب وانظر إلى تعبير يفشو الكذب في الحديث ليدل على سابق وجوده ولكنه لم يكن منتشراً وقد دلت عليه الآثار السابقة. ويتأكد المعنى السابق بحديث رحى الإسلام ويرويه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن ربعي عن البراء بن ناجية عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: " تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين سنة فإن هلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً " وفي رواية " إن رحى الإسلام ستزول..." وقد تابع عبد الرحمن كل من إسحاق وحجاج عن سفيان وتابع إسرائيل والأعمش عن منصور، وعند البيهقي قال منصور: وبلغني أن في هذا إشارة إلى الفتنة التي كان فيها مقتل عثمان سنة 35هـ وأراد بالسبعين ملك بني أمية إلى أن ظهرت الدعاة بخراسان وضعف بني أمية نحو من سبعين سنة. فإذا أضفنا إلى ذلك حديث سفينة مولى رسول الله ﷺ في صحيح أبي داود " خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء " أي أن زوال خلافة النبوة وبدء الملك العضوض يؤرخ له بوفاة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب سنة 40هـ وتولى معاوية الذي يؤرخ له ببداية الملك العاض ويتعضد المعنى أكثر بحديث مسلم " هلاك هذه الأمة على يد غُلّمه من هذا الحي ". وبالتالي نستطيع أن نؤكد أن الاضمحلال والبعد عن الدين قد بدأ مبكراً بانشغال هؤلاء الملوك بأمور الدنيا واتخاذهم من الدين مطية لتحقيق مآربهم في استتباب الملك وطراوة العيش.
أ.هـ

إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم" وفي مسلم أيضاً بسنده عن يحيى بن سعيد القطان قال:

" لم نر الصالحين- وفي رواية- أهل الخير- في شيء أكذب منهم في الحديث"، وبسنده أيضاً عن أبي الزناد قال: " أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث يقال ليس من أهله".

الفصل الثاني

قبسات من النور وسط الظلام الحالك

لم يستثن من ذلك الواقع المرير إلا فترات على استحياء عاشها الناس في ظل الحكم الرشيد لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ذلك الحاكم العادل، الزاهد في دنيا الناس الراغب عن متع الحياة، الطامع فيما عند الله، سار خلالها الرجل على نهج الخلفاء الراشدين المهدين، وأحيا في ذاكرة الناس سيرتهم العطرة، فكان عهداً سعيداً ساد فيه العدل، وعم الخير، وتحول بيت المال مرة أخرى إلى بيت مال المسلمين بدلاً من صيرورته بيتاً لمال الملوك والأمراء.

وكذلك امتدت بقع الضوء وسط هذا الظلام الحالك – بل لن نبالغ إن قلنا إنها لم تنحسر يوماً عن فتية آمنوا بربهم، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا على ثغور المسلمين، أو خرجوا جهاداً في سبيل الله، فكانوا دوماً بفضل الله بعيداً عن تلكم الفتن، فقد كانت غاياتهم إما الشهادة والظفر بما عند الله أو نصرة دينه ورفع راية الحق خفاقة في ربوع البلاد، ولم تكن لملء خزائن السلاطين بالغنيمة والخراج، كما قال قائل الملوك وهو يخاطب السحاب:"أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك". فقد كان جُل هم هؤلاء الحكام هو توطيد أركان ملكهم بكل السبل، وكذا تحصيل أسباب الترف ومظاهر النعيم، من قصور وجنان، وجوار حسان، ووسائل لهو وافتتان، وكأنهم أرادوها جنة على الأرض مضمونة، وغاب عنهم أنهم سيسألون يوماً عن ذاك النعيم الزائل، وتلكم المظالم. فأين ذلك من سيرة ابن الخطاب ﵁؟ وقد اتسعت الفتوحات في عهده، وذهب ليأخذ مفتاح بيت المقدس متناوباً ركوب الدابة مع خادمه، وفي هيئة متواضعة لم يعرفه بها الأسقف المقدسي.

وإلى جانب أولئك الفتية الذين شغلوا بالجهاد في سبيل الله، لينالوا رضا ربهم بالنصر أو الشهادة كان هناك نفر من أهل العلم- وهم من الخاصة ذكرنا بعضهم من قبل، زهدوا فيما عند السلاطين وطمعوا فيما هو أبقى

وأجل، فجاهدوا جهاداً آخراً بطلب العلم ليعبدوا الله على بصيرة، وليبصروا الناس بالحق وسط تلك الفتن الحالكة والمتلاطمة، ويصونوا دين الله من تحريف الغاليين، وتأويل المبطلين، لم يألوا في ذلك جهداً، صدعوا بالحق في وجه مروجي الفتن والجبابرة على السواء وما بدلوا تبديلاً، فذبوا بالسنة عن السنة ضلالات المتكلمة وأهل الرأي على السواء فسموا بأهل السنة وأصحاب الحديث[١]

ولم يكن ذلك النفر من علماء السلف ينتظمون في عقد ولم يجمعهم مذهب، بل كانوا جزراً منعزلة في خضم بحر هائج متلاطم الأمواج، ألم يسمها الرسولﷺ فتناً تموج موج البحر؟
وألم يسم هذا الواقع بالشر في حديث حذيفة بعد ما جاءهم الله بالخير؟
ولأن الشر هو السمة الغالبة فيه لم ينوه إلى وجود الخير- وإن وجد — كما نوه إلى ما بعده من خير فيه دخن، وهل هناك من شرٍ أعظم على

1- مصطلح أهل السنة " أصحاب الحديث " حمل هذا الاسم ذلك النفر من العلماء الذين حملوا العلم الشرعي واستعانوا بنصوص الشريعة لمواجهة أمرين:-
الأمر الأول: مواجهة أهل البدع الذين بنوا ضلالاتهم على أساس ما يسمى بعلم الكلام والمنطق المأخوذ عن الفلاسفة اليونانيين سواء في مسائل صفات الله أو القول في القدر أو مسألة الإيمان وهي المسائل التي اشتغل بها أهل البدع والأهواء وقد سقنا قبل بعض الآثار تدل على هذا الاسم ودورهم، ومنها قول ابن سيرين في صحيح مسلم "لما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم". وكذا ما ورد عن شهاب بن خراش لما قال لهشام" إن لم تكن قدرياً ولا مرجئاً حدثتك ".
الأمر الثاني: في مواجهة أهل الرأي الذين اعتمدوا الرأي والقياس أصلاً تشريعياً ليجبروا به نقصاً مزعوماً في النصوص، فالنصوص بزعمهم إما متناهية وبالتالي لن تفي بالحاجة التي يتطلبها تجدد الأحداث الغير متناهية، وإما لأن جُل نصوص الشريعة وردت عن طريق خبر الآحاد والذي يفيد الظن- في رأيهم – ولا يتحصل به علم وخاصة في مسائل العقيدة. حيث إن نصوص الشريعة- كما يزعمون- قد أومأت إلى هذا الأصل المفترى، فانظر إلى دين يلتمس بالإيماءات والإشارات وتغيب فيه النصوص !!! أي أن هذا المصطلح كان يطلق بإزاء حملة النص في مواجهة الرأي، وحملة النقل في مواجهة العقل أو قل إن شئت ألا عقل، ولم يكن يعبر عن فرقة تاريخية تنتحل مذهباً وتأصيلاً فكرياً كشأن سائر الفرق إلى أن انحاز أبو الحسن الأشعري المعتزلي إلى طائفة ممن ينتسبون إلى السلف ونصر مذهبهم على قاعدة كلامية واعتبر ذلك مذهباً لأهل السنة، وتابعه على ذلك مع اختلاف طفيف عالم سمرقند الحنفي الماتريدي ومن أجل ذلك يشار إليهما بإمامي أهل السنة. وأكثر من يدعي الانتساب إلى هذا المذهب هم فرق المرجئة على اختلاف مقالاتهم، فلم يعرف كمذهب جامع له أصوله في عهد التابعين ولا علماء السنة وإنما هو مسلك يعنى باللجوء إلى السنة المطهرة ونصوص الوحي عموماً لمواجهة
البدع والرأي في الدين .

الأمة من تمزقها وتشرذمها لا على سلطة فحسب ولكن في أمر الدين أيضاً " كل حزب بما لديهم فرحون " إذاً فقد كان هذا النفر من العلماء – باعتصامهم بحبل الله وبهداه- قد امتطوا سفينة النجاة؛ ونأوا بأنفسهم عن الفتن وحملوا معهم ذاك الهدى وتلك المحجة البيضاء نقية كما تركها صاحبها ﷺ، وعلموها لمن تبعهم على ذات النهج القويم، وتناقلوها جيل بعد جيل، فحموا بذلك دين الله في جملته من تلكم التخرصات والضلالات.

وقد كان صوت هذه الطائفة الناجية - بإذن الله – يعلو تارة ويخبو أخرى، وكان نشاطهم يزداد حيناً ويفتر أحياناً وفقاً لمواءمات مرتبطة بالواقع الذي يحيونه، ومساحة الحرية المتاحة لهم، وجدوى النصح من عدمه في ظل البطش الذي كانت تبديه السلطة الغاشمة، ومدى اقتراب أهل البدع من تلك السلطة وتبنيها لمعتقداتهم.

وقد رأينا موقف التابعي إبراهيم النخعي وغيره من العلماء ممن أراد أن ينصح الخوارج بالعدول عن شطحاتهم والدخول في الطاعة، ونهيه لهم بقوله إلى من تدعونهم؟ إلى الحجاج؟. وفي مقابل ذلك ما جرى للعلماء والتابعين وخيرة القراء على يد الحجاج ومنهم التابعي سعيد بن جبير. وكذلك في الفترات التي تبنت الدولة رسمياً لمذهب معين وألزمت الناس به، كما حدث عندما تبنت الدولة في عهد هارون الرشيد مذهب أهل الرأي وتولى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري تلميذ أبي حنيفة منصب قاضي القضاة، فكانت تلك الفترة من أخصب الفترات التي انتشر فيها مذهب الإرجاء والذي روج له فقهاء الحنفية، وتصدى له علماء الحديث والسنة مثل الإمام أحمد وتلميذه أبو داود وكثير من علماء النقد والرجال. وكذا عندما تبنت الدولة رسمياً في عهد المعتصم والمأمون لمذهب المعتزلة، وتصدى لهم كثير من العلماء وابتلوا بالقتل أو السجن ومنهم الإمام أحمد بن حنبل وخاصة في مسألة خلق القرآن.

هذا عن الاستثناءات المرصودة عن هذا الواقع المرير في ظل الفتنة الكبرى.

أما عن عوام الناس فكانوا إما غير عابئين ولا مبالين بما يجري حولهم،وإما أنهم-وهم الأغلب- على دين ملوكهم إن اتجهوا يمنة ولوا شطرهم، أو يسرة صاروا خلفهم، لسان حالهم يقول إن أحسن الناس أحسنا، وإن أساءوا أسأنا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد

الـبـاب الـثـالـث

مـنـاقـشة الإرجـاء مـن الـنـاحـيـة الـفـكـريـة

ويشتمل على فصلين:-

١ - الفصل الأول: تطور المذهب فكرياً ومراوحة بين الوحي والفلسفة

٢ الفصل الثاني: المنهج الفلسفي في تحديد مفهوم الإيمان وكماله في القلب، ويتضمن مبحثين:-

- المبحث الأول: المنهج الفلسفي، ويشتمل على مطلبين

*** المطلب الأول: الفلسفة ونشأة المنطق**

*** المطلب الثاني: تطبيق هذا المنطق على قضية الإيمان**

- المبحث الثاني: الرد على تلك الضلالات

الفصل الأول

تطور المذهب فكريًا ومراوحة بين الوحي والفلسفة

ما سبق كان محاولة لبيان الأسباب التاريخية والعوامل التي أدت إلى نشأة هذا الانحراف الفكري والأجواء المصاحبة له والتي أدت إلى تطوره.

ويمكن القول أن نشأته كانت أهم تداعيات الحدث الأبرز وهي فتنة مقتل عثمان ﷺ، وما تلاه من نزاع حول أولوية تسمية خليفته وبيعته أو طلب القصاص من قتلته، ووقوع القتال بين المتنازعين بسبب ذلك، ثم قضية التحكيم وما نجم عنها من غلو وشطط في حق الصحابة – ولاءً وبراءةً وتوقفاً – حيث رأى فريق وهم الخوارج أنه كيف يختلف هؤلاء ويتقاتلون وهم أصحاب النبي وأعلم الناس بالدين، إذاً فقد انحرفوا عما كانوا عليه زمن النبي ﷺ، ومن ثم لا حرمة لمن نكص على عقبيه – بزعمهم – ولا اعتبار لسابقته، وحكموا عليهم بالكفر.

أما المرجئة الأولى فقد أرادوا تبني موقفاً وسطاً إزاء ما حدث من الصحابة بين القول بأنهم على الحق الذي يتنافى – في رأيهم – مع ما بدر منهم من خلاف واقتتال، وبين القول بأنهم على الباطل وهو ما يتنافى مع فضلهم وسابقتهم.

فقالوا: " أما نحن فلا نوالي أحداً منهم ولا نعاديه ولا نشهد له بحق ولا باطل ونرجئ أمرهم إلى الله ". ومع تطور الفكر الخارجي الذي تعدى الموقف من الصحابة ليشمل كل أصحاب الكبائر واستحقاقهم الوعيد بمجرد ارتكاب الذنب دون مراعاة لتوافر شروط تطبيق الأحكام التي دلت عليها النصوص فكان لزاماً أن يتطور الإرجاء ليصل إلى فصل العمل عن حقيقة الإيمان، ولم لا فالصحابة الكرام ومنهم المبشرين بالجنة يقعون في أعمال هي من عظائم الأمور ولم يسلبهم ذلك الإيمان، بل هم من أكمل المؤمنين إيماناً – ألم يبشروا بالجنة؟- ومن ثم وجب فصل

العمل عن مسمى الإيمان. أي أنهم إنما لجأوا إلى هذا المذهب هروباً من شناعة موقف مارقة الخوارج، واستناداً إلى ما قدمنا وزكى ذلك التوجه الفظائع التي ارتكبها بنو أمية في حق مخالفيهم من المسلمين وعلى رأسها ما ارتكبه الحجاج بن يوسف الثقفي في حق العلماء والقراء وغيرهم.

وقد بينا سابقاً أن الكوفة وهي مركز إمارة الحجاج ومصب جوره كانت أيضاً مركزاً للإرجاء وبيئته الحاضنة حيث صار لرواد هذا المذهب مكانة الصدارة والرياسة للعلم والفقه بها، مثل ذر الهمداني وحماد بن أبي سليمان وغيرهم، ثم سرعان ما انتقل إلى الحجاز على يد سالم الأفطس، وذر الهمداني كما أسلفنا.

ثم أخذ هذا الفكر منحى آخر أكثر غلواً وشططاً حينما أصابته لوثات الفلاسفة الملاحدة والزنادقة الهنود على يد الجهم بن صفوان في مطلع القرن الثاني الهجري والذي قرر أن الإيمان هو مجرد المعرفة بالقلب، فمن عرف الله بقلبه فهو مؤمن دونما حاجة إلى قول اللسان أو عمل الجوارح.

ومع تسارع وتيرة الترجمة لكتب الفلاسفة والمناطقة لبس هذا المذهب ثوباً فلسفياً محضاً بعدما تبناه بعض المتكلمين مثل الصالحي وبشر المريسي والذين طبقوا المنهج الفلسفي على قضية الإيمان. ولكن هذا المنحنى ونظراً لغلوه ولوازمه الشائنة لم يراوح مكانه كثيراً خاصة مع تصدي علماء السنة له، ولكن ترك أثره في اعتماد المنهج الفلسفي وقواعد المنطق وإدخاله كعلمٍ معياريٍ يحكم في القضايا الخلافية بين فرق الأمة ومنها قضية الأيمان.

☜وظهرت آثار هذا المنهج بعد تبني فقهاء الحنفية للإرجاء كمعتقد حتى سمي باسمهم إرجاء الحنفية إثر انتقاله إليهم على يد حماد بن أبي سليمان والذي لازمه الإمام أبي حنيفة ثمانية وعشرين سنة حتى وفاته وصار إليه أمر العلم والفتوى من بعده، بيد أن فقهاء الحنفية عولوا أكثر على

الشبهات النصية في التدليل على هذا المعتقد، مثل النصوص التي تقضي بنجاة بعض ممن لم يعمل خيراً قط من النار ودخوله الجنة مثل حديث الجهنميين والسجلات، وحديث الغلام اليهودي الذي أقر بالشهادتين وهو يحتضر وقال عنه رسول الله ﷺ " الحمد لله الذي أنقذ بي نفساً من النار ". وهو الحديث الذي اعتمده أبو حنيفة – كما يحكيه عنه ابن حزم في كتاب الفصل من الملل والنحل – في تقرير مذهبه أن الإيمان يتحقق مكتملاً بالتصديق مع الإقرار فحسب دونما عمل، حيث يرى أن الغلام كمل إيمانه بهما ولا مزيد، وهذا ما سنراه جلياً في الكتاب المنسوب إليه العالم والمتعلم، وما تناقله بعض تلاميذه وأتباع مذهبه وسجلوه في كتبهم ومتونهم وشرحها. وأصبح هذا المذهب في تزايد وانتشار ووصل مداه مع تبني الدولة رسمياً لمذهب أبي حنيفة وأهل الرأي في عهد هارون الرشيد وتولي أبي يوسف تلميذه منصب قاضي القضاة؛ ثم توارى شيئاً يسيراً مع تصدر المعتزلة للمشهد في عهد المعتصم والمأمون وامتحن من امتحن بسببهم من علماء السنة، ولكن علماء السنة أفلحوا في عهد المتوكل في التصدي لهم متمسكين بنصوص الوحي في مقابل الأسس الفلسفية التي قام عليها مذهب المعتزلة.

ومع الانتصار المدوي لعلماء السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل توارت ثعابين الضلال من هذه الفرق إلى جحورها ولكن إلى حين، فهل آيس الشيطان أن يعبد بطريقة أو بأخرى وقد أنظر إلى يوم يبعثون؟ فعليه إذن أن يغير جلده...

وهذا ما كان فسرعان ما انتهج أهل الإرجاء مذهباً توفيقياً يجمع بين الوحي والفلسفة، أي أرادوا إجراء تزاوج مقيت بين فلسفات وجدليات ترجمت عن أمم الشرك والضلال وبين الوحي النقي والمحجة البيضاء مصدر الهدى والرشاد والعزة للمسلمين، حتى يسلموا من الاتهام بالتمسك بالظواهر النصية ومعاداة الدلائل العقلية أو العكس، ورأوا أن الصحيح هو وجوب الأخذ بدلالات بعض النصوص والتي تتفق مع معتقدهم ووجوب تأويل بعضها لمخالفة صريح العقل بزعمهم.

فواجهتهم نصوص الوعيد المستحق لتاركي الأعمال ومرتكبي الكبائر سواء الرمي بالكفر أو الشرك أو الفسوق أو النفاق، أو لعنهم والبراءة منهم وحبط عملهم. أو نفي الإيمان عنهم، أو استحقاقهم الخلود في النار والحرمان من الجنة والتي لم تترك ذنباً واحداً إلا وشملته بالوعيد المستحق لصاحبه سواء بنص عام يشمل عموم المعاصي مثل " **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ". أو نصوص خاصة بكل ذنب وكل ترك حق من حقوق الإسلام مثل ترك الصلاة أو الزكاة أو العقوق أو الدياثة أو قطع الأرحام ...الخ، فلم يكن لهم بد وقد قرروا مذهبهم من تأويل كل هذه النصوص وصرفها عن معانيها التي تقتضيها مقررات اللغة وقواعد الفهم.

ووجدوا ضالتهم عندما اجتزءوا بعض النصوص التي قد توافق مذهبهم، إما لخلطهم الواضح بين نصوص الإيمان الظاهر التي يترتب عليها إجراء بعض الأحكام الدنيوية من نكاح وعتق وتوريث - الخ – مثل حديث الجارية[1] وغيره، وبين النصوص التي تعبر عن حقيقة الإيمان الشرعية الموجبة لدخول الجنة وكذا النصوص التي تشير إلى أن القلب محل الإيمان، واستفادوا منها أن عمل الجوارح ليس من الإيمان، وكل تلك الشبهات وغيرها والتي سنرد عليها لاحقاً إنما ساقها أصحاب المنهج التوفيقي الذين أرادوا الجمع بين الوحي والفلسفة – فلم يكن يعنيهم النص ابتداء، فقد أسسوا مذهبهم على شطحات فلسفية وترهات منطقية سنوردها لاحقاً، وإنما ساقوا تلك الشبهات النصية لتعضيد ما استقروا عليه من أصول فاسدة، وليلبسوا على الناس دينهم – بعد هذه الإفاقة التي نجمت عن انتصار أصحاب الحديث، فهم – أصحاب المنهج التوفيقي – أئمة ينتمون إلى ركب السلف ويستندون إلى نصوص من الكتاب والسنة.

وهذا هو الملمح الأبرز والفارق الآكد بين أصحاب الحق وأصحاب الزيغ والضلال الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله كما نطق

1- التي أراد مالكها أن يعرف إن كانت رقبة مؤمنة في الظاهر فيعتقها أم لا، وذلك مثل قوله " فإن علمتموهن مؤمنات ".

بذلك قرآن ربنا، وبما دل عليه حديث رسوله ﷺ حين قال: " إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله " أي الذين في قلوبهم زيغ. ونعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

هذا وقد تفاوتت طبقاتهم قربا من الوحي وبعدا عن الفلسفة أو العكس حتى أصبحت فلسفية محضة في آخر الطبقات، فبدأت بطبقة عبد الله بن سعيد الكلابي وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي وهم من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام وكانوا أقرب إلى الاعتماد على النصوص.

ثم قلَّ ذلك عند من تلاهم كالأشعري والماتريدي والذي ينسب إليهما مذهب الإرجاء عند أهل السنة، ثم طبقة الباقلاني. ناشر المذهب- والبغدادي وأبي بكر بن فورك شارح كتاب العالم والمتعلم المنسوب للإمام أبي حنيفة، ثم طبقة أبي المعالي الجويني والغزالي، ثم أصبحت فلسفية محضة عند الفخر الرازي ومن بعده الأمدي والأرموي والإيجي صاحب كتاب المواقف.

وغير هؤلاء من الأعلام والمشاهير الذين وافقوا كل طبقة في مآخذها ومشاربها، وسنعرض للمحات من أراء بعضهم في الباب الرابع عند عرضنا لأراء فقهاء الحنفية وغيرهم .

الفصل الثاني

المنهج الفلسفي في تحديد مفهوم الإيمان وكماله في القلب

المبحث الأول: المنهج الفلسفي

المطلب الأول: الفلسفة ونشأة المنطق

كلمة فلسفة مشتقة من كلمة يونانية قديمة هي فيلوسُفيا وتعني محبة الحكمة أو البحث عن الحكمة ويسمى المشتغل بها الفيلسوف أي الباحث عن الحكمة، إذ إنه في نظر روادها سقراط وفيثاغورس- لا حكيم إلا الله. وهذا النوع من المعارف هو لون من الجهد العقلي البشري التراكمي الغرض منه البحث في حقائق الأشياء لذلك فقد تباينت مفاهيمه ومدلولاته بتباين الطابع الشخصي للمشتغل به فلكل فيلسوف فلسفته النابعة من خبراته النفسية وتجاربه الذاتية ونظرته الخاصة للحياة، فبعضهم عرَّف الفلسفة بأنها " العلم الذي يبحثُ فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود" أو " العلم بالمبادئ الأولى" وهذا تعريف أرسطو، أما سقراط فيعرفها بأنها "معرفة الإنسان بنفسه، فمن عرف نفسه عرف ربه".

وأصول هذه الفلسفة والفكر الإغريقي عموماً يعتمد على نظرية الجواهر والأعراض" وبمعنى أقرب "الذات والصفات" ومفادها أن لكل موجود ذات هي حقيقته وصفات طارئة لا تدخل في حقيقته ويتصورون الذات مجردة من كل صفة[1] ، ويقولون أن حقيقة هذه الذات ثابتة وإن اختلفت العقول في إدراكها أو تناقضت في الحكم عليها، فمرجع ذلك إلى طبيعة التفكير الإنساني القاصر والمتباين وليس إلى الحقيقة الثابتة حتى على المستوى الحسي فقد ينشأ الخطأ في الإدراك نتيجة خداع الحس ومثاله رؤية القلم مكسوراً إذا وضع نصفه في الماء.

1- وعلى هذا الأساس اعتقدوا أن لله تعالى وجوداً مطلقاً يتجرد عن كل صفة ثبوتية، وهو ما بني عليه منكرو الصفات لله تعالى من الفرق الإسلامية مذاهبهم.

ولأن هذا اللون من المعارف- كما ذكرنا- هو جهد بشري محدود بقدرات وإمكانات البشر، وقد اختلفت مفاهيمه باختلاف الطابع الشخصي للمشتغل به ولأنه أيضاً قائم على تصورات ذهنية مجردة " معارف نظرية " بخلاف العلوم المادية التي تهتم بدراسة الأشياء كما هي وخصائصها، كان لا بد أن يعتريه الخلل، ويناله العوار، وقد ظهر ذلك جلياً في تولد الاتجاه السفسطائي [1] الجدلي المنكر لحقائق الأشياء والمشكك في كل المعارف السابقة؛ فالسفسطائيون يرون أنه إذا كان إدارك حقيقة الذات عسير للغاية إن لم يكن محال حيث لا شيء يثبت إلا بالنسبة لغيره، وبالتالي لا وجود للحقائق المطلقة، وما أثبتته الفلسفة فالاحتمال قائم بأن نفيه أولى والعكس صحيح، ومن هنا رأت السفسطة أن انكاراً جذرياً لكل الحقائق – مهما قيل عن بداهتها – كفيل بأن ينسف كل الأسس الفلسفية والتي تقوم في الأساس على الاستدلال النسبي على المجهول بالمعلوم وقياس الغائب على الشاهد.

ومن هنا بدأ الفلاسفة في وضع قواعد كلية، ومبادئ منطقية لإثبات حقيقة الأشياء.

حيث قرر أرسطو أن الأفراد والأعيان مثل زيد وعمرو وغيرهم ما هي إلا أجزاء لوجود كلي أكبر (الإنسان) سماه " النوع " كصيغة كلية تعبر عن حقيقة هذه الأفراد، ثم وضع أربع صيغ أخرى كلية لتعريف هذا النوع وبيان حده.

وهذه الصيغ منها ما هو لازم مشترك وأسموه(الجنس) وهو جزء الحقيقة المشترك مع غيرها ويعبر عنه بالمشترك الذاتي ومنها ما هو لازم مميز وأسموه(الفصل) وهو جزء الحقيقة المميز للنوع المعرف ويعبر عنه بالمميز الذاتي، ومنها ما هو عرضي مميز ويسمى (الخاصة)

1- السفسطائيون: جماعة من الشباب اليونانيين طعنوا في أصول الفلسفة وشككوا في قدرتها على إثبات الحقائق، وقام بينهم وبين الفلاسفة جدال وسجال طويل.

وعرضي مشترك(عرضي عام) وكلاهما لا يدخل في بيان الماهية والحقيقة.

ففي المثال السابق لتعريف ماهية الإنسان (النوع)، يقال هو (حيوان ناطق)، فحيوان هو "الجنس" وهو جزء الحقيقة الذي يشمل الإنسان وغيره وهي صفة لازمة عامة، ثم ناطق وهو "الفصل" وهو صفة ذاتية مميزة للإنسان عن غيره، أما كونه متحرك أو يأكل أو يتنفس فهي صفات عرضية غير داخلة في التعريف.

وبناءاً عليه فتعريف الإنسان بأنه حيوان ناطق وهو في رأيهم تعريف جامع مانع وعلى هذا فكل أفراد النوع متماثل في هذه الماهية ويصدق عليها هذا التعريف.[١]

وباستخدام تعبير أرسطو فالنوع الذي هو تمام الماهية هو الكلي المقول على كثيرين متفقين في الحقيقة في جواب ما هو؟ مثل حيوان ناطق في جواب ما هو الإنسان؟

وكما ترى فإن المعركة بين الفلاسفة والسفسطائيين والتي أفرزت هذا المنطق، هي معركة جدلية ذهنية لا مساس لها بواقع الناس، ولا أثر لها عند غير المشتغلين بها من أهل ملتهم وبني جنسهم، وهذا وحده كاف لاستغناء أي أمة عنها فما بالك بأمة الوحي، كما يقرر صاحب كتاب ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ويضيف متمنياً بقوله: "يا ليت أن المنتسبين للإسلام إذا نقلوها حصروها – كما هي عند أهلها- في قضايا الذهن المجردة ولكنهم طعنوا بها في صميم الدين، ليس في التوحيد والصفات فحسب، بل في مبحث الإيمان " انتهى.

1- هذه القاعدة وهي تساوي أفراد النوع في حقيقته وماهيته والتي استعارها المتكلمون الإسلاميون وطبقوها في قضية الإيمان هي التي حدت بهم إلى القول بعدم زيادة الإيمان ونقصه، مصادمين بذلك النصوص الواردة في زيادة الإيمان، وأيضاً أدت إلى قولهم بتساوي إيمان الملآئكة والنبيين مع إيمان المنهمكين في الفسق.

بل إن بعض المنتسبين للإسلام مثل الغزالي قد تعصب لهذا المنطق لدرجة أنه جعله منهجًا حاكماً أول به مراد الله في كتابه الكريم حيث اعتبر أن المراد بالقسطاس المستقيم في القرآن هو المنطق وأن الصيغ المنطقية هي " الموازين الخمس " كما سماها وهي الأساليب التي استعملها القرآن في الجدال- تعالى كتابَ الله عن أرجاسهم – وقد فصل القول في ذلك في كتابه الذي سماه القسطاس المستقيم من مجموعة رسائله المسماة القصور العوالي.

وفي كتابه المستصفى يقول أيضًا عن المنطق: " إنه مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط به فلا ثقة بعلومه أصلاً "

وتعليقاً على ذلك الشطط والتقديس المفرط يقول د: سفر الحوالي كلاماً ثميناً يجب ذكره: " علمنا أن المنطق هو قواعد نظرية من اجتهاد رجل يوناني أراد به غرضاً معيناً- هو الرد على السفسطة- فإن من المبالغة القصوى والتقديس المتناهي أن يقال- كما يقول المناطقة- إن ما وضع من رأي واجتهاد هو معيار المعرفة الإنسانية الذي تعصم مراعاته الذهن من الخطأ، والذي لا نستطيع بغيره أن ندافع عن ديننا، ونصد هجمات الملحدين المشككين، ولا فيما هو أعظم من ذلك وهو معرفة الحقائق الشرعية، فضلاً عن معرفة صفات الله ما نثبته منها وما ننفيه ".

ثم يستدرك عليهم قائلاً: " إن العلم البشري له حدود لا يستطيع تجاوزها، وإن إخضاع عالَم الغيب لما علمه البشر هو أمر في غاية الاعتساف والغرور، فما بالك بمن يخضع الوحي المعصوم لفكر رجل واحد عاش في أمة جاهلة قديمة كانت البشرية ما تزال تحبو في أدنى درجات العلم " ثم يستطرد قائلاً: " وكانت النتيجة أن أخضع الوحي- منة الله الكبرى على العالمين ونعمته العظمى للثقلين- لأراء الخراصين وتوهمات المضلين، فأخضعت الحقائق الشرعية للمقاييس المنطقية ".

ويبرر ذلك بأنه "قد اجتمعت لذلك أسباب كثيرة منها المؤامرات والدسائس الحاقدة، ومنها الاجتهادات الخاطئة ومنها المتابعة بلا بصيرة، ومنها الترف الفكري" انتهى بتصرف.

المطلب الثاني: تطبيق هذا المنطق على قضية الإيمان

من الثابت أن نقل هذه الفلسفة إلى بلاد الإسلام قد توافق مع السجالات الدائرة بين المرجئة وعلماء السلف، فالتقطها المرجئة لينتصروا بها في قضية الإيمان كما استخدمها من قبل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وغيرهم في نفي صفات الله تعالي، وكأنهم أرادوها معولاً لهدم الدين من مبدئه إلى منتهاه.

بدأ المتكلمون في تطبيق هذا المنطق المعوج لإيجاد تصور لماهية الإيمان فوضعوا سؤالاً ما هو الإيمان؟ كما فعل الفلاسفة لتحديد ماهية الإنسان، فبحثوا في إيجاد المشترك الذاتي بينه وبين غيره (الجنس) والمميز الذاتي له خاصة (الفصل) حتى تحصل تمام الماهية (النوع).

☜وإليك التطبيق :- نظروا أولاً إلى من يطلقون هم عليهم إسم الإيمان من الآحاد على تفاوتهم، ثم استخرجوا القدر المشترك بينهم، واعتبروه الصفة الذاتية الداخلة في الماهية، وجعلوا هذا القدر هو حقيقة الإيمان وماهيته المجردة، ورأوا أن غيره صفات عرضية لا تدخل في التعريف.

وبتفصيل أكثر ... نعرض للأفراد الذين استخرجوا منهم القدر المشترك والذين يطلق عليهم المرجئة اسم الإيمان

أ - الملائكة (جبريل) والأنبياء (محمد) (إجماعـــــــــاً)
ب -من أقر بالإيمان ولم يعمل بـــــــه (حديث الجارية)

ج- من صدق بقلبه ولم يقر بلسانـــــــه (بدلالة اللغـــة)

واتفقوا على أن القدر المشترك بين هذه الدرجات هو التصديق القلبي مع أنه غير موجود عند أصحاب الدرجة (ب)؛ أو على الأقل لا يمكن

استيفاءه وتحققه فيهم، واختلفوا في إدخال الإقرار باللسان الموجود عند الدرجة (ب) ومفقود عند أصحاب الدرجة(ج) أهو ذاتي داخل في الماهية أم لازم عرضي لا يدخل في الماهية ولكنه شرط.

ولا يخفى عليك هذا التعسف المفرط والانتقائية في التطبيق.

وبطبيعة الحال لن تدخل الأعمال سواء أعمال القلوب أو أعمال الجوارح في مسمى الإيمان لأنها ليست من القدر المشترك،ولذلك جاءت تعريفاتهم للإيمان خالية من ذكر العمل واكتفت بعمل قلبي واحد هو التصديق أو الاعتقاد أو الإقرار القلبي أو على الأقل عدم الإنكار القلبي فالإيمان هو" التصديق بما جاء به النبي وكان معلوماً بالضرورة".

وأخذوا يحكمون على أي فرد بأنه مؤمن أو غير مؤمن بناءً على وجود هذه الماهية أو عدمها، وكما قرر المناطقة تماثل أفراد النوع، فقد قرروا أن المؤمنين بزعمهم سواء في إيمانهم، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأن نقص الماهية عدم، وقبولها بالزيادة دليل على النقص الذي هو عدم، فكذلك نقص الإيمان شك، وقبوله الزيادة يعني أنه ناقص فهو شك.
وخلصوا أيضاً إلى أن إيمان الأنبياء يتساوى مع إيمان المنهمك في الفسق.

المبحث الثاني

الرد على تلك الضلالات.

للرد على هذا الاضطراب اللامنطقي وذاك الخبال اللاعقلي نقول:-

<u>أولاً:</u> قد أشرنا سابقاً إلى أن هذا المنطق هو إفراز لمعركة جدلية ذهنية عند الخاصة من المفكرين ولا مساس له بواقع الناس وقضاياهم، ولا أثر له عند غير المشتغلين به من أهل ملتهم وبني جنسهم، وأنه جهد بشري محدود بإمكانات وقدرات البشر بل يرجع إلى جهد رجل أو رجلين- أفلاطون وأرسطو- ثم يكون مع ذلك علماً معيارياً حاكماً لكل المعارف الإنسانية على مر العصور فضلاً عن إخضاع الوحي الإلهي بكل قضاياه من صفات الخالق إلى منهجه للبشر لآراء المتهوكين[1] المضللين.

وقد ثبت للعقل الغربي ذاته فساد هذا المنطق، بل واعتبر الغرب أن ما قام به هيجل في هدم هذا المنطق من أعظم الانقلابات الفكرية في التاريخ رغم أن ابن تيمية قد سبقه بستة قرون بتفنيده في كتابه الرد على المنطقيين.

كما أن بعض الفلاسفة والمتكلمين المنتسبين للإسلام كالغزالي نفسه الذي رفعه إلى أعلي درجات القدسية وجعله حاكما على منهج القرآن وتبعية القرآن لميزان المنطق في الجدال، هو نفسه الذي خفض فيه أسفل سافلين، بل كفر بالفلسفة كلها وبـأصحابها في كتابة تهافت الفلاسفة الذي رد فيه على أقوال الفلاسفة ونقض تعاليمهم وأبطل حججهم وأظهر ما فيها من تناقض ومخالفة للعقل وأنهم على كثرة أصنافهم يلزمهم الكفر والإلحاد فهم في رأيه منقسمون إلى ثلاثة أقسام:-

1- الدهريون: منكروا الإله.

2- الطبيعيون:وإن اعترفوا بإله صانع للكون إلا إنهم منكرون للبعث والحساب.

1- المتهوكون: المتحيرون

3- الإلهيون: مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو: فيرى في فلسفتهم ما يوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من الفلاسفة الإسلاميين، وسبحان مقلب القلوب.

فهل يعول على فكر هذا هو رأي أصحابه فيه، وقد جعله الإمام الشافعي هو سبب جهل الناس واختلافهم بقوله: " ما جهل الناس واختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطا طاليس "[١]

__ثانياً:__ وأنا أخاطب هنا من يؤمن بآيات ربه ويوقن بأنه ليس هناك من هو أصدق من الله حديثاً فأقرر ما قرره رب العزة من أنه خلق الإنسان بغير علم حيث يقول ﷻ: **(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً...)** [النحل:78]

وأنه هو سبحانه وتعالى الذي قال(**عَلّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**) [العلق : 5]

وأن ما يتبعه البشر مما يتصورنه علماً منقطع الصلة بالله ليس بعلم ولكن هوى وظن وتخرص خاصة فيما يتصل بعبادة الله وحقائق الدين.

قال تعالى: **(بَلِ اتّبَعَ الّذِينَ ظَلَمُوَاْ أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلّ اللّهُ وَمَا لَهُمْ مّن نّاصِرِينَ)** **[الروم: 29]**

وقال تعالى: (قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتّبِعُونَ إِلاّ الظّنّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاّ تَخْرُصُونَ) **[الأنعام: 148]**

وقال تعالى: (إِن يَتّبِعُونَ إِلاّ الظّنّ وَمَا تَهْوَى الأنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مّن رّبّهِمُ الْهُدَىَ) [النجم: 23]

وأمر المؤمنين بإتباع هداه وحده وترك ما عداه أياً كان مصدره قال تعالى: **(الَمَصَ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ**

1- ابن رجب في " فضل علم السلف على الخلف"

وَذِكْرَىَ لِلْمُؤْمِنِينَ * اتّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مّن رّبّكُمْ وَلاَ تَتّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ) **[الأعراف: 1-3]**

وأنه سبحانه جعل هذا الوحي الخاتم مصدقاً لما سبقه من كتب وحاكماً عليها فما بالك بما ليس بوحي ولا كتاب سماوي بل تخرصات بشرية ضالة مضلة.

قال تعالى: (**وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**...) **[المائدة: 48]**

وبعد هذا البيان أليس بحقيق على أهل الإسلام أن يستغنوا بما منَّ الله به عليهم من وحي هادي مهيمن على ما سبقه وينحازوا إلى مصدر عزتهم وتفردهم واستعلائهم؟ وهل يعذرون إذا ما اتخذوه ورائهم ظهرياً،؟

أليس من المستغرب والمستهجن أن أم ة حية وفتية في قمة مجدها واستعلائها بالحق الذي هي عليه وتسلطها علي غيرها من الأمم بسبب تمسكها بمصدر عزتها وكرامتها، أن تتقبل غزواً فكرياً من أمة وثنية بائدة؟.

لَعَمْرِ الله إن الذين أعرضوا عن مصدر هداهم ورشادهم واستبدلوه بتلك الضلالات والتخرصات لهم قوم منهزمون مقهورون، ومبتو توا الصلة عن قومهم وتراثهم، لم يفطنوا يوماً لمصدر عزتهم وكرامتهم " قال تعالى: **(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاّ يُبْصِرُونَ)** **[البقرة: 17]**

هم قوم لم تطمئن قلوبهم يوماً ولم تخشع لذكر الله وما نزل من الحق، فعزفوا عنه والتمسوا الهدى في غيره، فأعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه، وهل هناك خلف أعظم من أن يقولوا سمعنا وعصينا كما قال قائلهم " نحن نقر بأن الصلاة فريضة ولا نصلي وأن الخمر حرام ونشربها" **(قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مّؤْمِنِينَ)** **البقرة:93]**

هم قوم لم يعرفوا ربهم ولم يقدروه حق قدره، فضنوا عليه أن يعبد بما شرع، وقالوا حسبه منا أن نقر له بالعبودية، ففرغوا دين الله من مضمونه ومحتواه، بل وجر ؤا الناس على معصيته سبحانه وتعدي حدوده، وانتهاك حرماته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هم قوم لم يعرفوا أن العزة لله جميعاً فابتغوا العزة عند غيره، وتمسحوا بمعسكر السلطان وقالوا بعزة أفلاطون أو بعزة بني مروان إنا لغالبون.

هم قوم لم يثمِّنوا جنة ربهم وسلعته الغالية التي جعل ثمنها النفس والمال، وشروها بثمنٍ بخس، بل هم قوم يعدلون.

ثالثاً: الرد التفصيلي

1- نقول للذين طبقوا المنطق الفلسفي على قضايا الشرع لقد وطأتم موطئاً صعباً وبعدت بكم الشُّقة فليس ثمة مناسبة بين مقصد المنطق في التعامل مع قضايا ذهنية مجردة لتطبيقها على واقع حسي لتعريف حقيقة الأشياء الموجودة في ذلك الواقع وبين تعسفكم في تطبيقها على قضايا معنوية وحقائق شرعية مثل الإيمان والصفات.

2- أن هناك تعسفاً واضحاً في ذلك التطبيق سواء في المقدمات أو النتائج.

ففي المقدمات: لا نسلم لكم بأن كل الأفراد التي استخرجتم منها القدر المشترك في مسمى الإيمان يمثلون الإيمان الحق الذي هو مراد الله والذي يدخل صاحبه الجنة - كما سنبين لاحقاً – ولكن نشير إلى أن الدرجة " ب " من هذه الأفراد وهم من أقر بالإيمان ولم يعمل به – ودللوا عليه بحديث الجارية – فإن السائل في الحديث إنما أراد الإيمان الظاهر الذي تجرى عليه أحكام دنيوية مثل العتق ليعتقها إن كان يتحقق فيها هذا المعنى وهو المقصود في قوله تعالى:(**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنّ مُؤْمِنَاتٍ...**)[الممتحنة: 10] ولم يقصد أن يعرف إيمانها الحق الموجب لدخول الجنة، وهذا ما لا سبيل إلى ادراكه.

وأيضاً تعسفهم في إثبات إيمان أفراد الدرجة (ج) وهم من صدق بقلبه ولم يقر بلسانه بمجرد الدليل اللغوي وقد بينا أن الأسماء الشرعية إنما أراد الله بها معنى شرعي تخطى به المعنى اللغوي.

أما التعسف في النتائج... أن التصديق القلبي وهو القدر المشترك بين أصحاب هذه الدرجات كما يزعمون – وإن أيقنا بتحققه في جبريل ومحمد عليهما السلام، فلا يمكن تحققه في الدرجة الثانية – وهم من أقر بالإيمان ولم يعمل به، فليس كل من أقر مصدق.

ثم ما هو النوع الكلي المشترك – على قولكم – بين من أقر بالإيمان ولم يعمل به، ومن صدق بقلبه ولم يقر؟ ما القاسم المشترك بين من أقر ومن لم يقر؟ أليس هذا من ضروب الخبال؟ لقد أبعدوا النجعة وذلك إفكهم وما كانوا يفترون.

هل هناك تعسفاً في التطبيق أشنع من ذلك؟ ولا مبرر له إلا حرص النفوس على الانتصار ولو كان بتصيد الشبهات الشاردة وتعسف الاستدلالات البعيدة.

ولكنهم لم يسقط في أيديهم ولم يروا أنهم قد ضلوا – فتمادوا فبئس ما كانوا يعملون.

3- ثم إنه رغم هذا التعسف الفظ في تطبيق المتكلمين له على مفهوم الإيمان لم يسلم من النقائص والعيوب، بل إنهم – أي المتكلمين – لم يتفقوا على القدر المشترك – النوع الكلي – الذي يصدق عليه هذا الحد، فمن حصره في المعرفة ومن قائل بالتصديق وهل هو كلام النفس وإقرارها أم غيره؟ وهل يدخل فيه أعمال القلب؟ واختلفوا في قدر ما يدخل منها – إلى آخر هذه التشققات التي تعصف بأساس شبهتهم وهو عدم تبعيض وتعدد مسمى الإيمان.

4- ثم إن هذا المنطق الفلسفي – الذي تفننوا في ابتكار تلك الحيل له والتي أرهقوا بها عقول البشرية – ليردوا به على المشككين في حقائق

الأشياء ليس هو الذي ينشئ الحقيقة ويوجدها فالحقائق موجودة شاءوا هم وخصومهم أم أبوا، فالإنسان موجود ولم ينشغل العقل البشري في إيجاد حد لحقيقته،ولم يحتج إلى ذلك سواء عند أهل الأدغال والكهوف أو في أرقى الأمم، ولم ينشغل به غيرهم، ولكنه الترف العقلي لدى أمم استهوت الجدال واللجاج وإعمال العقل فيما لا يفيد، فضلاً على أن هذا الأسلوب العبقري المبتكر لوضع حد جامع مانع لحقيقة الإنسان – بأنه حيوان ناطق – لم يسلم من الطعون فقد يرد عليه ادخال الجن والملائكة في هذا الحد فهم أحياء ناطقون، كما يؤمن بذلك كل المؤمنين بالغيب الذي أخبر به الدين آمنوا هم به أم لم يؤمنوا.

5- والأهم من ذلك أن محمد ﷺ وهو النبي المرسل من ربه والمكلف ببلاغ دينه وبيانه للناس على الوجه الذي أراده الله لتحقيق العبودية والدينونة له كان مقامه أرفع وأسمى، وغايته أجل وأشرف من أن يعلم الناس مبادئ المعارف وأولياتها لينسجوا على منوالها – كشأن هذه الأمم العابثة – ولم يأت أيضاً ليعلم الصحابة لغتهم وهم أهل اللغة – فما أغناهم عن ذلك.

وإنما جاء ليعلم الناس دينهم مستخدماً ألفاظاً عربية يعبر بها عن حقائق شرعية مستجدة أراد منها الشرع معانٍ مخصوصة تخطت المعنى اللغوي، فقد ينتقل بالتعريف من المعنى المعروف لغة أو عرفاً إلى معنى

آخر مقصود، فعندما يقول ﷺ " ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان – كما هو معروف لديهم – ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يُفطن به فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس"[1] فأضاف هذا المعنى الجديد لينشغل الناس بالسؤال عنه وإعطاءه حقه، وهذا هو مراد الشرع تحقيق العبودية لله وليس الوقوف على الحقائق المجردة.

وعندما قال أصحاب النبي ﷺ يوم خيبر – وهم شهداء الله في الأرض – فلان شهيد، قال النبي ﷺ : " كلا إني رأيته في النار في بردة غلها " فأراد أن يعلمهم أنه قد يرد طارئ يمنع من تلك التسمية.

ولقد وعى الصحب الكرام هذه الحقيقة واستقرت في أذهانهم حتى إنهم إذا سألوا الرسول ﷺ عن أي من حقائق الدين لم يكونوا يهدفون إلى معرفة المعنى اللغوي- فهم أهل اللغة – ولا ينشدون تعريفاً يميز هذا الأمر عن غيره، وإنما يرمون إلى معرفة مراد الله من هذا اللفظ أو ذاك، وإذا ما كان ثابتاً على معناه اللغوي أم أريد به معنى آخر يتعبدون به اعتقاداً وعملاً.

كما أنهم إذا سئلوا عن أمر معلوم لديهم مثل أي بلد هذا .. أو أي شهر هذا – أو أي يوم هذا لم يجيبوا خشية أن يكون قد أراد به اسماً أو معنى آخر غير المتعارف عليه، وقد وقع ذلك في روعهم لما قالوا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه.

وها هو رسول الله ﷺ يتصدى لذات الموضوع الذي نحن بصدده وهو تعريف الإيمان فيتناوله بأكثر من تعريف حسب مقتضى الحال. ففي حديث وفد عبد قيس يسألهم: " أتدرون ما الإيمان؟ " قالوا: " الله ورسوله أعلم " قال: " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... " الحديث في الصحيحين واللفظ للبخاري وسيأتي

1- الحديث في الصحيحين(البخاري 4539، مسلم 1039/101)

بتمامه، وهو المعنى الذي عبر به عن الإسلام في حديث جبريل عليه السلام.

ولما سئل في حديث جبريل عن الإيمان وقد اجتمع مع الإسلام أراد تمييزه فاختص بتعريف الإيمان عمل القلب، وكانا معاً جناحا الدين الذي جاء جبريل ليعلمه للناس وهكذا إذا اجتمعا في كل موضع، وكذا عندما قال سعد للرسول ﷺ مالك عن فلان إني أراه مؤمناً قال أو مسلماً.

ولم يكن الرسول ﷺ معنيٌ ببيان معنى لغوي ولا علاقة له بالجواب المنطقي، بل أنه صادم الحد المنطقي حينما عرَّف الإيمان بقوله " أن تؤمن ... " وهذا مما لا يقره المناطقة لأنه – كما يقولون – تعريف للشيء بنفسه يلزم منه الدور ويبطل التعريف عندهم.

الباب الرابع

مذاهب المرجئة في مسمى الإيمان

ويشتمل على خمسة فصول:-

*** الفصل الأول: مفهوم الإيمان عند الجهمية (مناقشة)**

*** الفصل الثاني: مسمى الإيمان عند الأشاعرة والماتريدية**

*** الفصل الثالث: مسمى الإيمان عند مرجئة الفقهاء(إرجاء الحنفية)**

*** الفصل الرابع: مرجئة الخلف(ادخال العمل كشرط كمال)**

*** الفصل الخامس: ملاحظات كاشفة لأوجه الضلال عند المرجئة**

تقديـــــــم

مناط النزاع في مسمى الإيمان هو على من نُطلق اسم الإيمان الحقيقي الذي هو مراد الله، والذي ينجي صاحبه من النار، ويستحق به دخول الجنة؟ ومن ثم من الذي سيرجأ أمره إلى الله؟

وسنتناول هنا بعون الله مذاهب المرجئة من الناحية الفكرية والتي يمكن حصرها في أربعة مذاهب هي: الجهمية، والأشاعرة، والفقهاء، ومرجئة الخلف.

ومحور الخلاف بينهم في ثلاث مسائل:

1- مسمى الإيمان ذاته، وهل هو المعرفة أم التصديق أم إقرار القلب وإذعانه أم يضاف إليه بعض أعمال القلوب؟

2- الإقرار باللسان وهل يدخل في التعريف كشطر للإيمان مع التصديق، أم شرط في صحة الإيمان وليس داخلاً في التعريف، أم شرط لإجراء الأحكام الدنيوية؟

3- هل الإيمان نفسه أمر واحد لا يتبعض ولا يتعدد ولا يتفاضل وفقاً للتعريف المنطقي؟

ونبدأ الآن مستعينين بالله بعرض مفهوم الإيمان عند الجهمية.

الفصل الأول

مفهوم الإيمان عند الجهمية (مناقشة)

ورد بموسوعة الفرق الإسلامية نقلاً عن الإمام ابن تيمية قوله: " وعند الجهمية إذا كان العلم في القلب فهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان النبيين ولو قال وعمل ما عسى أن يقول ويعمل، ولا يتصور عندهم أن ينتفي الإيمان إلا إذا زال ذلك العلم من قلبه"

ويستطرد قائلاً:" وبهذا وغيره يتبين فساد قول جهم ومن اتبعه مثل الصالحي والأشعري في أشهر قوليه وأكثر أصحابه وطائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة مثل الماتريدي، حيث ظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه وهو مع ذلك يسب الله ورسوله ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله ويوالي أعداءه، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد ويهين المصحف؛ قالوا: وهذه كلها معاصي لا تنافي الإيمان الذي في القلب- المعرفة أو التصديق المجرد- بل يفعل ذلك وهو في الباطن عند الله مؤمن، وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفر لأن هذه الأقوال إمارة على الكفر وإن كان في الباطن قد يكون خلاف ما أقر به" ثم يكمل ابن تيمية قائلاً " فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة على أن الواحد من هؤلاء كافر وفي نفس الأمر معذب في الآخرة، قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من القلب، فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو هو تكذيب القلب وتصديقه فإنه لا يتصور عندهم ذهاب الإيمان إلا بذهاب المعرفة والتصديق من القلب"أ.ه

الخلاصة:- أن الإيمان عندهم هو المعرفة أو التصديق بالقلب، فمن عرف الله فهو مؤمن، وأن الأعمال غير داخلة، في مسمى الإيمان، فلا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وأن العمل أياً ما كان لا يخرج صاحبه عن الإيمان حتى لو سب الله والرسول...الخ فهو بها كافر في الدنيا وقد يكون مؤمناً عند الله إن كان مصدقاً بقلبه وهو حينئذ يرجأ أمره إلى الله فهو الذي يعلم حقيقة قلبه.

إذن سيرد عليهم المآخذ التالية: نقول أننا لن نجشم أنفسنا كثير عناء للرد على هذا الشطط وسنكتفي بإيراد بعض النصوص التي تبين:

1- أن الله أثبت الكفر لقوم مع استيقانهم بآياته وهذا أعلى درجات العلم حين يقول سبحانه وتعالى : **" وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" [النمل: 14]**

2- أن الله يثبت الكفر لقوم مع تصديقهم للنبي ﷺ حيث يقول تعالى: **(فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ) [الأنعام:33]**

3- أن عامة من لم يتبع الرسل يعلم أن الحق معهم وأنهم لصادقون وذلك للأسباب التالية:

أ- إما حسداً من عند أنفسهم لقوله تعالى على لسانهم **(أَهَـٰؤُلآءِ مَنّ اللّهُ عَلَيْهِم مّن بَيْنِنَآ)** .

ب- أو استكباراً واعتزازاً بمكانتهم وانتقاصاً لمن آمن وذلك بين في قوله تعالى على لسانهم **(أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتّبَعَكَ الأرْذَلُونَ)** وقوله **(أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)**.

ج- أو خوف فوات مصلحة **(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نّفْعَلَ فِيَ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ...)** قالوا قد نقبل منك أن تدعونا إلى ترك عبادة الآباء، ولكن ما شأن دينك وصلاتك بأن نكسب أموالنا بأي طريق شئنا.

د- أو خشية وقوع مضرة أو مفسدة جراء إتباعهم لهدى الله وذلك في قوله تعالى على لسانهم: " **(وَقَالُوَاْ إِن نّتّبِعِ الْهُدَىَ مَعَكَ نُتَخَطّفْ مِنْ أَرْضِنَآ..)** فهم يعلمون أنه هدى ولكن لا يتبعونه خوف ضرر أو أذى يلحق بهم، فأبو طالب كان يحب النبي ويعلم صدقه ولكنه رأى أن متابعته تعرضه للمذمة من قومه، وكذا النفران اليهوديان اللذان سألاً النبي عما دلاهما على نبوته فقالا: " نشهد أنك نبي، ثم قالا " وإنا نخاف إن نحن اتبعناك أن تقتلنا يهود"[1].

1- المسند (239/4)، وأخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وصححه، وسيأتي بتمامه في موضع لاحق.

وهكذا فإن تعريفهم للإيمان وفق منطقهم ليس جامعاً مانعاً وقد دخل فيه من غابت عنه صفة الإيمان وثبت له الكفر، وهذا كافي لنقض مذهبهم الفج في شططه، فضلاً عن أن جهم نفسه هناك من سيرته ما يفيد تآمره على الدين، فلم يكن ذا دين ولا عبادة ولم يجالس العلماء قط كما ورد عنه في الفتح لابن حجر.

وقد كان كاتباً لقائد الثورة على دولة هشام بن عبد الملك- الحارث بن سريج- الذي ضم في ثورته أهل الذمة ومشركي الترك حتى قال عنهم نصر بن سيار عامل هشام على خرسان في شعره:

فامنح جهادك من لم يرج آخـــــرةً   وكن عدواً لقوم لا يصلون
إرجـــاءكم لزكم[١] والشرك في قرن   فأنتم أهل إشراك ومرجونا

ملاحظة أخيرة : إن هذا المذهب وإن تبناه اليوم من يسمى بالرواد المصلحين أو المفكرين الإسلاميين أو المستغربين العرب والمفتونين بالحضارة الغربية والناقلين عقائدهم عن المستشرقين أقول: إن هذا المذهب من الشذوذ لدرجة أن من المصنفين من لم يعده من مذاهب الإرجاء كابن عبد البر في التمهيد، كما أن أبا عبيدة في كتاب الإيمان بتحقيق الألباني قد صرح" بأن قولهم شاذ لا يعتد به، ولا يحتاج لجدل، بل هو منسلخ عن قول أهل الملل الحنيفية[٢] ".

نقول هذا لأن كل من يحاول أن يعيب الإرجاء يخص هذا المذهب الشاذ دافعاً الشبهة بذلك عن غيرهم المعنيين بالإرجاء وهم مرجئة الفقهاء ومرجئة الخلف كما سنوضح لاحقاً، فكما يقول د. سفر الحوالي في كتابه" إن كل ذم وعيب قيل في المرجئة فهو منصرف للفقهاء وحدهم حتى القرن الثالث الهجري[٣].

1- لزَّ الشيء: شده، لزكم واللز في قرن : قرنكم به.
2- كتاب الإيمان لأبي عبيدة ص 79
3- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص380

الفصل الثاني

مسمى الإيمان عند الأشاعرة والماتريدية

الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ولد بالبصرة سنة (260هـ) ونشأ على مذهب الاعتزال، وتتلمذ علي يد شيخ المعتزلة حينئذ أبي علي الجبائي، ثم لم يلبث أن اختلف مع أستاذه في بعض المسائل، فتخاصما وانحاز إلى طائفة من السلف باشرت علم الكلام وتبنت مقالة المرجئة مثل عبد الله بن سعيد الكلابي والحارث بن أسد المحاسبي فأيد مقالتهم بمناهج كلامية، وصار ذلك مذهباً لأهل السنة والجماعة، وقرر طريقته جماعة من المحققين مثل القاضي الباقلاني وأبو إسحاق الإسفراييني وأبي بكر بن فورك.

الماتريدية: نسبة إلى محمد بن محمود بن منصور ولد بقرية " ما تريد " من أعمال سمرقند، وهو في الطبقة الرابعة من الأحناف، وذاعت شهرته في علم الكلام وكثر أتباعه، وصار له مذهباً يسلكه أهل خراسان ووافق الأشعري في جل مسائله، وعادة ما يشار إليهما بإمامي أهل السنة.

وسنعرض لهذا المذهب من خلال ذكر بعض مقالات أشهر أصحابه ومناقشتها

القول الأول: ونبدأ بكلام أكبر أئمة الأشاعرة المتقدمين وناشر مذهبهم القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت403 هـ)

يقول الباقلاني في بيان ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به " أن يعلم أن الإيمان بالله هو التصديق بالقلب " ثم يستطرد " والدليل على أن الإيمان هو الإقرار بالقلب والتصديق هو قوله : " **وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ** " وقد اتفق أهل اللغة قبل نزول القرآن وبعث الرسول على أن الإيمان في اللغة هو التصديق دون سائر أعمال الجوارح والقلوب" [١] انتهى

1- مقالات الإسلاميين للأشعري(130/1)

قلت: أي أن دليله على أن الإيمان بمعنى التصديق هو اللغة وهذه الآية مع أنها لا علاقة لها بالإيمان الشرعي محل النزاع والذي يدل على مراد الله بل إن التصديق ذاته الذي يعني في اللغة اعتقاد صدق المخبر، قد نقل في الشرع إلى التصديق المتحقق بالعمل فإبراهيم المصدق للرؤيا والمعتقد بأنها بأمر من الله لم يجعله الله مصدقاً إلا بعد مباشرة الفعل **(فَلَمّا أَسْلَمَا وَتَلّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدّقْتَ الرّؤْيَآ).** [الصافات]

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة وسنوردها في حينها وإنما أردنا التنويه إلى مسلكهم في اجتزاء النصوص واعتساف الأدلة التي تخدم معتقدهم وترك ما عداها من نصوص أوضح وأجلى في بيان خلاف معتقدهم.

القول الثاني:- ومن أئمتهم المتقدمين أيضاً أبي منصور البغدادي (ت/ 421هـ) يفصل الأمر أكثر فيقول في كتابه أصول الدين (ص 268):" **الطاعات عندنا أقسام:-**

أعلاها**(القسم الأول)**: يصير بها المطيع عند الله مؤمناً، ويكون عاقبته لأجلها الجنة إن مات عليها وهي معرفة أصول الدين في العدل والتوحيد والوعد والوعيد والنبوات والكرامات ومعرفة أركان الشريعة وبهذه المعرفة يخرج من الكفر.

قلت: هي عنده محض معرفة.

القسم الثاني :- إظهار ما ذكرناه باللسان مرة واحدة، و به يسلم من الجزية والقتال والسبي، و به تحل المناكحة والذبيحة والموارثة والدفن في مقابر المسلمين، والصلاة عليه وخلفه.

قلت: أي أنه علامة لإجراء الأحكام الدنيوية، وغير داخل في مسمى الإيمان.

القسم الثالث:- إقامة الفرائض واجتناب الكبائر وبه يسلم من دخول النار ويصير مقبول الشهادة.
قلت: وهنا يحق لنا أن نعجب من اعتقادهم استحقاق تارك هذه الطاعة دخول النار، وقد كمل إيمانه بالقسم الأول من الطاعات، فالإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص لأن نقصه شك وهو كفر – كما سنبين من أقوالهم، وهذا إنما يدل على اضطرابهم ومحاولتهم الهروب من لوازم سوء معتقدهم.
القسم الرابع:- زيادة النوافل، وبها يكون له الزيادة في الكرامة ".
قلت: وليس الزيادة في الإيمان .
وقال أيضاً: " والمعاصي قسمان: قسم منها كفر محض، كعقد القلب على ما يضاد القسم الأول من أقسام الطاعات، أو الشك فيها أو في بعضها ومن مات على ذلك كان مخلداً في النار"
قلت: يعني مجرد اعتقاد ما ينافي الطاعات الأولى أو الشك فيها بمعنى آخر إنكارها وعدم الإقرار بها.
والقسم الثاني منها: ركوب الكبائر أو ترك الفرائض من غير عذر، وذلك فسق تسقط به الشهادة، وفيه ما يوجب الحد أو القتل أو التعزير وهو مع ذلك مؤمن إن صح له القسم الأول من الطاعات".
قلت: ولم يذكر ترك الإقرار، لأنه مجرد علامة لإجراء الأحكام الدنيوية – كما ذكر – ولذلك كان إظهاره مرة واحدة كافياً.
القول الثالث:- ومن أشهر أئمتهم المتأخرين: سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانـــــــي
(ت 793)، يقول ضمن كلام طويل في شرح النسفية ص428: " إن ها هنا مطلبين: الأول أن الإيمان هو التصديق لا غير. لا سائر ما في القلب، وذلك لوجوه:-
الأول: اتفاق الفريقين – يقصد الأشعرية والماتريدية – على انه ليس سوى التصديق.
الثاني: أن الإيمان في اللغة التصديق ولم يعين في الشرع بمعنى آخر.
الثالث: أن النقل خلاف الأصل فلا يصار إليه بلا دليل "

قلت: هكذا يقطع أن الإيمان لم يرد به في الشرع معنى آخر غير التصديق، وأن نقله هو مخالفة للأصل يحتاج إلى دليل، ولم يصل إليه الدليل؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقصارى من يرى أنه نقل عن معناه اللغوي الذي هو مطلق التصديق، أن قصد به في الشرع تصديق مخصوص أي تصديق ما جاء عن النبي جملة مما علم من دين الله بالضرورة دون بحث.

ثم نستكمل مع التفتازاني قوله عن المطلب الثاني: " إن الإقرار ليس جزءاً من الإيمان " لدلالة النصوص على أن محل الإيمان هو القلب، فلا يكون الإقرار الذي هو فعل اللسان داخلا فيه ".

وسنرجئ مناقشة هذا الدليل إلى حين الرد على الشهبات النصية في الباب الخامس.

القول الرابع :- ننقل عن كمال الدين بن الهمام صاحب المسايرة على المسامرة وإن كان من فقهاء الحنفية ولكن يشير في أقواله إشارة واضحة إلى مسمى الإيمان عند الأشاعرة حين جمعه لأقوال الناس في هذا الموضوع فيقول: " وأقوال الناس، - (يقصد مذاهب الناس في مسمى الإيمان) - هي:-

1- " القول بأن مسمى الإيمان هو التصديق فقط، هو المختار عند جمهور الأشاعرة وبه قال الماتريدي "

2-" أن مسمى الإيمان: تصديق القلب والإقرار باللسان وعمل سائر الجوارح، فماهيته على هذا مركبة من ثلاثة أمور: إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فمن أخل بشيء منها فهو كافر، وهذا هو قول الخوارج، ولذا كفروا بالذنب لانتفاء الماهية "

قلت: هكذا يخص الكمال الخوارج بهذا المذهب ويستخدم مصطلحات المناطقة مثل " فماهيته مركبة... " كفروا بالذنب لانتفاء الماهية " مع أنهم لم يعاصروا المناطقة حين بدو مقالتهم تنفيرا من المذهب ذاته

وبذلك ينشئ هو وغيره فزاعة التشبه بالخوارج لكل من يدخل العمل في مسمى الإيمان.

3- " أن الإيمان: تصديق بالقلب واللسان ...، وهو منقول عن أبي حنيفة ومشهور عن أصحابه وعن بعض المحققين من الأشاعرة ".

قلت: يعني أن أبا حنيفة وأصحابه يرون أن الإيمان مكون من شطرين التصديق والإقرار وبذلك فالإقرار داخل في مسمى الإيمان.

ولكن يعود فيستدرك بأنهم فرقوا بين التصديق والإقرار بأن " التصديق ركن لا يحتمل السقوط أصلاً، والإقرار قد يحتمله، وذلك في حق العاجز عن النطق والمكره" فجعل الاستثناء العارض – الخرص والإكراه – موجباً لخروج الإقرار من مسمى الإيمان، لقولهم هل يستقيم البناء مع سقوط أحد أركانه؟ ولقولهم " الشيء لا يوجد بدون شطره، وقد وجد الإيمان في العاجز" وبهذا المنطق المفحم! يسقط القول بالشطرين ويبقى كونه شرط في صحة الإيمان وذكر دليلين على ذلك:

أ - إن هذا هو الاحتياط بالنسبة لمن جعله شرطاً خارجاً عن حقيقة الإيمان.

ب -لدلالة النصوص على مثل قوله عليه الصلاة والسلام: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني دمه وماله إلا بحقها وحسابه على الله "

أقول ومناط استدلاله أن المقاتلة على الإقرار تجعله شرطاً في صحة إيمانه وليست شطره.

ثم يتراجع مرة أخرى فيورد رد جمهور الأشاعرة على الحديث لبيان أن الإقرار إنما هو شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا وليس شرطاً في صحة الإيمان، فيقول: " ويجاب من طرف جمهور الأشاعرة على الحديث بأن معناه أن قولة لا إله إلا الله شرط لإجراء أحكام الإسلام

حيث رتب فيه على القول الكف عن الدم والمال، لا النجاة في الآخرة الذي هو محل النزاع.

أي أنه يخلص إلى أن الإقرار باللسان ليس شرطاً في صحة الإيمان الذي ينجى صاحبه في الآخرة وإنما يكفي تصديق القلب.

القول الخامس: وأوضح ما قيل من الأشعرية في حقيقة الإيمان هو ما قاله أبو المعالي الجويني الشافعي وكبير الأشاعرة في عصره عند بيانه لاختلاف مذاهب الإسلاميين في حقيقة الإيمان إلى:-

١ -ذهبت الخوارج إلى أن الإيمان هو الطاعة وكذا المعتزلة.

٢ -وصار أصحاب الحديث إلى أن الإيمان معرفة بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

٣ -وذهب بعض القدماء إلى أن الإيمان هو المعرفة في القلب والإقرار به.

ثم قال: " والمرضي عندنا أن حقيقة الإيمان: التصديق بالله تعالى؛ فالمؤمن بالله من صدقه"

وقال: " ويشهد لما ذكرناه إجماع العلماء على افتقار الصلوات ونحوها من العبادات إلى تقديم الإيمان، فلو كانت أجزاء من الإيمان لامتنع اطلاق ذلك"، ثم قال: فإن استدل من سمى الطاعات إيماناً بقوله تعالى:" **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ** "، قلت: أما الإيمان في الآية التي استروحتم إليها فهو محمول على التصديق والمراد: ما كان الله ليضيع تصديقكم نبيكم فيما بلغكم من الصلاة إلى القبلتين[١] أ.هـ

ثم نعود إلى اضطراب من نوع آخر، فقد اختلفوا وتضاربوا في تفسير التصديق ذاته.

1- الإرشاد للجويني(396-399)

قال الإمام عبد القادر الجيلاني صاحب الغنية :" اختلف جواب الأشعري في معنى التصديق، فقال هو المعرفة بوجوده وإلهيته وقدمه، وقال مرة التصديق قول في النفس غير أنه يتضمن المعرفة ولا يصح بدونها ".

وقد أراد أصحابه إخراجه عن متابعة الجهم والوقوع في لوازمه السابقة ففسروا أقواله هكذا...

قال صاحب الغنية في تفسيره لقول النفس بأنه " الانقياد لقبول الأوامر والنواهي المستلزم للإجلال وعدم الاستخفاف ".

هكذا يقصدون الانقياد النفسي وليس العمل وامتثال الجوارح.

وقال صاحب الحاشية على المسايرة– قاسم قطلوبغا– "والظاهر أن الشيخ أبا الحسن أراد المعرفة النفسية المكتسبة بالاختيار لأنها هي التي تكون تصديقاً لا المعرفة التي ذهب إليها جهم

وقال الكمال بن الهمام" اختلفوا في التصديق بالقلب أهو من باب العلوم أو من باب الكلام النفسي؟

وردَّ المعنى الأول ودفعه بكفر أهل الكتاب مع علمهم بحقية رسالته، ودفعه أيضاً بكون العلم ليس اختيارياً وإنما اضطرارياً فلا يتحقق به إيمان كمن ظهرت له إمارات النبوة فلزم نفسه عند ذلك العلم بصدقه "، فما الفارق بينه وبين المعلوم من الدين بالاضطرار كما يشترطونه؟

وفسر اللقاني التصديق للرسول بقبول ما جاء به مع الرضا وترك العناد والكبر، وإلا لزمهم إيمان كثير من الكفار ". هكذا تعريف ثم شرح وتفسير للتعريف هروباً من لوازمه.

والخلاصة أن ما تحمَّله الأشاعرة وتكلفوه للتفريق بين قول الجهمية بأن الإيمان هو المعرفة وقولهم بأنه التصديق أمر لا يقبله العقلاء، وهذا ما يؤكده الإمام ابن تيمية بقوله: " وأكثر الناس لا يتصورون الفرق بين

معرفة القلب وتصديقه، ويقولون: بأن ما قاله ابن كلاب الجهمي والأشعري من الفرق كلام باطل[١]

وعن موضوع زيادة الإيمان ونقصانه:

يقول أبو المعالي الجويني الشافعي كبير الأشاعرة في عصره وشيخ الغزالي " فإن قيل فما قولكم في زيادة الإيمان ونقصانه؟ قلنا إذا حملنا الإيمان على التصديق فلا يفضل تصديق تصديقاً كما لا يفضل علم علماً، فإن قيل أصلكم يلزمكم أن يكون إيمان منهمك في فسقه كإيمان النبي ﷺ، قلنا: أن النبي ﷺ يفضل من عداه باستمرار تصديقه وعصمة الله إياه من مخامرة الشك واختلاج الريب، والتصديق عرض لا يبقى، وهو متوال للنبي عليه السلام، ثابت لغيره في بعض الأوقات، زائل عنه في أوقات الفترات – مثل النوم والغفلة – فيثبت للنبي أعداد من التصديق لا يثبت لغيره إلا بعضها فيكون إيمانه بذلك أكثر " يقصد أن الكثرة الثابتة للرسول ليست عن زيادة ولكن عن تواليه واستمراره حتى في أوقات الغفلة قال" فلو وصف الإيمان بالزيادة، وأريد بذلك ما ذكرناه لكان مستقيماً فاعلموه "

قلت: وهكذا يرون أن التصديق لا يتفاضل، ولما وجهوا بلازم قولهم بتساوي إيمان النبي مع إيمان المنهمك في الفسق، التمسوا تقييدات تغض من مقام النبوة، فإن زيادة التصديق لدى النبي ليست من كسبه ولكن بعصمة الله له من مخامرة الشكوك واختلاج الريب ولأن تصديقه ثابت ومستمر حتى في أوقات الفترات، وبذلك يلتمس العذر للواقع في الفسق لأن قلة تصديقه ليست من فعله فلا يسأل عنها. أما وقد أطلنا النفس لدرجة السآمة مع هذه التشققات والاضطرابات والاختلافات التي وقعوا فيها هرباً من الدفوع والاعتراضات ومن لوازم أقوالهم، فما كان أغناهم عنها لو أنهم أنصفوا، وسلكوا مسلك أهل الحديث في اعتمادهم على النصوص في معرفة مراد الله من الإيمان.

1- كتاب الإيمان لابن تيمية

فلن نجشم أنفسنا مشقة الرد على ترهاتهم[١] وتخرصاتهم وسنرجئها لباب القول الفصل.

1- ترهات: الأباطيل

الفصل الثالث

مسمى الإيمان عند مرجئة الفقهاء

إرجاء الحنفية

سبق أن ذكرنا أن أصحاب هذا المذهب هم أول من تكلم في الإرجاء بمعنى فصل العمل عن حقيقة الإيمان، وقالوا بأن الإيمان تصديق وإقرار بلا عمل وأنه لا يزيد ولا ينقص، وهو المعتقد الذي ألصق به التابعون ومن بعدهم كل عابٍ وذم ووصفوا أصحابه بما سبق ذكره، ولأن جل من روج لهذا المذهب من الفقهاء فقد سمي بإرجاء الفقهاء ومن أشهرهم حماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة وقد تبناه أصحاب الإمام حتى سمي بإرجاء الحنفية.

ولذلك سنشرع بعون الله في ذِكْر طرف من ترجمة الإمام أبي حنيفة فيما يخص موضوعنا من " كتاب ترجمة الإمام الأعظم" وفيه يُعَرِّف الخطيب البغدادي صاحب الترجمة الإمام أبا حنيفة، بقوله: هو سراج الأمة، تاج الملة، صاحب المذهب المختار، حبر الأئمة الأخيار، إمام المسلمين، قبلة المجتهدين أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي.

ويتعرض عامل هذا الديوان فيه لمناقب الإمام ويعدد مآثره، ويستفيض في الكلام عن علمه وتصانيفه، وتعبده وزهده، وصفاته وأخلاقه الحميدة، وفي ثنايا ذلك يرد على مناوئيه ومنافسيه ومن تكلم من أهل الحديث عن إغراقه في الرأي والقياس والإرجاء، ويعلل ذلك بحسدهم له لأنهم لم يبلغوا مكانته.

بدأ الترجمة بالكلام عن:-

اشتغال الإمام بالعلم :- أخرج الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد عن أبي يوسف قال: قال أبو حنيفة رضي الله عنه لما أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها فقيل لي تعلم القرآن، فقلت إذا تعلمت

القرآن وحفظته، فماذا يكون آخرة أمري، قالوا تجلس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ثم لا تلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك في الحفظ فيذهب رياستك، قلت فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ مني، قالوا: إذا كبرت وضعفت عن الحديث اجتمع عليك الأحداث والصبيان ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عاراً عليك، فقلت لا حاجة لي في هذا.

ثم قلت فإن تعلمت النحو حتى لا يكون أنحى مني في العربية فما يكون آخرة أمري، قالوا تقعد معلماً لأولاد الأكابر فأكثر رزقك الديناران إلى الثلاثة، قلت وهذا لا عاقبة له، وقال مثل ذلك في الشعر وعلم الكلام، حتى وصل إلى الفقه قال: قلت فإن تعلمت الفقه قالوا تُسأل وتفتي الناس وتُطلب للقضاء ولو كنت شاباً، قلت ليس في العلوم شيء أعظم من هذا فلزمت الفقه وتعلمته وتركت ما سواه ".

اشتغال الإمام بعلم الكلام : قال الخطيب البغدادي عنه " فنظر في علم الكلام وبلغ فيه مبلغاً يشار إليه بالأصابع وأعطي فيه جدلاً فمضى عليه زمن به يخاصم وعنه يناضل حتى دخل البصرة وكان فيها نيف وعشرون فرقة فكان ينازع أولئك الفرق لأنه كان يعد الكلام أرفع العلوم وأفضلها لكونه في أصول الدين.

وعن ملازمته لشيخه حماد بن أبي سليمان المرجئي المعروف:-

روى الخطيب أيضا عن أبي وهب محمد بن مزاحم قال سمعت أحمد بن عبد الله البلخي قال سمعت أبا حنيفة يقول:- " قدمت البصرة فظننت ألا أسأل عن شيء إلا أجيب فيه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي ألا أفارق حماداً حتى يموت وصحبته ثمانياً وعشرين سنة ".

وروى الخطيب عن زفر بن الهذيل قال: سمعت أبا حنيفة يقول " تعلمت الفقه وعلم الكلام حتى صار يشار إليَّ بالأصابع فكنا نجلس بالقرب من

حلقة حماد بن أبي سليمان فكنت أحفظ المسألة وأعيدها له فأصيب ويخطئ أصحابه فقال حماد لا يجلس في صدر الحلقة غير أبي حنيفة، قال فصحبته عشر سنين ثم نازعتني نفسي إلى طلب الرياسة فرأيت أن أعتزله وأجلس في حلقة لنفسي فخرجت يوماً بالعشي وعزمي ذلك، فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسي أن أعتزله – ثم ذكر سفره إلى البصرة وأمره له أن يجلس مكانه قال " فما هو إلا أن أخرج حتى وردت عليَّ مسائل لم أسمعها منه فكنت أجيب عنها وأكتبها، ثم قدم فعرضت عليه المسائل فكانت نحواً من ستين مسألة فوافقني في أربعين مسألة وخالفني في عشرين مسألة فآليت على نفسي أن لا أفارقه حتى يموت فما فارقته حتى مات " انتهى

ذكر صاحب الديوان لتصانيف الإمام:-

قال:" اعلم أن تصانيف الإمام عديدة، فمما ذكروه: كتاب الصلاة، وكتاب المناسك وكتاب الرهن، وكتاب الشروط وكتاب الفرائض، وكتاب الفقه الأكبر، وكتاب الرد على الأوزاعي، وكتاب العالم والمتعلم، وكتاب الإرجاء، وكتاب الرسالة.

ويرد عامل الديوان على من قال أنه ليس للإمام كتاب مصنف بأنه كلام المعتزلة وغرضهم نفي نسبة كتاب العالم والمتعلم والفقه الأكبر لأبي حنيفة لأنه صرح فيهما بأكثر قواعد أهل السنة والجماعة، ودعواهم بأنه كان من المعتزلة، وزعموا أن كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة البخاري.

قال عامل الديوان: وهذا غلط صريح فإني رأيت بخط العلامة الكردري العمادي هذين وكتب فيهما أنهما للإمام أبي حنيفة، وقد تواطأ على ذلك جماعة كثيرة من المشايخ، وقد عول عليه الملا علي القاري، والشيخ أبو المنتهى، ومولانا بحر العلوم في شرحهم لكتاب الفقه الأكبر وعزوه إلى الإمام.

ذكر ما جاء في إرجاء الإمام:-

قال صاحب الترجمة: قال شيخ المؤرخين ابن قتيبة في كتاب المعارف له في باب الفرق " المرجئة: إبراهيم التيمي، عمرو بن مرة الهمداني، طلق بن حبيب، حماد بن أبي سليمان الكوفي، أبو حنيفة صاحب الرأي، عبد العزيز بن أبي داود وابنه عبد الحميد، خارجة بن مصعب، عمرو بن قيس الماضر، أبو معاوية الضرير، يحي بن زكريا بن أبي زائدة، أبو يوسف صاحب الرأي، محمد بن الحسن بن السائب ".

ثم قال عامل هذا الديوان: " إن أرباب المقالات والديانات وأصحاب الأخبار أطبقوا على أن الإمام الأعظم والحبر الأول أبا حنيفة الكوفي كان من المرجئة ويشهد عليه أن كثيراً من شيوخه سيَّما أستاذه الذي تلمذ له وتخرج به حماد بن أبي سليمان الكوفي وكثيراً من أصحابه وأصحاب أصحابه كانوا من المرجئة". انتهى

ثم يورد صاحب الترجمة تفسير الشهرستاني لنسبة الإرجاء إلى الإمام بقوله:" وعده كثير من أصحاب المقالات من جملة المرجئة، ولعل السبب فيه أنه لما كان يقول الإيمان هو التصديق بالقلب وهو لا يزيد ولا ينقص، ظنوا به أنه يؤخر العمل عن الإيمان، والرجل مع تحرجه في العمل كيف يفتي بترك العمل؟!" انتهى

ثم ذكر رد الشيخ علي القاري في شرح الفقه الأكبر على قول الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني في كتاب غنية الطالبين في معرض ذكره للفرق الضالة وذكر منهم الحنفية، بقوله:" وأما ما وقع في الغنية للشيخ الجيلاني عند ذكر الفرق الغير ناجية حيث قال: ومنهم الحنفية وهم أصحاب أبي حنيفة النعمان أنه يقول الإيمان هو مجرد التصديق دون الإقرار فإنه شرط عنده لإجراء أحكام الإسلام. فهو اعتقاد فاسد وقول كاسد مخالف لاعتقاده في الفقه الأكبر" ويصحح القاري المعتقد بقوله:" إن الإيمان هو التصديق والإقرار لأن التصديق الناشئ عن التقليد دون التحقيق مختلف في قبوله، بخلاف المعرفة الناشئة عن الدلالة مع الإقرار

فإنه إيمان بالإجماع". ثم قال:" المرجئة المذمومة هم طائفة قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب، فأين هذا الإرجاء من ذلك الإرجاء".

وذكر صاحب الترجمة ما جاء في كتاب الرسالة – وقد أورد سندها إلى الإمام – والتي يرد فيها على عثمان البستي عتابه عليه أنه قد بلغه أنه من المرجئة، فيفسر له هذا الإرجاء بأنه ما جاء به القرآن ودعا إليه النبي ﷺ وكان عليه أصحابه حتى تفرق الناس. وشرع في بيان ذلك بقوله: " إن الناس كانوا أهل شرك فبعث الله محمداً فدعاهم إلى أن شهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأقروا بما جاء به من الله تعالى، وكان الداخل في الإسلام مؤمناً بريئاً من الشرك حرام ماله ودمه وعرضه، وكان التارك لذلك حين دعي إليه كافراً بريئاً من الإيمان، حلال ماله ودمه، ثم نزلت الفرائض بعد ذلك على أهل التصديق فكان الأخذ بها عملاً مع الإيمان، وكذلك يقول الله تعالى" الذين آمنوا وعملوا الصالحات.." ويقول " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً .." وأشباه ذلك من القرآن ".

ثم يقول الإمام: " فلم يكن المضيع للعمل مضيعاً للتصديق، وقد أصاب التصديق بغير عمل، ولو كان المضيع للعمل مضيعاً للتصديق انتقل من اسم الإيمان وحرمته بتضييعه للعمل، كما لو أن الناس ضيعوا التصديق انتقلوا بتضييعه من اسم الإيمان وحرمته ورجعوا إلى حالهم الذي كانوا عليه من الشرك" ثم قال" إن الناس لا يختلفون في التصديق ولا يتفاضلون فيه وقد يتفاضلون في العمل" ثم قال" واعلم أني أقول أهل القبلة مؤمنون لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شيء من الفرائض".

وعقب على ذلك عامل الديوان بقوله:" هذه الرسالة أصرح دليل على أن الإمام لم يكن من المرجئة أصلاً، فإن معنى الإرجاء معروف مشهور في كتب الفرق، بل كان على ما عليه الصحابة والتابعون الذي فرض الله علينا تقليدهم وسمى سنتهم سبيل المؤمنين" انتهى

قلت: إن الناظر إلى فحوى هذه الرسالة يدرك أن الإمام يرى أن الإيمان باقٍ لصاحبه مع ضياع العمل ولا يزول إلا بضياع التصديق وأن الناس متساوون فيه، فهل هذا ما كان عليه الصحابة والتابعون؟ وهل الإرجاء المذموم من قبل التابعين إلا ذاك؟

والمعضلة أنهم لا يعدون ذلك إرجاء، وليس هذا بمستغرب فهل يعد الأشعري نفسه من المرجئة مع وضوح وشناعة معتقده حيث لا فارق كبير بينه وبين معتقد الجهم كما ذكرنا على لسان ابن تيمية، وإنما حصر الإرجاء في اثني عشر مذهباً ومقالاً كلها للجهمية وأتباعهم مثل المريسي والصالحي وغيرهم؛ بل – ويا للمفارقة – فقد نسب إليه أنه المؤسس لأصول مذهب أهل السنة.. فهل من فارق؟

وينسب إلى الإمام أبي حنيفة كتاب العالم والمتعلم الذي يورد به مسائل في الإيمان بالإضافة إلى قضايا النظر والاستدلال وما ينبغي للعالم والمتعلم وهو مخطوطة قام بشرحها ابن فورك وفي الكتاب يقوم هو بدور العالم ويجيب سائله وهو المتعلم عن مسائل متعلقة بالمذهب فيشرحها له ويوضحها، وهو نفس الأسلوب الحواري الذي كان يعتمده الإمام في تقرير مسائل الفقه وغيره – وهو المشهور عنه – حيث يعرض المسألة ويتداول الإجابة عنها تلاميذه ثم تقرر من خلاله، ثم إنه لم يثبت أن تبنى هذا الكتاب غيره، ولم ينسب إلى غيره ولا بد له من صاحب.

وقد طبع الكتاب بالهند ونقل عنه الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي احدى روايات أبي حنيفة في الإيمان وهو قوله:" الإيمان هو التصديق فمن صدق الرسول فيما جاء به فهو مؤمن فيما بينه وبين الله، والإقرار شرط إجراء الأحكام".

قال الشيخ قاسم في حاشيته على المسامرة (178 – 179): هذا القول مروي عن أبي حنيفة نص عليه في كتاب العالم والمتعلم.

وممن نسب هذا المذهب لأبي حنيفة وأصحابه أيضاً الإمام ابن تيمية، ففي موسوعة الفرق الإسلامية متحدثاً عن مسمى الإيمان عند مرجئة الفقهاء وتحت عنوان " الإيمان عندهم تصديق القلب وقول اللسان " قال الإمام بن تيمية: " وهو قول محمد بن كلاب والحسن بن الفضل البجلي ونحوهما وكانوا يقولون هو التصديق والقول جميعاً موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفة كحماد ومن تبعه مثل أبي حنيفة وغيره ".

وفي موضع آخر ينقل الإمام عن الحافظ بن عبد البر قوله: " أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد وينقص إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيماناً ".

ثم إن أصحابه وتابعيهم في مختلف الطبقات قد تبنوا هذا المذهب وألفوا فيه الكتب ونظموا المتون وهم شرَّاحُها والمروجون للمذهب وسنذكر أقوال أئمتهم في شرح المذهب في الصفحات القادمة فلم الحيرة ؟ وهو ما وقع فيه كثير من العلماء حيث هالهم عظم أمر وشأن الكثير ممن تبنى هذا المعتقد فحاولوا التخفيف من أمره والتهوين من خطورته إذ لم يستطيعوا نفيه عنهم فتناقضت أقوالهم واضطربت أشد اضطراب.

عرض نماذج من أقوال مرجئة الفقهاء مع مناقشتها

إن أشهر من يمثل هذا المذهب هم فقهاء الحنفية وعلى رأسهم الإمام أبو جعفر الطحاوي صاحب العقيدة المشهورة الذي يقول في مقدمتها: " هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين".

قلت:[هكذا يقرر أن هذا المذهب الإرجائي هو عقيدة أهل السنة والجماعة كما قررسابقوه وسيقرر لاحقوه على اخ تلاف عقائدهم... وكل يبكي على ليلاه].

ثم ذكر الطحاوي معتقدهم في مسمى الإيمان قائلاً: " الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله من الشرع والبيان كله حق، فالإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم في الخشية والتقى ومخالفة الهوى ملازمة الأولى".

قلت:[يقرر الطحاوي أن حقيقة الإيمان مركبة من شطرين: التصديق بالقلب والإقرار باللسان وهو القول المشهور للإمام أبي حنيفة وأصحابه، إلا أن جمهور المحققين منهم – وكما نقل عنهم – يرون أن الإقرار شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا، ومنهم من يراه شرط صحة خارجاً عن حقيقة الإيمان لأن الشرط مغاير للمشروط كما يقولون، ولست أدري ما قيمة الشرط إذن لم ينتف المشروط بانتفائه؟].

ويقول الشعراني في كتابه – اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر - : " أن السبكي أورد سؤالاً وهو: أنه هل التلفظ بالإيمان الذي هو الشهادة شرط للإيمان أو شطر منه؟ فيه تردد العلماء" ثم قال الشعراني: قال الكمال في حاشية جمع الجوامع " وإيضاح ذلك أن يقال في التلفظ هو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من التوارث والمناكحة وغيرهما،

فيكون غير داخل في مسمى الإيمان أو شطر منه وجزء من مسماه " ويستطرد قائلاً: " والذي عليه جمهور المحققين الأول – ليس شطر – وعليه فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار كان مؤمناً عند الله ".

قال: " وهذا أوفق باللغة والعرف ".

ثم يستكمل مستثنياً: " وذهب شمس الأئمة السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي من الحنفية وكثير من الفقهاء إلى الثاني – أنه شطر الإيمان وجزء من مسماه – " ويستدرك عليهم قائلاً : " وألزمهم القائلون بالأول بأن من صدق بقلبه فاخترمته المنية قبل اتساع وقت الإقرار كان كافراً؟! – يقصد على قولكم – ثم يقرر" وهذا خلاف الإجماع على ما نقله الإمام الرازي وغيره ".

قلت:[هكذا يدعون الإجماع على فرض خيالي لو صح وقوعه لكان استثناءًا للقاعدة ، رغم أن أصحاب كل هذه المذاهب لم يجمعوا على أمر واحد في أي مسألة من مسائل مذهب... لكنه الهوى ونصرة المذهب].

هذا عن حقيقة الإيمان أما عن تساوي الناس أو تفاضلهم – زيادة الإيمان ونقصانه – فقد قرره الإمام الطحاوي في عقيدته بقوله:" الإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم في الخشية والتقى "

قلت: [وهو قول مضطرب فكيف يكون الناس متساوون في أمر ومتفاضلون فيه أيضاً؟، وهكذا القوم يمسكون العصى من المنتصف لا يريدون مخالفة أسلافهم وفي نفس الوقت يرون شناعة مخالفة النصوص، ولعل مقصده أن أصل الإيمان ومسماه وهو تصديق القلب واحد أما الخشية والتقى وإن كانت من أعمال القلوب فهي أمور عارضة لا تدخل في مسمى الإيمان ويعتبرونها جهات أو أمور زائدة على الذات]

ويوضح هذا الاضطراب الإمام ابن تيمية حين ينقل عنهم: " قالوا نحن نسلم أن الإيمان يزيد بمعنى أنه كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها،

فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله ولكن بعد كمال ما أنزل الله ما بقى الإيمان يتفاضل عندهم، بل إيمان الناس كلهم سواء، فإيمان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر كإيمان أفجر الناس كالحجاج وأبي مسلم الخرساني" انتهى

وقد فصل الأمر أكثر أبو بكر بن فورك في شرحه على كتاب العالم والمتعلم المنسوب للإمام أبي حنيفة الذي صاغه صياغة فلسفية فذة تكشف عن تمكن في استخدام معارفه المتسعة من لغة ومنطق وإحاطة بدقائق المسألة ودربه في إدارة الحوار وإلمامٍ بآدابه إلى آخر ما تكشف عنه السطورالآتية.

يقول في المتن:" قال المتعلم: أخبرني من أين ينبغي أن نقول: إيماننا مثل إيمان الملائكة والرسل وقد نعلم أنهم كانوا أطوع لله منا؟

قال العالم: لقد علمنا أنهم كانوا أطوع لله منا، وقد حدثنا أن الإيمان غير العمل، فإيماننا مثل إيمانهم لأنَّا صدقنا من وحدانية الرب وربوبيته وقدرته بما جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة وصدقت به الرسل صلوات الله عليهم"

قلت:[يقصد الإمام أنه لما كان الإيمان غير العمل فالتفاوت في الطاعة وليس في الإيمان لأن تصديق كل منا متماثل فكذا الإيمان]

ثم يستطرد قائلاً " فمن ها هنا زعمنا أن إيماننا مثل إيمان الملائكة، لأنَّا آمنا بكل شيء آمنت به الملائكة مما عاينته الملائكة من عجائب الله تعالى ولم نعاينه "

ويعلق الشارح بن فورك على هذا المتن مبيناً أن التصديق جنسٌ واحد لا يتفاوت، ومؤكداً على أن فضل الأنبياء في الإيمان على سائرالخلق مرده إلى أمرين: الأول الثبات إذ أن تصديقه م لا يتأثر بأوقات الفترات كما قدمنا، والأمر الثاني العاقبة فإيمان الأنبياء معصوم عن الردة والكفر بخلاف غيرهم فاحتمال طروء ذلك عليه قائمٌ "

قلت:[بمعنى أن فضلهم في الإيمان على غيرهم ليس من كسبهم واختيارهم، وهنا تنشأ معضلة، فلم يفضلون علينا في ثواب الآخرة إن كان؟]

وهنا نعود إلى المتن حيث يشرح العالم للمتعلم كيف تحل تلك المعضلة..

"قال المتعلم لحسن ما فسرت، ولكن أخبرني إن كان إيماننا مثل إيمان الرسل، أليس ثواب إيماننا مثل ثواب إيمانهم؟ فلما فضلهم علينا وقد استوينا في ثواب الإيمان في الآخرة؟و إن كان ثواب إيماننا دون ثواب إيمانهم، أليس ظلماً إذا كان إيماننا مثل إيمانهم ولم يجعل لنا من الثواب ما جعل لهم؟

قال العالم:" لقد أعظمت المسألة ولكن تثبت في الفتيا، ألست تعلم أن إيماننا مثل إيمانهم لأنا آمنا بكل شيء آمنت به الرسل، ولهم بعد علينا الفضل في الثواب على الإيمان وجميع العبادة لأن الله تعالى كما فضلهم بالنبوة على الناس كذلك فضل صلواتهم وبيوتهم ومساكنهم وجميع أمورهم على غيرها من الأشياء"

قلت:[وكأنه يرى أن أفعال العباد بمن فيهم الرسل ليست بإرادتهم وهم مجبورون عليها، أليست هذه هي الجبرية البغيضة؟]

ثم يستطرد " ولم يظلمنا ربنا إذ لم يجعل لنا مثل ثوابهم، وذلك إن كان إنما يكون الظلم إذا أرقصنا حقنا فأسخطناه، فإما إذا زاد أولئك ولم يرقصنا حقنا وأعطانا حتى أرضانا فإن ذلك ليس بظلم" أ.هـ

واستكمالاً لمسألة زيادة الإيمان ورقصه ننقل عن صاحب المسامرة بشرح المسايرة يقول الكمال:" والحنفية ومعهم إمام الحرمين وغيره وهم بعض الأشعرية لا يمنعون الزيادة والن قصان باعتبار جهات هي غير نفس الذات أي التصديق، بل بتفاوت الإيمان باعتبار تلك الجهات، لا بسبب تفاوت ذات التصديق.

قلت:[ويعيد نفس الكلام منسوباً لأبي حنيفة مع محاولة الهروب من لازم كلامه الذي يقتضي تساوي إيمان آحاد الناس بإيمان الملائكة والأنبياء فلا يراوح مكانه]

يقول صاحب المسامرة: " وروي عن أبي حنيفة أنه قال: إيماني كإيمان جبريل ولا أقول مثل إيمان جبريل، لأن المثلية تقتضي المساواة في كل الصفات، والتشبيه لا يقتضيه، فلا أحد يسوي بين إيمان آحاد الناس وإيمان الملائكة والأنبياء بل يتفاوت، غير أن هذا التفاوت هل بزيادة ونقص في نفس الذات – التصديق – أو بأمور زائدة عليها؟ فمنع الحنفية الأول أي منعوا التفاوت في نفس الذات "

قلت:[هكذا تفلسف وتهويم وتشقق وتردد واضطراب بل وارتياب، لا يلوون على شيء ولا يحسنون شيئاً، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انقطاع صلته بوحي الله وبكتابه مصداقاً لقول الحق سبحانه **(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)** وهكذا.. **(وَمَن لّمْ يَجْعَلِ اللّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ)** [النور]

وأخيراً نستطيع أن نؤكد أن مرجئة الحنفية لم يأتوا بجديد عن سابقيهم إلا أموراً شكلية نستطيع إجمالها في أمرين:

الأول:- الإيمان عندهم يشمل أمرين تصديق القلب وإقرار اللسان، وهو أمر غير مجمع عليه عندهم بل منسوب إلى القلة منهم في حين أن الأكثرية على أن الإقرار شرط لإجراء الأحكام الدنيوية ولا يدخل في مسمى الإيمان فمن لم يأت به مؤمنٌ عند الله إن كان مصدقاً بقلبه، ودونهم من يقول أنه شرط صحة للإيمان – ولا معنى له عندهم لأنهم أسقطوا الركنية عنه وقالوا إن الشيء لا يوجد بدون شطره وقد وجد الإيمان بدونه.

الثاني:- إن الإيمان بمعنى التصديق لا يتفاوت عند الناس، فإيمان وتصديق آحاد الناس كإيمان وتصديق الأنبياء وإنما التفاوت والزيادة إن

قيلت فالمقصود بها أمورٌ عارضة لا شأن لها بالتصديق، إما لاستمرارية وثبات التصديق عند الأنبياء لعصمة الله لهم أولغيرها. وهذا لأنهم أرادوا عدم مصادمة النصوص ولو شكلاً وكذا هروباً من المعارضات والانتقادات.

والآن سنذكر شبهاتهم النصية وإن كانت هي ليست الأصل في تبنيهم لهذا المذهب – وإن عضدته – ولكن الأصل في ذلك اعتمادهم على المنهج الفلسفي في تعريف الأشياء واثبات حقائقها بالإضافة إلى الهروب من شناعة أحكام الخوارج والتي اعتمدوها فزاعة لإرهاب كل من يدخل العمل في مسمى الإيمان، وكذلك عدم الفهم الجيد للإستشكال الواقع في البيئة الحاضنة لهذا المذهب حال وقوع مظالم وشنائع مع عدم القدرة على سلب الإيمان من أصحابها، ولا حل وسط يخرجهم من هذا المأزق فلا سبيل إلا إخراج الأعمال عن حقيقة الإيمان ثم كانت هذه النصوص التي تعلقوا بفهمهم لها كطوق نجاة من هذه الحيرة والاضطراب.

أولاً:النصوص التي تشير إلى أن القلب محل الإيمان مثل(**وَلَمّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**)، (**أُوْلَـَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ**)،(**وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالإِيمَانِ**)، وقوله ﷺ:" اللهم ثبت قلبي على دينك " ، واستفادوا منها أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان.

ثانياً:- أن الله تعالى قد عطف الأعمال على الإيمان بقوله:" قال تعالى: (**إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ**... "، قالوا ولا شك أن المعطوف غير المعطوف عليه، ولا يعطف جزء الشيء على كله.

وكذلك فإن الله رتب العمل على الإيمان بقوله (**يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ**...)

ثالثاً: بعض النصوص التي خلطوا فيها بين الإيمان الحقيقي الذي هو مراد الله وبين الإيمان الظاهر الذي تستوفى به الحقوق الدنيوية –

الإسلام - ، مثل حديث الجارية بقوله صلى الله عليه وسلم " اعتقها فإنها مؤمنة ".

رابعاً: النصوص التي تفيد أن هناك من لم يعمل خيراً قط وهو إما مغفورٌ له، أو ناجٍ من النار أو مقطوع بخروجه منها ومختوم له بدخول الجنة مثل حديث الغلام اليهودي والرجل الذي أمر أبناءه بإحراق جسده بعد موته وتفريقه، وحديث السجلات، وحديث الجهنميين ...الخ.

وكل تلك الشبهات سنرد عليها تفصيلاً في الباب الخامس – القول الفصل- لبيان تعسفهم في الفهم وفساد تأويلاتهم لها وتغليب الهوى والانحياز للمذهب المقرر سلفاً ولو على حساب المعاني الواضحة بل والنصوص القطعية الأخرى وبيان للاجتزاء المفرط للنصوص التي تتفق مع الهوى الذي وقعوا أسرى له.. والله المستعان.

الفصل الرابع

مرجئة الخلف (إدخال العمل في الإيمان كشرط كمال)

تمثل هذا المذهب في مقالات طائفة من علماء الخلف من شراح كتب الحديث وغيرهم، ولخفاء حيلتهم وتأخر شيوع مقالتهم لم تشملهم كتب التاريخ والفرق وكتب أصحاب المقالات.

وقبل أن نتعرض لمذهبهم في الإيمان، يجب أن نستعرض حقيقة الإيمان عند الصحابة والتابعين وعلماء السنة حتى يتبين لنا مدخل هذا الفريق من المرجئة إلى تحرير مذهبهم، وكيف نشأت تلك المقالة الخبيثة.

الإيمان عند الصحابة الكرام:-

إذن فلندع إلى حين ذلك المستنقع الآسن بنتنه وعفنه، ونعود القهقري نتنسم ريحاً طيبة عطرة مع الصحب الكرام نسألهم عما إذا كان قد خطر ببالهم تلك الجدليات العقيمة وذلك الترف الفكري المقيت الذي شغلت به أذهان خلوفهم، وهل جال بخاطرهم يوماً أن يبحثوا عن معنى وتعريف لإيمان يمارسونه واقعاً حياً في حياتهم يتنفسونه ويغسلون به همومهم، ويزيلون به آثار عذاباتهم، ويتقربون به إلى ربهم.

إيمان عايشوه في ابتلاءات وعذابات وصبر، في صلوات وابتهالات وذكر، في فراقات ومشقات وهجر، ثم غزوات وجراحات كروفر، ودماء وأشلاء وأسر، لا يرمون من وراء ذلك إلا الظفر بإحدى الحسنيين، بل قل لا يرضون بغير الحسنى، فإنها لحياة طويلة أن يبقى حتى يأكل تلك التمرات .. إنها الجنة ورب الكعبة .. عقدوا من أجلها الصفقة الرابحة مع ربهم فبذلوا لها النفس والمال.

وأيم الله إن الذين جشموا أنفسهم عناء البحث عن معنى للإيمان، لهم قوم غرباء عنه، ولم يعرفوه في واقع حياتهم، ولم يذوقوا حلاوته فضلاً عن أن يقاسوا عذاباته.

نعود إلى ركب الهدى وموكب النور فنسألهم هل كان يعنيهم أن يتكلفوا لهذا الواقع الإيماني الحي تعريفاً يحده في كلمات مبتذلة تلاك بالألسن وهم يعايشونه واقعاً حياً؟

هل ارتضوا أن تكون معرفتهم للغتهم الحية النابضة والتي تفاخروا فيما بينهم بفنونها من شعر وخطابة وبيان سبباً لجعلها القول الفصل في تحديد مفاهيم الدين والإيمان والشرع؟ حتى إذا ما سألهم نبيهم ومعلمهم – وهم أهل اللغة – هل تدرون ما الإيمان؟ فلم يسارعوا إلى القول مثلاً بأنه قد تواضع أهلونا على أن الإيمان هو التصديق بالقلب، أو اعتقاد صدق المخبر أو نحو ذلك – كما قال المتهوكون – ولكنهم رضوا لأنفسهم بمقام المتعلم للشرع لا للغة، فكان جوابهم إيماني بالدرجة الأولى قالوا: الله ورسوله أعلم، فأوكلوا الأمر إلى صاحب الشرع تحسباً لأن يكون المراد على خلاف ما تواضعوا عليه.

هذا عن شأن الصحب الكرام وصنيعهم رضوان الله عليهم.

الإيمان عند تابعيهم:-

لم يختلف نهجهم كثيراً عن نهج سلفهم فقد اتبعوهم بإحسان كما زكاهم ربهم، فعرفوا الإيمان عبادة وتقرباً وجهاداً ولم يعرفوه قولاً وإقراراً وجدلاً، إلا ما كان من أمر هذا النفر القليل الهزيل من المرجئة القدماء الذين ادعوا أن الأعمال ليست من الإيمان وفوجئ التابعون باشتغال الناس بهذه المسائل التي لم تكن في حسبانهم، وهو ما يفهم من كلام الزهري حين قال أو قد أخذ الناس بهذه الخصومات؟ وكأنه يراها علامة ومؤشراً للانحراف الحاد الذي سيصير إليه أمر الناس في دينهم ومعتقدهم.

ولكنهم كشأن سلفهم لم يخوضوا في جدليات عقيمة ولا تعريفات لغوية محضة، وإنما فزعوا إلى نصوص الوحي يذبون بها عن دين الله ذاك العواء والنباح، فرد الزهري على المتنطعين بحديث رسول الله ﷺ " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..." فقد رأى أن المعاصي تسلب الإيمان.

ولما أخبر عطاء بن أبي رباح عن مقالتهم بأن الصلاة والزكاة ليست من الدين، قال: أوليس يقول الله (**وَمَآ أُمِرُوَاْ إِلاّ لِيَعْبُدُواْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيّمَةِ**) قال فالصلاة والزكاة من الدين.

ولما قيل له إنهم يقولون ليس في الإيمان زيادة، قال: أوليس الله قد قال:" فزادهم إيماناً " فما هذا الإيمان الذي زادهم؟ وهكذا...

الإيمان عند علماء السنة والحديث:-

وصار على هذا النهج القويم علماء السنة من تابعي التابعين وغيرهم يدفعون مقالة البغاة بنصوص الوحي الشريف، حتى ظهرت مقالات المتكلمين والمناطقة الذين شغلوا الناس بالبحث في ماهية الإيمان وحده المنطقي مما حدا بعلماء الحديث إلى مجاراتهم في هذا النسق فتواطأت

أقوالهم على تعريف للإيمان بأنه " قول وعمل ونية، يزيد وينقص " [1] وما كان أغناهم عن هذا ولكنهم أرادوا أن يدللوا على فساد قول المرجئة على اختلاف مذاهبهم ويخالفونهم في معتقدهم، فكانوا يقصدون من هذه القولة الجامعة أن الإيمان مركب من هذه الثلاث، قول وعمل ونية، فلا يجزي واحد منها إلا بالآخر، وهذا ما حكاه بن تيمية في كتاب الإيمان عن الشافعي بقوله " وقد ذكرنا عن الشافعي ما ذكره من الإجماع على ذلك بقوله:" وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية ولا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر " بمعنى إذا ما انتقص واحد منهم فلا إيمان.

ولذلك فقد ذهبوا إلى وصم مقالة المرجئة بالكفر الصراح وهذا ما رواه الخلال عن عبد الله بن حنبل عن اسحاق بن حنبل قال: قال الحميدي: " وأخبرت أن أقواماً يقولون أن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج، ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت فهو مؤمن إلا أن يكون جاحداً، فقلت هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين"

---

[1] - ذكر الإمام أحمد في كتاب الإيمان جماعة من أهل العلم ذهبوا إلى هذا القول وذموا الإرجاء، وأضاف ابنه عبد الله في كتاب السنة غيرهم نذكر منهم " مجاهد، سعيد بن جبير، الحسن البصري، أبو وائل، إبراهيم النخعي، علقمة، عطاء بن أبي رباح، قتادة، ابن أبي مليكة، هشام بن عروة، عمر بن عبد العزيز، سفيان الثوري، سفيان بن عيينة، وكيع، الفضيل بن عياض، مالك، الشافعي، حماد بن زيد، حماد بن سلمة، الأوزاعي، شريك، أبو بكر بن عياش، أبو البختري، ميسرة، أبو صالح، ضحاك المشرقي، بكير الطائي، يحي بن سعيد، عبد العزيز بن أبي سلمة، منصور بن المعتمر، عمير بن حبيب، جرير بن عبد الحميد، عبد الملكبن جريج، يحي بن سليم، أبو اسحاق بن الغزاري، عبد الله بن المبارك، الخليل بن أحمد، ميمون بن مهران، خالد بن الحارث، محمد بن مسلم الطائفي، معمر بن راشد، القاسم بن مخيمرة، صدقة المروزي،محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، سعيد بن عبد العزيز، عبد الكريم الجزوي، وحصين بن عبد الرحمن ".
بالإضافة إلى خلق كثير لم يذكراه – الإمام وابنه - أمثال نافع، الأعمش، مسلمة بن كهيل، شهاب بن خراش، وابن معين، والحسن بن عبد الله، ومعقل بن عبيد الله الجزري، وميمون، وعبد الكريم، والحكم بن عتيبة إلى جانب اسحاق بن رهويه، والبخاري وأبي داود وغيرهم.

قال حنبل: قال أبو عبد الله (يعني الإمام أحمد): من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ﷺ ما جاء به.

وقال الإمام الآجري في كتاب أخلاق العلماء " فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان،فمن لم يصدق الإيمان بالعمل مثل الطهارة والصلاة والصيام والجهاد وما شابه ذلك ورضي لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل لم يكن مؤمناً، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيباً منه لإيمانه ، ثم قال: هذا مذهب علماء المسلمين قديماً وحديثاً فمن قال غير هذا مرجئ خبيث، احذره على دينك والدليل على هذا قول الله عز وجل " قال تعالى: (**وَمَآ أُمِرُوَاْ إِلاّ لِيَعْبُدُواْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزّكَاةَ ..**) الآية

وهذا ما قرره الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوي أن في سقوط أعمال الجوارح ذهاب الإيمان، فنقل عن أبي طالب المكي قوله: " لا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقد ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح، ومثله قول رسول الله ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات " أي لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن " إنما " تحقيق للشيء ونفي لما سواه فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلب من النيات فلا إيمان إلا بعمل، كما أنه لا عمل إلا بعقد، وفي سقوط العمل ذهاب الإيمان " انتهى

وفي موضع آخر ينقل عنه قوله" فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان فهو منافق، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد ".

هكذا قالوا قولتهم الصريحة في المرجئة الخبثاء الذين أسقطوا العمل، فقالوا: " إن سقوط العمل ذهاب للإيمان "، " لا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر"،" من قال هذا فقد كفر بالله "،" فهو كافر كفر لا يثبت معه توحيد"،" هذا هو الكفر الصراح"فما حيلة القوم لدرء التهمة عن أنفسهم؟

مرجئة الخَلف وبدو مقالتهم :-

من هنا أخذ فريق من علماء الخلف من شراح كتب الحديث وغيرهم على عاتقهم إيجاد مخرج يعفيهم من شناعة هذا التوصيف، وقد وجدوا أنفسهم حيرى بين فريقين من العلماء المنتسبين إلى السنة، سواء من ذكرنا سابقاً وهم علماء الحديث وفضلهم معروف والآخر مرجئة الفقهاء وما نسب لكثير منهم من العبادة والفقه والمكانة.

وقد رأوا أن العاب إنما لحق بالمرجئة الفقهاء لأنهم لم يدخلوا الأعمال في مسمى الإيمان وقد وردت نصوص كُثر تعدها من الإيمان مثل ما ذكرنا وغيرها، ولأنهم صادموا أيضاً النصوص بزيادة الإيمان ولم تعجبهم تهويماتهم في هذا الشأن، فأرادوا أن يجبروا هذا الخلل الفادح وأن يرتقوا ذاك الثوب البالي، إلا أنهم طاردتهم هواجس الوصم بالخروج والاعتزال إذا ما أدخلوا العمل في مسمى الإيمان كما إدعاه الكمالُ بن الهمام في مسايرته وغيره من المرجئة.

فتفتق ذهنهم عن حيلة خبيثة مؤداها أن يدخل العمل من باب كمال الإيمان وتمامه وليس أصلاً في مسماه كما قرر علماء السنة – راجع أقوالهم في الصفحة السابقة - بحيث يصبح ترك العمل وركوب المعاصي غير قادح في حقيقة الإيمان، فأصل الإيمان موجود في التصديق والقول، ولكن ينفي عن تارك العمل أو المصر على المعصية كمال الإيمان وتمامه وليس أصله وحقيقته، ولما كان العمل عندهم شرط كمال وليس شرط صحة للإيمان فيمكنهم القول أن الإيمان يكمل ويزيد أو ينقص من باب العمل لا من باب التصديق فأصله ثابت ويستدلون على ذلك بأقوال مرسلة ومماحكات مغلوطة.

فتعقيباً على نصوص نفي الإيمان مثل: " والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، الذي لا يأمن جاره بوائقه " ومثل " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، ومثل " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..." الحديث، قال قائلهم: " والقول الصحيح الذي قاله المحققون: أن

معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله، مثل " لا مال إلا الإبل "، " لا علم إلا ما نفع " أ.هـ

وهذه هي شبهة الأساس لديهم.

ورداً على هذا العبث والتدليس في الاستدلال أقول: إن ما أوردوه من أقوال إنما جاء بصيغة الحصر وهو ما لم يرد في نصوص نفي الإيمان ولذلك دلالته؛ ففي القول" لا مال إلا الإبل" فالنفي هنا على سبيل الحصر لأمر معلوم خلافه ضرورة، وهذا قرينة على عدم إرادة حقيقة النفي ولكن لإبراز أهمية الأمر المثبت وعظمه، فأطردوا ذلك في كل نفي حتى ولو كان المنفي حقيقة شرعية وبدون وجود قرينة تدل على عدم إرادة حقيقة النفي كما في المثال السابق أو دالة على نقلها من معناها إلا آخر مجازي.

وفي مثال " لا علم إلا ما نفع " لا ينفي وجود علم آخر بقرينة الواقع، ولكن لا ينصرف النفي إلى نفي الكمال مطلقاً، كما في قوله ﷺ " لا صلاة بغير طهور "، فهو ﷺ لا ينفي كمالها فقط ولكن ينفي صحة وقبول الصلاة، فلا يقال لا صلاة كاملة بغير طهور، وإنما يقال لا صلاة تصح بغير طهور، كذا لا يقال لا علم كامل إلا ما نفع، وإنما يقال لا علم يصح ولا علم حقيقي إلا ما نفع، ولذلك يستعيذ النبي ﷺ من علم لا ينفع فهو صلوات الله عليه لا يستعيذ إلا من شر أو فساد.

فالنفي هنا نفي للصحة والحقيقة الشرعية وليس نفياً للكمال الذي طنطنوا به، وروجوا له وأطردوه في كل نفي للإيمان الشرعي ليدخلوا الشبهة على الناس كدأبهم وبسبب سوء فهمهم واستدلالهم.

وهكذا القوم يعمدون إلى أقوال موغلة في البعد عن المعنى الذي ينشدون ليردوا بها نصوص قاطعات. وهل هناك أقطع في الاستدلال على نفي الإيمان – لمن يعقل – من قسم الرسول ثلاثاً والله لا يؤمن؟ وإلا فعلام

القسم؟ إن كنتم ترون أن رسولكم قادر على البيان بألفاظه عن مراد الله ولا يحتاج إلى ترجمان كذوب.

نعود إلى قولهم " إن المنفي هو كمال الإيمان وليس أصله وحقيقته فهو متحقق بالتصديق والقول" فنقول ما قيمة ادخال العمل في مسمى الإيمان إذن؟ وهل ثمة فارق بين حقيقة قولهم وقول من سبقوهم اللهم إلا الشغب والتضليل حتى لا تكشف أباطيلهم، وذراً للرماد في العيون حتى لا ترى سوءاتهم.

ولذلك فقد ألزمهم المرجئة السابقون والصرحاء غير المحتالين حين قالوا: " لما كنتم لا تنفون الإيمان عن صاحب الكبيرة لزمكم ألا تقولوا إن الإيمان حقيقة مركبة – من القول والتصديق والعمل -، لأن الحقيقة المركبة يلزم من زوال بعض أجزائها زوال الاسم".

إذن فقد كان الأمر مجرد تحايل ليهربوا من الوصم بالإرجاء، ويزجوا بأنفسهم زوراً وبهتاناً في زمرة أهل السنة الذين كانوا واضحين حين قالوا " ولا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر"، وحين قالوا " إن ترك العمل تكذيباً للإيمان ومن قال غير ذلك فهو مرجئ خبيث "

وهل هناك أخبث ممن أدخل العمل في مسمى الإيمان لفظاً ونفاه حقيقة فجعله شرط كمال وليس شرط صحة؟

وبهذا انطلقت أخبث المقالات في تاريخ الإرجاء، والتي لم تخطر ببال مردة الشياطين فضلاً عن شياطين الإنس من أعداء الدين الواضحين.

بل مكر الليل والنهار أرادوا به إضفاء مسحة من الحسن على وجه الإرجاء القبيح وهالة من الستر على ذلك السفور الفاضح وقدر من التعمية على هذا الفجور الماجن فانطلت على كثير من العلماء- فضلاً عن العامة- مما أوقع بعضهم في الاضطراب، فتراه تارة يأخذ بأقوال التابعين وعلماء السنة وتارة يتبنى هذه المقالة الخبيثة – أليست الفتنة

التي تموج موج البحر؟ فهل لها من نهاية؟ - أليس قد قال قائل التابعين – لفتنتهم عندي على هذه الأمة أشد من فتنة الأزارقة".

وأصبح لزاماً على هؤلاء أن يديروا معركتهم صوب النصوص المخالفة فيعملوا فيها التأويل والإبطال بدعاوي شتى، فشرعوا يتصيدون التأويلات من كل حدب وصوب ويحشدونها في كتبهم ليصرفوا بها النصوص الواضحات الدلالة عن ظواهرها.

تلكم النصوص القاضية بسلب الإيمان وإثبات الكفر وإلحاق الوعيد بتاركي العمل وصاحبي الكبائر الرافضين للتوب والمصرين على الذنب والمستخفين بعذاب الرب حين يقول " **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)** "، والمعرضين عن هدى نبيهم حين يسلبهم الإيمان إذا زنوا أو سرقوا – ثم يطمئنهم بأن التوبة معروضة بعد وبأن الإيمان قد رفع عنهم كالظلة فإن تابوا عاد إليهم إيمانهم وإلا فلا، كما صرح بذلك حديث نبيهم فيأبوا إلا الإصرار فهؤلاء فحسب هم المستحقون للوعيد دونما حاجه إلى تأويل النصوص ولي عنقها ولكنها الفتنة.

وإليك طرفاً من تأويلاتهم لتلك النصوص:-

حيث يتبين من خلالها إفتراءاتهم وكذبهم وجرأتهم على نصوص الوحي ولي عنقها، وضربهم الحائط بكل قواعد الفهم ودلالات النص.. فضلاً عن عدم الأمانة في النقل عن العلماء بل عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وسنكتفي بتأويلاتهم في موضوع الإيمان، ونعرض عن غيره إلى حين.

حيث قالوا في النصوص التي ينفى فيها الإيمان بسبب العمل أن المنفي هو تمام الإيمان وكمال الإيمان، إذ أن أصله متحقق لمن كان على هذه الصفة إن كانت من الذنوب، أو متحقق لمن يكن بهذه الصفة إن كانت من العمل الصالح.

☜ومن أبرز من أسرف في هذه التأويلات وذهب هذا المذهب هو الإمام النووي خاصة في شرحه على صحيح الإمام مسلم، وسنكتفي بمناقشة هذه التأويلات لبيان شططها وفساد أدلتهم عليها وليس الرد عليها فهو مبسوط في مواضع أخرى.

ففي تعقيبه على حديث: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " قال النووي: قال العلماء: " معناه لا يؤمن الإيمان الكامل، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة "، واستنكف هو وعلماؤه أن يحب المؤمن عموم الخير لأخيه وليس التساوي المطلق فيه على ما فهموه، وأولوا بسببه هذا النص كدأبهم إذا لم يفهموا إستسهلوا التأويل وصرف النص عن معناه.

فنفى حب عموم الخير هو ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم حين أراد صرف أبي ذر عن طلب الإمارة بقوله ﷺ وهو إمام المسلمين: " يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي..." الحديث، فلم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم مطلق التساوي بينهما وإلا لأحب له الإمامة مثله والنبوة مثله والمكانة العالية في الجنة مثله وغيرها مما اختص به مقام النبوة وغيرها، ولكن عموم حب الخير مثل الهدى والرشاد وعدم التعرض لما يشقيه كما يحب لنفسه، فهل عقل القوم أن سوء فهمهم هو الذي أوردهم إلى هذا المورد الكدر؟

*ونستكمل تأويلاته على نصوص الإيمان..

وعلى حديث " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "

فقال أما قوله ﷺ وذلك أضعف الإيمان معناه والله وأعلم قلة ثمرته، أنظر إلى قول الرسول أضعف الإيمان بمعنى ليس وراء ذلك ثمة إيمان ودل على هذا رواية صريحة للرسول يقول" وليس وراء ذلك من الإيمان حبة

خردل " والتي تدل على انعدام الإيمان بعد ذلك وانتفاءه لمن لم ينكر المنكر بقلبه فضلاً عمن يواقعه.

وفي حديث " والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا " قال معنى لا تؤمنوا حتى تحابوا، لا يكتمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب .

نقول على قولكم أن الإيمان يزيد وأن إيمان الناس بمن فيهم صحابة رسول الله لا يتساوي مع إيمان الرسل والملائكة فلم يكتمل كما اكتمل لمن ذكرنا. فهل الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى القسم على أمر مقطوع به ومفروغ منه؟ ألم يؤت الحكمة؟ فهل هذا من الحكمة وجوامع الكلم؟ ثم إنهم – وهذا هو الأدهى – قد فرقوا بين كلمة تؤمنوا الأولى وكلمة تؤمنوا الثانية في المعنى مع أن السياق واحد والقائل واحد والشرع واحد. وإنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسر بالثانية معنى الإيمان الموجب لدخول الجنة، كمن قال لابنه لن أكافئك حتى تنجح ولن تنجح حتى تذاكر، فهل اختلف النجاح في الحالتين؟ نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين.

فقد جعل النووي كلمة إيمان الأولى أن نفيها يعني انتفاء أصل الإيمان والثانية يعني انتفاء تمام الإيمان، فقال" أما قوله لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا فهو على ظاهره وإطلاقه، فلا يدخل الجنة إلا من مات مؤمناً، وأما قوله لا تؤمنوا حتى تحابوا فمعناه لا يكمل إيمانكم"انتهى

ما لكم كيف تحكمون؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم فيه لما تخيرون؟

أما قاصمة الظهر فكانت في وقفته الطويلة مع هذا الحديث ...

قال رسول الله ﷺ : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ... والتوبة معروضة بعد ".

وقد عنون النووي لهذا الحديث بقوله " باب نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله " ثم قال: " هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، وكثيراً ما يكثر من هذا القول فيقول هذا الحديث مما أعده العلماء مشكلاً أو اختلفوا فيه، أو فيه خمسة أقوال...الخ وكأنه يريد منا أن نسلم باختلافاتهم وكأنه أمر مقدر محتوم.

ألم يعهد إلى النبي ﷺ ببيان الذكر (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ...**)الآية

ألم يؤمر صلاوات الله عليه ببيان ما اختلف فيه ويزيل عن أمته كل إشكال بقوله تعالى: (**وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ...**) ؟

بل ألم يبعث الرسل وتنزل الكتب إلا لرفع الخلاف وإزالة الإشكال ليتحقق هدى الله للناس.

(**كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النّبِيّينَ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْفِيهِ**) ولكن (**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاّ الّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**) ومن ثم (**فَهَدَى اللّهُ الّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ**) .

فالحمد لله أن يسر لنا سبيل الهدى والرشاد، وزين الشيطان لغيرنا سبيل الغي والعناد.

ثم قال: وإنما تأولناه على ما ذكرنا لحديث أبي ذر وغيره " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق.. " الحديث.

ويستطرد قائلاً: ثم إن هذا التأويل سائغ في اللغة، وإذا ورد حديثان مختلفان في الظاهر.. وجب الجمع بينهما، وقد ورد هذا فوجب الجمع.

هكذا يرى الحديثان مختلفان في الظاهر ومتعارضان، فوجب تعطيل أحدهما وهذا هو معنى الجمع عنده.

مع إننا لا نرى ثمة تعارض، ونرى أن الحديثين يعملان معاً على ظاهرهما إذا فطنا إلى الشروط المنصوص عليها واتقينا الله في صحة النقل عن رسول الله.

وهذا شأننا مع كل نصوص الشريعة لا نرى تعارضاً واختلافاً لأننا نؤمن أن كلها من عند الله.

مصداقاً لقوله تعالى (**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)** **[النساء : 82]**

وإنما الخلاف المتوهم من عند أنفسهم إذ لم يفهموا - ولم يتقوا – ولم يعملوا الشروط المنصوص عليها.

فالحديث الذي ورد من طريق أبي ذر ليس فيه " من قال لا إله إلا الله دخل الجنة " وإنما قال ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة... " فاشترط الحديث الموت على ذلك وهو شرط له دلالاته بأن ذنوبه سابقة على موته على الشهادة، وهكذا يفتري الكذب على رسول الله بالانتقاص من النص ليسلم له مذهبه، وهذا دأبه فقد فعلها في حديث عبادة بن الصامت حين لم يذكر من بنود البيعة ترك الشرك واكتفى بباقي الذنوب ليقرر قاعدته.

ثم إن قول النبي ﷺ " وإن زنى وإن سرق ... "لا يثبت الإصرار ولا ينفي التوبة وقد نص عليها النبي في الحديث الأول بقوله " والتوبة معروضة بعد " فهي التي تعيد إليه الإيمان في الحقيقة.

ثم يقول: مع إجماع أهل الحق على ... " ولنا هنا وقفة فهو أكثر من يدعى الإجماع- ترهيباً للمخالف- فكيف يضبطه؟ وقد قال الإمام أحمد: " من ادعى الإجماع فقد كذب فما يدريه لعلهم اختلفوا " ثم إنه إذا ما وجد

مخالفاً للإجماع، قال: وهذا ما عليه إجماع الأمة إلا من لا يعتد بخلافه، حتى لو كان المخالف في قامة ومقام ابن عمر والحسن البصري والبخاري.

ثم ندعه يكمل: " مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان..." ونحن لا نقول بغير ذلك ولكن بشرط التوبة كما أخبر المولى سبحانه(**إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا**) وهم بعد ليسوا زناة ولا قتلة وإنما مؤمنون تائبون طائعون مغفور لهم بإذن الله إلا ما علق بهم من آثار الذنوب على خلاف ما يقرره هو حين يستكمل قائلاً: " فإن تابوا سقطت عقوبتهم " وهذا إفك مفترى لا سبيل لإثباته- إنما التوبة تعيد إليه إيمانه الذي انخلع عنه بنص الحديث ولكن لا تسقط عنه عقوبته إلا أن يتغمده الله برحمته وعفوه، ولكن الله الذي يحاسب على مثقال الذرة أوجب تكفيرات للذنوب بعد التوبة، منها العمل الصالح والإبتلاءات حتى الشوكة يشاكها ثم عذاب القبر ثم الصراط ثم ولوج النار إلى حين على قدر ذنوبه والنصوص الدالة على ذلك فوق الحصر، منها في عجالة الذي جاء النبي تائباً من ذنبه يسأل التطهير فأرشده النبي إلى قوله تعالى (**وَأَقِمِ الصّلاَةَ طَرَفَيِ النّهَارِ وَزُلَفاً مّنَ اللّيْلِ إِنّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السّيّئَاتِ**...)، وحديث العمرة إلى العمرة ..كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، سواء كان الاجتناب بترك الفعل أو التوبة منه.. إلى آخر النصوص.

ثم يستكمل " وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عفا عنهم وأدخلهم الجنة، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة " هكذا يعتقد مع أن الثابت من النصوص أن الذي في المشيئة ومن كان أمره إلى الله هو التائب وليس المصر، حيث يقول الله عن تارك الربا والمنتهي عنه " **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** " أما المصر فيقول عنه " **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**

" فجعل سبحانه من في المشيئة هو المنتهي التائب وجعل الخلود للمصر المعاند.

وجملة ما قرره في تعليقه على هذا الحديث وغيره هو الذي اعتمده مذهباً ونسبه إلى أهل الحق أو أهل السنة كما يزعم بقوله في صفحة 122 من شرحه على صحيح مسلم: " إن مذهب أهل الحق أنه من مات على التوحيد مصراً على الكبائر فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولاً وإن شاء عاقبه ثم أدخله الجنة " أ.هـ

ثم قال تعقيباً على هذا المذهب في موضع آخر " هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة، واجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة، فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع ".

وهكذا وضع قاعدة السوء التي أُولت بمقتضاها مئات بل آلاف النصوص ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونقول: أين تظاهرت أدلة الكتاب والسنة على أن المصر على معصية الرب تبارك وتعالى يكون موحداً ويدخل الجنة لا محالة؟ فإن كان يقصد كلمة التوحيد فما هي بكل شروطها إلا شرطاً واحداً لدخول الجنة يضاف إيها سائر الشروط كالتي في الحديث" دخل الجنة إن صدق " على الصدق في أداء الفرائض – وهو ما سنثبته تفصيلاً وهو ما عبر عنه الحسن البصري حين نقض هذا الإجماع بقوله: من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها، كما أن الإمام الشوكاني في كتابه نيل الأوطار قد ساق إجماعاً على أن المقصود من قالها وأدى الفرائض واجتنب المحرمات.

فإلى أي إجماع تذهبون؟ ولم يعتد بإجماعكم المدعى كل من ابن عمر والحسن البصري والبخاري وغيرهم، أم أنهم ليسوا من أهل الإجماع؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين.

ثم إنه في رده على هذا الحديث ساق بعض التأويلات ونسبها إلى بعض العلماء فقال: " وحُكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه ينزع عنه نور الإيمان، وقال: وفيه حديث مرفوع هكذا ينسب لابن عباس رأيا بصيغة التمريض وهو أول من يعرف أنها صيغة لا يثبت بها الخبر، لله درك يابن عباس كم من الأكاذيب والافتراءات ألصقت بك بسبب دعوة رسولك الكريم ثم بلغت به الجرأة أن يدعي في ذلك حديثاً مرفوعاً وهذا كذب صراح على رسول الله – ولا يبالي – ولم يذكر لهذا الحديث متناً أو سنداً ولا صحة ولا ضعفاً ولو كان لذكره لأن فيه الغنى عن كل هذه الضلالات.

قال في نهاية الأمر: كل هذه الأدلة – انظر كيف يسميها أدلة - تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه" انتهى

وكل ما فعلناه هنا أن تعقبنا هذه الأدلة المزعومة بالمناقشة فقط لنبين فسادها ولم نكلف أنفسنا عناء الرد عليها وهو ما لا يتسع له المقام.

ويتأكد لنا أكثر سلوكه الشائن في الكذب والافتراء إذا ذكرنا طرفاً من تدليسه على العلماء حين ينقل عنهم خلافاً لما ذكروه في كتبهم بما يتفق مع مذهبه ومعتقده وهاك مثال...

فقد ذكر البغوي في شرح السنة ناقلاً عن الخطابي قوله" قد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن، ولا يكون صادق الباطن غير منقاد في الظاهر" تعقيباً على قول منسوب لابن مسعود يرى فيه الناس على ثلاثة أصناف" مؤمن السرية مؤمن العلانية، كافر السريرة كافر العلانية، مؤمن العلانية كافر السريرة " ولا رابع أي لا وجود لمؤمن السريرة كافر العلانية كما تزعم المرجئة فينقل النووي في شرح مسلم(145/1) . هكذا

" قد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر" ولو تعقبنا سائر تأويلاته وحيله في صرف النصوص عن معانيها لاحتجنا إلى أسفار وأسفار.

ومما يكشف عن عقيدة الإرجاء لدى النووي ما قرره بنفسه في كتابه المجموع ج1-24 بقوله " وأما أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به الرسول ﷺ" ثم قال " والصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء الاقتصار على ما ذكرناه من التصديق الجازم" وأضاف " وهذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم فإن النبي ﷺ لم يطالب أحداً بشيء سوى ما ذكرناه، وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم "

هكذا كدأبه لتعضيد معتقده يحشد له السلف والفقهاء والمحققون بل والنبي والصحابة ومن سواهم.

ولم لا تكون هذه هي عقيدة النووي وقد اعتمد جل اعتماده في شرحه لصحيح مسلم على النقل من كلام القاضي عياض وشيخه أبي عبد الله المازري وكلاهما أشعري العقيدة فكان يقرر ما ينقله عنهما ويستحسنه.

فهل يُؤمل أو يُرتجى ممن هذا شأنه أن ينقل عنه أو يُتلقى منه ديناً ومعتقداً وإنما حسبه أن يشتغل بالزهد والرقائق فلا تضر معها حيله وأكاذيبه.

وممن نحى هذا النحو أيضاً من شراح كتب الحديث ابن حجر العسقلاني حين قال في الفتح (61/1): " الإيمان قول وفعل يزيد وينقص، والمعتزلة قالوا العمل والنطق والاعتقاد، والفارق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا الأعمال شرط في صحته، والسلف جعلوها شرط في كماله" أ.هـ

وفي شرحه على الأربعين النووية رجح ابن حجر ما ذهب إليه الأشاعرة وبعض محققي الحنفية من أن الإقرار باللسان إنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنوية فقط، أما يوم القيامة فيكفيه اليقين القلبي[١].

وأخيراً نؤكد على أنه ليس كل من تصدى لشرح سنة النبي ﷺ نعده من أهل السنة حتى لو شاع عنه ذلك فالمعول عليه في التصنيف هو المعتقد فقد يدس لنا السم في العسل بسب سوء معتقده.

الفصل الخامس

ملاحظات كاشفة لأوجه الضلال عند المرجئة

قبل أن نطوي تلكم الصفحات البغيضات، نعَّرج قليلاً على بعض الملاحظات الغير عارضة والتي نطقت بها تلك السطور المحبرة بالسواد، نجلي بها الحقيقة ونكشف عن هذا الركام من الزيف والضلال ... أعاذنا الله منه.

1- أول تلك الملاحظات :- إن اختيار الموضوع الذي اختلف بشأنه هؤلاء الفرقاء وهو مفهوم الإيمان ومقصوده وهل هو الإقرار لله بالعبودية بأشكاله المختلفة أم تحقيق العبودية لله بعمل الطاعات واجتناب المعاصي والذي يمثل صلب وحقيقة ومغزى الدين، ليضع أعظم علامة استفهام وتعجب في تاريخ اللغة والشرع .

فلم يكن الإقرار لله بالربوبية وتوحيده سبحانه وهو الأمر المستيقن لدى بني آدم أجمعين وهم في صلب أبيهم وقبل بعثة الرسل، وأُخذ عليهم العهد والميثاق ولا حجة لهم بتجاهله وإدعاء الغفلة عنه، لم يكن هو الغاية من الخلق، فما خلقنا إلا لتحقيق العبودية لله بقوله تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ)** ولم يكن هو المقصود من بعثة الرسل لقوله تعالى: **(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الْطّاغُوتَ ...)**

1- من كتاب كبرى اليقينيات ص195 محمد سعيد رمضان البوطي.

وعبادة الله إنما تكون بطاعته وطاعة رسله واتباع شرائعهم لقوله تعالى : **(وَمَآ أُمِرُوَاْ إِلاّ لِيَعْبُدُواْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيّمَةِ).**

وعبادة الطاغوت تتمثل في طاعة غير الله، شيطانٍ كان أو هوىً أو غيره لقوله تعالى:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِيَ آدَمَ أَن لاّ تَعْبُدُواْ الشّيطَانَ إِنّهُ لَكُمْ عَدُوّ مّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَـَذَا صِرَاطٌ مّسْتَقِيمٌ) وقال تعالى **" أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه "** ولا يكون ذلك إلا بطاعة هواه أو شيطانه، قال تعالى عن الشيطان" **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُون** " في حين يقول " **إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء** " أي أن عبادة الله بطاعته فيما يأمر **(بعمل الطاعات)**، وعبادة الطاغوت بطاعته فيما يأمر (**بعمل السيئات).**

أقول إن اختيار الموضوع الذي مؤداه صرف الناس عن حقيقة غايتهم – العبودية لله – وتحويلها إلى مجرد إقرار وقد يضاف إليه عمل يمكن الاستغناء عنه، بما يعني تفريغ الدين من مضمونه ومحتواه، وشغل الناس عنه بجدليات وسفسطة فارغة ليدل بما لا يدع مجالاً للشك على المنحى التآمري عند بعض أصحاب هذا المذهب على هذه الأمة ودينها وتابعهم البعض الآخر بغير بصيرة.

وقد شارك في تحقيق هذا الغرض اللئيم فريقان:

الفريق الأول : هم المتآمرون أنفسهم والمتربصون من أهل الأديان الأخرى الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر متحينين الفرصة المناسبة للإنقضاض عليه وباسمه وباسم الزود عنه ومحاربة المشككين فيه، ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودي، وعبد الله بن المقفع الفارسي وغيرهم.

الفريق الآخر : وهم المقلدون والمتابعون بلا بصيرة والذين التقطوا الطعم، وزكى ذلك عند بعضهم ولعهم بالترف الفكري والانتصار في الجدال والسعي إلى المكانة والحظوة بين الناس.

ولقد تنوعت حيل الفريق الأول فمنهم من سلك سبيل التآمر لإحداث الفتنة وشق الصف، وظهر ذلك في الدور الذي قام به ذلك السبئي اللعين وغيره في تأليب المصريين على عثمان رضي الله عنه والانكار عليه ثم عاودوا الكرة مرة أخرى بكتابة الرسائل إلى أهل الكوفة وأهل البصرة، وتزوير الرسائل على لسان الصحابة الذين بالمدينة يدعون فيها الناس لقتال عثمان، وتم لهم ما أرادوا بحصاره رضي الله عنه وقتله، ثم في واقعة الجمل لما أوشك الفريقان على الصلح، بيتوا أمرهم ومكرهم لمنعه ووقع القتال. وهكذا لم يدخروا جهداً لإزكاء نار الفتنة بين المسلمين.

ومنهم من سلك طريقاً آخر هو الأدهى والأنكى والأعظم خطراً، عندما فطنوا إلى مصدر قوة وعزة ووحدة المسلمين وهو تمسكهم بمصدر الوحي الإلهي وترك ما عداه، فجعلوا هدفهم هو صرف الناس عنه، وساعدهم على ذلك تهافت بعض المنتسبين إلى الإسلام من أهل العلم على بضاعتهم المزجاة، فسارعوا في نقلها وترجمتها وخاصة ضلالات الفلاسفة والملاحدة والزنادقة والإباحيين.

وهكذا أحكمت الخطة وتلقفها المغرورون ، والمقهورون، مبتوتوا الصلة عن قومهم وتراثهم، فتخلوا عن مصدر عزتهم وكرامتهم واستبدلوه بتلك الضلالات والتخرصات.

2- ثاني تلك الملاحظات**:-** نقترب أكثر من الواقع العملي ومردود فصل العمل عن حقيقة الإيمان فنقول: ما معنى أن يفصل العمل عن حقيقة الإيمان؟ ما قيمة العمل إذن وما جدواه؟ فالجنة مضمونة بدونه والنجاة من النار مكفول بمجرد التصديق مع القول أو بدونه، ولا حرج إذن من المعاصي والتعدي على حدود الله، وانتهاك حرماته، ألسنا مؤمنين بل كاملي الإيمان مع كل ذلك؟

أليست هذه دعوى صريحة لإشاعة الفحش والرذائل والتخلي عن الفضائل ومكارم الأخلاق وما شيوع المجون والزندقة إبان انتشار هذه المقالات إلا الدليل الأبرز على هذا المقصد خاصة مع توافر البيئة الخصبة لذلك من غياب الوازع ورقة الدين وتوافر أسباب الدعة ورغد العيش ومظاهر الترف واللهو الحرام من عزف ورقص وخمر خاصة في قصور الأمراء، وعلية القوم والمتقربين منهم والمتزلفين إليهم من شعراء وفقهاء وخاصة إذا كان أهل الفتوى والقضاء هم أنفسهم أصحاب ذلك المعتقد الميسر للرذيلة والمتسامح مع انتهاك الحرمات فهل هذا هو مراد الله من عباده؟ ولما كان التمحيص والابتلاء للمؤمنين ليعلم إيمانهم؟ وكيف كان سيعلم صدقهم وثباتهم واجتيازهم الابتلاء إن كانوا بإقرارهم قد أدوا ما عليهم؟

3- ثالث الملاحظات :- مع أن مصطلح أهل السنة كما قدمنا لم يطلق أصلاً إلا على نفر من العلماء التابعين وغيرهم لا على مذهب جامع لهم ولكن لتصديهم بالسنة لأهل البدع على اختلاف مقالاتهم وكذا لأصحاب الرأي الذين اعتمدوا على النظر والقياس في استدلالاتهم، فإن المرء ليعجب من تهافت هؤلاء الفرقاء مع تباين مذاهبهم للانتساب لهذا المذهب المدعي بعد أن زيلوه بكلمة الجماعة مع أنه لم يعرف كمذهب له أصوله ومنتحلوه إلا على يد الأشعري كما سبق أن قدمنا ثم إدعاه متأخروا الحنفية ومرجئة الخلف.

فكيف يتسع مذهب واحد مدعي لكل هذا الشتات والتفرق في الرأي إلا لأنه يمثل طوق النجاة، ولافتة جامعة تقنع الآخرين بأحقيتهم في الاتباع دون غيرهم وبأنهم وحدهم هم الفرقة الناجية، مع أنهم أجدر بالتسمية بأعداء السنة إما لأنهم لم يعتمدوا السنة أصلاً أو لأنهم أولوا نصوصها وصرفوها عن معانيها كما سبق أن ذكرنا، فهل يسمى الشيء بضد معانيه؟ كما سمي إبليس نفسه بأنه من الناصحين مع أن الله سماه عدو مبين أليس هذا علامة أخرى على الضلال؟

والآن نستطيع أن نقول لمن يدعي الانتساب إلى أهل السنة، مَنْ الذين تقصدونهم بهذا المصطلح؟

وطبعاً ستحدد إجابته تبعاً للمعتقد الذي تبناه، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

4- رابع الملاحظات **:-** إن الناظر إلى هؤلاء الفرقاء يتبين له ملمحاً واضحاً من ملامح الزيغ والضلال يتمثل ذلك في اتباع الهوى والرغبة في الانتصار للرأي مع تبين فساده ويظهر ذلك في الانتقائية الواضحة في اختيار النصوص وإجتزاء بعضها والذي يتفق مع معتقدهم وإن كانت معانيها مرجوحة أو مخصوصة بحالة معينة أو مجرد استثناء ثم يطردونها دون مراعاة لقواعد اللغة مع أن غيرها واضح أو قطعي الدلالة في غير ما اعتقدوا أو قواعد عامة مطردة مما اضطرهم إلى تأويل تلك النصوص الواضحة الدلالة وصرفها عن معانيها ليسلم لهم معتقدهم، ولو أنهم أنصفوا لجمعوا النصوص في المسألة الواحدة. فما أُجمل أو تشابه عليهم في نص بُين في نصوص أُخر ولذا كانت الحكمة من ورود الشرع منجماً، فلا يوجد نص واحد قد أتي على المسألة بكاملها مبيناً أحكامها وسبب الحكم وشروط تطبيقه والموانع التي تمنع من ذلك وهكذا..

كما أن الدافع الرئيسي الذي حدا بهؤلاء المرجئة على اختلاف مذاهبهم إلى فصل العمل عن مسمى الإيمان إلى جانب اعتمادهم على المنطق في

تحديد مفهوم الإيمان هو ذلك الهاجس المتمثل في الخوف من وصمهم بالخوارج تلك الفرقة الشاذة التي وصفها الرسول ﷺ بالمروق من الدين، وتوعدها بأشد الوعيد فبان عوارها واشتد النفور من ركوب طريقها وتبني مقالاتها، ولذلك أحسن بعض هؤلاء المرجئة استغلالها كفزاعة لكل من يجرؤ على إدخال العمل في مسمى الإيمان، كما فعل الكمال بن الهمام في المسايرة عندما قسم أقوال الناس في مسمى الإيمان إلى ثلاثة، ثم نسب إلى فريق منهم هذا القول:" إن ماهية الإيمان – عندهم – مركبة من ثلاثة أمور: إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فمن أخل بشيء منها فهو كافر" – وهو لازم مقالة علماء السنة – ولكن قال: " وهذا هو قول الخوارج، ولذا كفروا بالذنب لانتفاء الماهية ".

والأجدر – وكما هو الحال بالنسبة لعلماء السنة – ألا ترهبنا هذه الفزاعة ولا نهتم بتلك الهواجس، ولا تطاردنا في فهمنا لنصوص الوحي تلك المخاوف، لعلمنا أن ما وقع فيه الخوارج وغيرهم لم ينشأ عن خفاء أو التباس في دلالة ألفاظ النصوص أو المراد منها، وإنما مرده إلى سوء التطبيق في الواقع، والتعجل في إيقاع الأحكام على الأعيان دونما مراعاة للشروط والأسباب والموانع المتعلقة بتلك الأحكام.

ذلك مع علمنا ويقيننا أن مراد الله من كل لفظة بل من كل حرف هو ما دلت عليه معانيها في اللغة، أو ما استقر من نقل الشرع لها عن ذلك المعنى إلى آخر حقيقي هو مراد الشرع منها، وحتى الألفاظ المعبر بها عن معانٍ مجازية هي كذلك مراد الشرع منها مع وجود القرينة الدالة على عدم إرادة الحقيقة. وليس بدونها. حتى يؤمن اللبس، لا كما فعل المبطلون.

وبذلك تسلم لنا كل نصوص الشريعة فنعملها جميعاً كما هي وعلى ظواهرها، بعد اعتماد جمع النصوص في المسألة الواحدة، فما أشكل في نص استبان من غيره، وما كان ظاهره التعارض مع غيره ائتلف وتوافق بلا تعسف ودونما حاجة إلى تأويل أو تعطيل أو صرف للنصوص عن

ظاهرها وطرح بعضها بدعوى الجمع، فلله الحمد والمنة أن يسر لنا أن نضع أيدينا على موضع الخلل الذي لم يفطن إليه القوم من أن ما وقع فيه مارقة الخوارج ناشئ عن عدم استيفائهم لشروط تطبيق النص، لا لأن مراد الله من هذه الألفاظ غير ما تدل عليه معانيها، فكان ذلك منطلق القوم في إعمال التأويل والدعوى بعدم إرادة الحقيقة، كما فعلوا مع كل الأسماء والحقائق الشرعية.

فمثلاً نفي الإيمان يصبح عندهم نفي كماله وليس نفي حقيقته، والحكم بالكفر أو الشرك أو النفاق يصبح له معنى آخر لم تصرح به النصوص أبداً، أو يقصد به معنى مجازياً مع عدم ورود قرينة صارفة ولكن تحكماً، أو يقصد به معنى مخصوصاً كأن يكون كفراً عملياً أو كفر نعمة دونما مخصص، مع أن هذا – لو سلم – لم يخرجه عن كونه كفراً محضاً موجب لخلود صاحبه في النار كما دلت عليه نفس النصوص التي خصصوها وكان لزاماً عليهم أن يؤلوا الخلود في النار إلى مجرد طول مكث، وكذا الحرمان من الجنة ليصبح تأخر دخولها مع السابقين ثم دخولها لاحقاً، فكيف يكون هذا حرماناً؟ حتى لو قال النص أنهم لن يجدوا ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة كذا، فيرون حتمية دخولها وإن رغمت الأُنف، وهكذا صرفت مئات بل آلاف النصوص عن معانيها الظاهرة الواضحة بل والقطعية الدلالة

وهذا التأويل والصرف كما سبق أن بينا هو أجلى آيات الزيغ والضلال .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد فقد طويت تلك الصفحة البائسة ومضت بأهلها الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والآن نشرع مستعينين بالله في فتح نافذة الأمل على صفحات مشرقة بنور الإيمان الحق الذي يدلف إلى القلوب المشتاقة فيدفئها وينعشها وينشر فيها حرارته ويبعث فيها الهمة والإرادة، وإلى اللسان المتعطش ليتذوق حلاوة الإيمان ويترطب دوماً بذكر الله حباً وكرامة، ويستحث سائر الجسد المتهيأ أصلاً للإذعان والانقياد لأوامر خالقه عن رغبة ورضا لا يشوبها شائبة تراخ أو فتور، والكل ممتثل قلب ولسان وجوارح لنداء الخالق جلَّ في علاه حين يقول" **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ " [الأنفال:24]**

وحين يقول: **(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...) [لقمان: 22]**

وإلا .. (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمّ لاَ يَجِدُواْ فِيَ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مّمّا قَضَيْتَ وَيُسَلّمُواْ تَسْلِيماً) [النساء: 65]

الـبـاب الـخـامـس

الـقـول الـفـصـل

(بـيـان حقـيـقـة الإيـمـان الـشـرعـيـة و الـرد عـلـى الـشـبـهـات)

ويشتمل على مقدمة وثلاثة فصول:-

- **مقدمة عن الأسماء الشرعية.**
- **الفصل الأول: مسمى الإيمان في الشريعة المطهرة.**
- **الفصل الثاني: تفاضل الإيمان (الزيادة والنقص).**
- **الفصل الثالث: الرد على الشبهات النصية.**

مقدمة عن الأسماء الشرعية

يقول الإمام الشوكاني في كتابه إرشاد الفحول ص 12 : " سمي الاسم[1] اسماً لأنه علامة على مسماه".

أقسام الاسم : الاسم إما يعبر عن مسماه حقيقةً[2] أو على سبيل المجاز[3].

فالحقيقي هو الاسم المستعمل في ما وضع له، ودلالته على مسماه تسبق إلى الفهم بغير قرينة مثل : السماء من السمو وهي حقيقة فيما علا الأرض، وكذا البدر حقيقة في الجرم السماوي.

والمجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ولكن على وجه يصح، أي لابد من مناسبة بينه وبين الوضع الأول، سواءً كانت هذه المناسبة مشابهة كما في الاستعارة ومثالها ما ورد في النشيد المدني (طلع البدر علينا) وفيه شبه الرسول ﷺ بالبدر وحذف المشبه وأتي بالمشبه به. أو سواء كانت المناسبة علاقة مطلقة (مرسلة) غير المشابهة، كما في المجاز المرسل ومثاله لفظة السماء في الآية " وأرسلنا السماء عليهم مدراراً " فلا يقصد بها معناها الحقيقي وإنما المطر والعلاقة السببية إذ أن السماء سبب المطر ومصدره، وأطلق السبب على المسبب ليفيد المبالغة.

والمجاز لابد له من قرينة، وهي الدليل على عدم إرادة المعنى الحقيقي، وهي إما مقامية أي مستمدة من ملابسات الموقف دون ألفاظه كما في النشيد السابق، فالمقام اقتضى عدم إرادة البدر الحقيقي، وإما قرينة مقالية أي ماثلة في العناصر اللغوية في سياق الكلام مثل كلمة مدراراً في الآية الكريمة، التي دلت على عدم إرادة السماء الحقيقية وإنما المطر.

1- الاسم: على رأي الكوفيين أصله (وَسْم) ومن الوسم وهو العلامة، فحذفت الواو وعوض عنها بالهمزة، يقال سميته زيداً جعلته اسماً له وعلماً عليه.
2- الحقيقة: فعيلة من حق الشيء إذا ثبت ووجب، وهي مأخوذة من الحق الثابت.
3- المجاز: مفعل من الجواز وهو التعدي، يقال جاوزت الشيء أي تعديته بما يفيد نقله وعدم ثباته. (المصباح المنير)

وينقسم الحقيقي إلى لغوي وعرفي:

فاللغوي ويسمى الوضعي أيضاً وهو الاسم المستعمل في موضوعه الأصلي ليدل على مسماه الأصلي ويسمى الحقيقة اللغوية أو الحقيقة الوضعية.

والعرفي هو ما جرى به عرف الاستعمال من أهل اللغة تخصيصاً أو شيوعاً، أي أن الاسم يصير عرفياً باعتبارين:-

الاعتبار الأول : أن يخصص عرف الاستعمال من أهل اللغة الاسم ببعض مسمياته الوضعية دون سائر المسميات، كتخصيص اسم الدابة بذوات الأربع مع أن أصل الوضع لكل ما يدب؛ وكذا القارورة لا تطلق على غير الزجاجة مما يوجد فيه معنى الاستقرار كالدن[١] .

وأصبح هذا الاستعمال سابقا إلى الفهم من غير قرينة وهذا هو عنوان الحقيقة.

الاعتبار الثاني: أن يصير الاسم شائعاً في غير ما وضع له أولاً، حيث صار أصل الوضع منسياً والآخر معروفاً سابقاً إلى الفهم من غير قرينة وهذا علامة الحقيقة؛ مثل تسمية الفضلة المستقذرة بالغائط وهو موضوع للمطمئن من الأرض، وكذا العذرة موضوعة لفناء الدار.

☜ وهذه هي الحقيقة العرفية ومنها ننطلق إلى الحقيقة الشرعية.

1- الدن: وعاء ضخم للخمر وغيره

الحقيقة الشرعية والأسماء الشرعية:-

مع تسليمنا بأن الواضع الأول للأسماء عموما هو الله سبحانه وتعالى بتعليم آدم الأسماء كلها ومن بينها – ضرورة - الأسماء الشرعية التي هي مناط تحقيق الغاية التي من أجلها خلق- أي العبادة - وهو أول الإنس الذي عناه الله بقوله **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ)**[الذاريات]

وهذه الأسماء منها ما أجري على أفعال العباد كالصلاة والزكاة والصيام... الخ.

وكذا أحوالهم من إيمان وكفر ونفاق ... الخ، ومنها ما أجري على الفاعلين كالمؤمن والكافر والمنافق... وسائر الأسماء الشرعية، وكلها بالضرورة من تعليم الله إياه.

بل إن آدم لما عصى وأراد أن يتوب تلقى من ربه كلمات فتاب عليه قال:**(رَبّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** [الأعراف: 23]

فسمى الله معصيته ظلما، ورتب له الخسران على عدم مغفرته له.

وحين أهبطه على الأرض أعلمه بأن الهدى والشرع الذي يجب أن يتبعه لينجو من الضلال والخسران إنما يأتي من عنده سبحانه، قال تعالى **:(فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلّ وَلاَ يَشْقَىَ)** [طه: 123]

بل إن اختلاف الألسن واللغات هي آية من الله يمن بها على عباده، قال تعالى:**" وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ "**.

إذن فكل هذه الأمور توقيفية من عند الله لا شأن للبشر فيها.

ومع تسليمنا بذلك فلو أن الشرع تصرف في الألفاظ بالنقل تارة أو بالتخصيص كما فعل أهل اللغة ليصبح الاسم دالا على المعنى الذي أراده الشرع ومتبادر إلى الفهم بغير قرينة فذلك هو معنى الحقيقة، ويسمى الحقيقة الشرعية.

إذ إن ما هو معلوم من الشرع أن الصلاة تطلق على أذكار وأركان مخصوصة ولم تقف عند معنى الدعاء وهو المعنى اللغوي، فلو طلب من مسلم أداء الصلاة فاكتفى بالدعاء فإنه لم يصل، وكذا سائر الأعمال من صوم وزكاة وحج...الخ، وكذلك الإيمان والكفر أراد بهما الشرع معنى آخر زائد على مطلق التصديق والستر، فلا يعول فيها على المعنى اللغوي، وإنما المعنى الذي أراده الشرع فلا يقال في الإيمان الشرعي مثلاً أنه حقيقة في التصديق فقد أراد به الشرع معانٍ مخصوصة سنتناولها بالبيان لاحقاً.

الخلاصة: أن الأسماء الشرعية إنما أراد بها الشارع معان مخصوصة لا يحق لأحد أن يتدخل فيها بتصرف، أو يرجعها إلى أصل لغوي قد تخطاه المعنى المنقولة إليه، فهي أسماء توقيفية.

فلا يجوز إطلاق الاسم الشرعي على غير ما وضع له بتوقيف الشرع، فمثلاً الإله لا يطلق كاسم شرعي حقيقي على غير الله ﷻ بالتنصيص كما في " لا إله إلا الله " وغيرها.

ولذا ذم الله قوماً على تسميتهم معبوداتهم آلهة بقوله تعالى:" **إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَآءٌ سَمّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مّآ أَنَزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**)، فلا يجوز التواضع فيها على خلاف التوقيف.

ومع ذلك فالتسمية المجازية ممكنة بشرط وجود القرينة الدالة على عدم إرادة الحقيقة حتى يؤمن اللبس، كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :" **وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا** " فهو ليس إقراراً من موسى بألوهية العجل، فالمقام ليس مقام تأليه وتعظيم ولكن تحقير

وتبكيت كما في قوله تعالى:" **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** " على ما كلن يزعم لنفسه. فلا يجوز ادعاء المجاز على اسم شرعي بغير قرينة دالة على عدم إرادة الحقيقة الشرعية حتى يؤمن اللبس.

وكذلك لا يطلق الاسم الشرعي إن تخلف شرط من شروطه أو وجد مانع يمنع التسمية الشرعية كما في رد الرسول ﷺعلى الصحابة حين استدركوا عليه فيمن فارق الجماعة أو دعا بدعوى الجاهلية بقولهم :" وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم"، قال " وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله ﷻ المسلمين المؤمنين عباد الله "[1] لأن من أنكر عليهم تسميته بالمسلم قد أتى بخارق للإسلام سواء بمفارقة الجماعة أو الدعوى بدعوى الجاهلية.

وعندما قال أصحاب النبي يوم خيبر " فلان شهيد " قال النبي ﷺ كلا إني رأيته في النارفي بردة غلها لم تصبها الغنائم.

وبعد فهذه مقدمة رأيتها ضرورية لمعرفة علام نُعَوِّل في فهمنا للأسماء الشرعية؟ أَعَلَى توقيف من الله سبحانه وتعالى ؟ أم تترك لاجتهاد الناس واختلافاتهم؟!! ".

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ حَدِيثًا)
[النساء: 87]

وأول هذه الأسماء الشرعية التي سنبدأ ببيان حقيقتها كما قررته نصوص الشريعة المطهرة هو الإيمان... ما مراد الشرع به؟ ومن هم المؤمنون حقا؟

1- رواه أحمد ج 4 /130 وابن حبان في صحيحه 1550 والترمذي 5/ 2863 والألباني في صحيح الجامع 1720.

الفصل الأول

مسمى الإيمان في الشريعة المطهرة

نُذِّكر هنا بما سبق أن قررناه في المقدمة السابقة أن اسم الإيمان من الأسماء الشرعية التي أراد بها الشارع معانيَ مقصودة تدل على مراد الله منها، فالعبرة ليست في اللفظ أو الاسم وإنما في معناه ودلالته على مراد الله منه والذي وُصف أصحابه بمقتضاه بالمؤمنين حقاً ورتب عليه استحاقهم لدخول الجنة وعدم خلودهم في النار، ورفع به عنهم استحقاق اسم الذم كفراً أو شركاً أو نفاقاً أو غيره.

فإن تخلف واحدٌ من هذه الاستحقاقات في نص مع ورود الاسم فلا اعتبار به ولا قيمة له، بمعنى إذا ورد لفظ الإيمان معبراً عن معنى من معاني الإيمان وثبت مع ذلك استحقاق صاحبه اسم الكفر أو الخلود في النار... فليس هو المعبر عن مراد الله.

ولقد فطن القوم إلى هذه الحقيقة في ردهم على المخالفين الذين أرادوا أن يدخلوا الشهادة في مسمى الإيمان بمقتضى فهمهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم" أمرت أن أقاتل الناس حتى أن يقولوا لا إله إلا الله ..." الحديث

فقالوا هذا عن أحكام الدنيا، وإنما محل النزاع هو النجاة في الآخرة...، ثم أغفلوا هذا المعنى في حديث الجارية المتعلق بأحكام الدنيا.. وهكذا دأب القوم في توظيف معاني النصوص لنصرة الهوى والمذهب.

حقيقة الإيمان الشرعي :- ما هو الإيمان الحق؟ ومن هم المؤمنون حقاً؟

سنبدأ مستعينين بالله في تتبع لفظة الإيمان ومشتقاتها كما وردت في نصوص الشريعة المطهرة، ثم ندلل على أيها هو مراد الله والمعبر عن الإيمان الحقيقي الموجب للجنة؟ ومن هم المؤمنون حقاً؟

المعنى الأول:- أتت لفظة الإيمان ومشتقاتها في بعض النصوص لتعبر عن أعمال الجوارح كالشهادة والصلاة والصوم والجهاد.. الخ.

تمثل ذلك في حديث وفد عبد قيس كما ورد في الصحيحين واللفظ للبخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن وفد عبد قيس أتوا النبي "صلى الله عليه وسلم" فقال:" من الوفد؟ أو من القوم؟ قالوا: ربيعة، فقال: مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى.

قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة.

فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم، ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير، قال: احفظوه وأخبروه من ورائكم.

فسمى رسول الله ﷺ تلكم الأعمال إيماناً وهي بالطبع بخلاف ما في القلب وأعماله وفي ذلك رد كافٍ على من حصر الإيمان في القلب بفهمه لبعض النصوص. وسنزيد الأمر بياناً في حينه.

وأتت لفظة الإيمان أيضاً وفي نفس السياق لتعبر عن بعض الأعمال المتعلق بها أحكاماً دنيوية كالنكاح في مثل قوله تعالى:" **وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ** [البقرة: ٢٢١]

وكالعتق كما ورد في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجارية المسئول عنها هل تجزئ في العتق كرقبة مؤمنة أم لا. فقال بعد إقرارها: " اعتقها فإنها مؤمنة " .

وكالتفريق في نكاح الكفار، قال تعالى: " **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ**"

وبديهي أن إيمان القلب لا يُعلم، فالمقصود هنا هو الإيمان الظاهر ويُعلم بالإقرار والبيعة وفيها " **وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ** "، ويستوفى بالمتابعة وإلا فهم مقاتلون على الوفاء بكل ذلك وبكل حق للإسلام، كما هو مبين من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " وهو ما فعله أبو بكر بقتال مانعي الزكاة.

وأمره صلى الله عليه وسلم ديلم الحميري بقتال المصرين على شرب الخمر حين أخبره بقوله " ما هم بتاركيه " فقال صلى الله عليه وسلم " فقاتلوهم عليه"، والنصوص كثيرة على هذا الاستيفاء.

وهذا النوع من الإيمان الظاهر يشترك فيه المؤمنون حقاً والمنافقون والذين لا يعلم نفاقهم وما تكن صدورهم إلا بوحي فيبقى لهم الحكم بالإيمان الظاهر والإسلام، وهذا ما عناه المولى سبحانه بقوله:" **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** " فقد علم الله عدم تمكن الإيمان من القلب فنفى عنهم الإيمان الحقيقي وأثبت لهم الإيمان الظاهر والذي لا يغني عن إيمان القلب، وهو ما أُخبر به نبيه عن قوم خاطبهم الرسول بقوله " يا معشر من آمن بلسانه ولم تؤمن قلوبهم " فأثبت إيمان الظاهر ونفى إيمان القلب بمقتضى الوحي.

أما نحن فلا سبيل لنا بعلمه لقوله ﷺ " لم نؤمر أن نشق عن صدور الناس " فيبقى حكم الظاهر الذي يثبت بهذه الأعمال والتي تبدأ بالإقرار وتنتهي بكل حق للإسلام بنص الحديث السابق في قوله ﷺ " فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " .

ثم إن هذا النوع من الإيمان لايقطع لصاحبه بدخول الجنة – وهو محل النزاع – كما يبرهن على ذلك غضب النبي ﷺ من امرأة – أم علاء – حين قالت عن صحابي – عثمان بن مظعون – وقد مات: " أشهد أنك من أهل الجنة " وفي رواية " فشهادتي عليك لقد أكرمك الله " فقال النبي: " وما يدريك أن الله أكرمه، أنا وأنا نبي لا أدري ما يفعل بي ولا بكم "[١]

ويصبح هذا النوع من الإيمان شرطاً في الإيمان الحق وأقول شرط لدخول الجنة بمعنى أن انتفاءه يمنع صاحبه من دخول الجنة، ووجوده لا يلزم منه دخول صاحبه الجنة [٢] لوجوده لدى المنافق.

وكذلك يتحقق فيه معنى الركنية أي أن عمل الصاحات ركن من أركان الإيمان الحق لا يقوم الإيمان بدونه كالركن بالنسبة للبناء.

وهذا عين ما قصده رسول الله ﷺ في هذا الحديث المتفق عليه، عن طلحة بن عبيد الله أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس، فقال يا رسول الله أخبرني ما فرض الله عليَّ من الصلاة؟، قال: الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئاً، قال أخبرني ما فرض الله عليَّ من الصيام؟ قال: شهر رمضان إلا أن تطوع شيئاً، قال أخبرني ما فرض الله عليَّ من الزكاة؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام كلها، فقال والذي أكرمك لا أطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله شيئاً، فقال رسول الله ﷺ أفلح إن صدق أو دخل الجنة إن صدق " فعلق رسول الله ﷺ فلاحه ودخول الجنة على صدقه في أداء ما نيط به من شرائع الإسلام كلها دون نقص.

وهو نفس ما طلبه وفد عبد قيس من النبي ﷺ حيث قالوا: " مرنا بأمر نخبر من وراءنا ندخل به الجنة " فأمرهم بذات الشرائع ونهاهم عن المنكرات وقال: " احفظوه وأخبروه من وراءكم " لتكون هي موجب

1- صحيح البخاري.

٢- وهذا هو معنى الشرط الذي لم يفهموا منه إلا مغايرته للمشروط، حين قالو إن الإيمان غير العمل الصالح الذي جعل شرطاً فيه في قوله تعالى:" وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ ".

دخولهم الجنة إن صدقوا في أدائها كما سألوا، وكما بينا سابقاً فإن الصدق مرهون في الشرع بالآداء وليس مجرد الإقرار بقوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: " **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا** " بعد مباشرته للفعل.

وهذا الإيمان الظاهر يعبر عنه أحياناً كما دلت عليه النصوص بشرائع الإسلام أو حق الإسلام أو عمل الصالحات أو الإسلام فقط تمييزاً له عن إيمان القلب، خاصة إذا اجتمعت اللفظتان معاً – الإسلام مع الإيمان، أو الإيمان مع عمل الصالحات – كما ورد في حديث جبريل عليه السلام حيث عبر عن الأعمال الظاهرة بالإسلام واختصت لفظة الإيمان بمواد الإيمان القلبية، وكما في قوله تعالى " **الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ...** " تدل كل منهما على ركني وشطري أو شرطي الإيمان الحق ولا مشاحة في اللفظ.

ويجب أن نؤكد هنا أن هذا الإيمان الظاهر الذي هو ركن الإيمان له حد لا يجب أن يتعداه وقد بينته النصوص كما عبر عنه في حديث الأعرابي بشرائع الإسلام كلها وفرائضه، وفي حديث وفد عبد قيس باتيان الأوامر واجتناب النواهي وفي حديث القتال بحق الإسلام، وإلا سيستوفى من الناكث عنه، أو يبقى محض زعم كما في حديث " وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن،... " الحديث إن اقترنت به خارقة عمل أو غيره، كمفارقة الجماعة. وفيه خلع ربقة الإسلام من عنقه أو الدعوى بدعوى الجاهلية – وقد جعل في جثى جهنم – مع اتيانه بصلاة وصيام وإقرار.

وذلك لقوله ﷺ " وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله ".

أو بمجرد إرادة التحاكم إلى غير شرع الله، كما في قوله تعالى:" **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ...**" فيبقى محض زعم لا يصيب حقيقة الإيمان.

وعلى من يخرق هذا الحد تركاً للعمل أو وقوعاً في المعصية، المسارعة بالتوبة قبل أن يدركه أجله وإلا فلا توبة ولا مغفرة لقوله تعالى **(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيما* وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ..)** [النساء:17- 18]

ولقول رسول الله ﷺ " والتوبة معروضة بعد" وقوله " فإن تاب عاد وإلا فلا ".

كما أن هناك نصوصاً كثيرة ربطت بين إستغفار العبد وتوبة الله عليه مثل قوله " **وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا** " وقوله " **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** ".

ولا أدري لماذا استعظموا على المفرط في جنب الله أن يخضع لمولاه بالتوبة وقالوا " إن أتى قراب الأرض خطيئة ومات مصراً على ذلك فمأله الجنة وإن تأخر في دخولها "

هل عقلوا حقيقة الإصرار؟ أليس هو العناد والمشاقة والاستكبار؟ ما معنى أن يقوم إنسان على الذنب وهو يعلم أنه يعصي الجليل، ويعقد العزم على ذلك ثم يفعل ولا يتذكر ولا يندم ولا يستغفر طالباً الصفح" بل ويعزم على المعاودة.

ما معنى استكباره عن التوبة؟ أليس شكاً في عذاب الرب إن لم يكن استخفافاً؟ هل ارتضوا أن يجعلوا لهواهم وشياطينهم نصيباً من الطاعة شركاء لله فيها ؟

وهل عقلوا معنى التوبة والاستغفار وهي لغة في الاقلاع عن الذنب والعودة للرب وطلب الصفح؟ فهل يعني ذلك إلا اقراراً له سبحانه

بالوحدانية؟ فهو يقف على بابه وحده راجياً رحمته، واثقاً في وعده حين يقول" **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** " خائفاً وجلاً منه حين يقول " **وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ** "، معترفاً بخطيئته مسلِّماً بشريعته فلا حلالاً إلا ما أحل ولا حراماً إلا ما حرم، فهل للإيمان معنى إلا ذاك؟ وهل للعبودية معنى آخر؟.

أليست التوبة والإستغفار هما الشق الثاني من دعوة الرسل بعد تحقيق العبودية، واقرأ معي إن شئت من بداية سورة هود **(الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمّ فُصّلَتْ مِن لّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) * أَلاّ تَعْبُدُوَاْ إِلاّ اللّهَ إِنّنِي لَكُمْ مّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبّكُمْ ثُمّ تُوبُوَاْ إِلَيْهِ...**" وفي ثناياها تمثلت دعوة كل الرسل إلى قومهم في " **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** " إلى " **وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ** ". وأخيراً هل أدركتم معنى التوبة ومكانتها التي ضننتم بهاعلى ربكم وفرضتم عليه المغفرة بدونها؟.

نعود إلى حد الإيمان الظاهر المتمثل في شرائع وحقوق الاسلام فنقول أنه يبقى بعد هذه الشرائع والفرائض أعمال هي من الإيمان ولكن أوجبت النصوص دخول الجنة بدونها مثل قول الأعرابي " والله لا أطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليَّ شيئاً" و إن كانت باباً واسعاً لزيادة الفضل والكرامة مثل النوافل والتطوعات وسائر أعمال البر والتي يتضمن بعضها حديث شعب الإيمان، فبعض هذه الشعب بوجودها يزيد الإيمان وبغيابها وارتكاب ما دون الكبائر ينقص.

المعنى الثاني: لكلمة إيمان:- وردت كلمة إيمان ومشتقاتها في النصوص بمعنى التصديق والعلم وقد وصف بها المؤمن والكافر على السواء.

فعن التصديق ووجوده لدى بعض الكفار، ونعتهم بالإيمان بسبب وجود هذا المعنى لديهم، قال تعالى: " **وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** [يونس: ٤٠]، وقال تعالى عن أهل الكتاب والمشركين:" **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ "[العنكبوت: ٤٧]، فأثبت إيماناً لأهل الكتاب والمشركين بمعنى التصديق ولم يخرجهم ذلك عن كفرهم، وقال أيضاً عن كفار قريش (**فَإِنّهُمْ لاَ يُكَذّبُونَكَ وَلَـَكِنّ الظّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**)[الأنعام:33] فأثبت لهم تصديقاً فهل هو نافعهم؟

وعن العلم اليقيني الموجود لدى بعض الكفار، يقول تعالى (**وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ...**)، وقال تعالى: (**وَإِنّ فَرِيقاً مّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**).

فالآيات تتكلم عن فريق من الكفار يعلمون الحق وآخرين لديهم يقين بآيات الله، ولا يخرجهم ذلك عن دائرة الكفر ولا يستتبعه حكم بالإيمان الحق.

وهذا النوع من الإيمان موجود لدى المؤمنين وهو شرط في إيمانهم وليس كل إيمانهم، بدليل وجوده لدى بعض الكافرين ولم يغير من حقيقة كفرهم.

وهو أيضاً يتحقق فيه معنى الركنية إذ لا يكون إيمان بدونه، وبذلك يثبت عين ما قررناه في المعنى الأول للإيمان – إيمان الجوارح – وأن كلاً من إيمان القلب وإيمان الجوارح شرط وركن في الإيمان الحق الذي هو مراد الله، لا يجزي أحدهما عن الآخر، ولا يقوم للإيمان الحق قائمة بدونهما مجتمعين.

والآن نتساءل ما هو الجحود المقصود في الآيات السابقة " **فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** " وقوله " **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** " خاصة وقد ثبت علمهم وتصديقهم؟ فهو قطعاً ليس التكذيب ولا عدم العلم وبذلك يسقط قول كل من الجهمية والأشاعرة ومتأخري الحنفية الذين عرَّفوا الإيمان بالمعرفة والتصديق.

إذن فما هو هذا الجحود؟ لا يتبقى إلا أحد أمرين، إما عدم الإقرار وسنناقشه.. أو عدم الاتباع بعد الإقرار والعلم والتصديق لسبب من الأسباب السابق ذكرها إما استكباراً كما دلت عليه الآية " **ظُلْمًا وَعُلُوًّا** " أو خشية ضرر أو فوات مصلحة.

فعن الإقرار المقترن بالعلم اليقيني والتصديق بمواد الإيمان المخصوصة فهو ثابت في حق إبليس لعنه الله ولم ينفعه واقرأ معي هذه الآيات البينات عن نبأ الملأ الأعلى من سورة ص:

" **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)**" فكما بينت الآيات أن إبليس ذلك الكافر الملعون يؤمن بالله ويخاطبه بـــ (رب) ويعلم قدره فيقول (فبعزتك) وقدرته فيطلب منه إمهاله "أنظرني" ويؤمن باليوم الآخر " إلى يوم يبعثون" وقد عاين الملائكة فهم شهوده وطرف فاعل في الموقف، وعاين الجنة وقيل له " اخرج منها" والنار أيضاً وقيل له " لأملان جهنم منك..." ولم تكن ثمة رسل أرسلت ولا كتب أنزلت حتى يقر بها، فقد أقر بما علم وعاين، ورغم ذلك لم يعد مؤمناً بل كان من الكافرين، وكان كفره من باب العمل، سواء عمل القلب "استكبر" أو عمل الجارحة " أبى"، "وفسق عن أمر ربه".

وهذا عين موقف نفري اليهود حين قالا " نعلم إنك نبي" أليس هذا إقراراً؟

فقال ﷺ لهما " فما يمنعكما من أن تتبعاني " إذن فهو عدم الاتباع بعد التصديق والاقرار.

وبناءً على ما تقدم فإن الإيمان الحق الذي لم يتحقق عند إبليس ولا اليهوديين ليس العلم والتصديق والاقرار وإنما بقى أن تستوفي سائر أعمال القلب ومتابعة الجوارح انقياداً وتسليماً.

وبعبارة أوضح نقول إن الإيمان بمعنى العلم والتصديق والإقرار المخصوص لا ينبغي أن يتوقف عند هذا المعنى وإنما يتخطاه ليخالط القلب فيحدث فيه جميع الفرائض القلبية - أعمال القلوب – من إجلال لله والوجل والخوف والإخبات والتقوى والرضا والحب وحسن الظن بالله والتوكل عليه والرضا بقضاءه، وحب المؤمنين وبغض الكافرين، والحياء والتواضع إلى آخر تلك الأعمال القلبية، كما ينفي عن القلوب أمراًضها من كبر وعلو وفجور وتلذذ بالمعاصي، وبغض وغل للمؤمنين، وحسد وحقد عليهم...إلخ.

كما يتمثل ذلك في قوله تعالى " **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ** " فهو علم أحدث طمأنينة في القلب وخضوعاً للحق.

وفي قوله تعالى:" **أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** .. " فهو علم أحدث هذا الأثر العظيم من خوف ورجاء أقض مضجعهم ودفعهم لإحياء ليلهم سجداً وقياماً.

وكما قال تعالى على سبيل الحصر " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** " ذلك العلم الذي يحدث الخشية وهو بذلك المحرك للجوارح لأداء ما نيط بها من تكليفات.

وكما في قوله تعالى:" **قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109)** " فهو علم وخشية وامتثال وزيادة..

وهذا ما بينه رسول الله من قوله تعالى " **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ...**" بأنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم " رواه ابن حاتم والترمذي.

فذلك هو إيمان القلب وصلاحه الذي يستتبعه بالضرورة صلاح الجسد كله، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله " ألا إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد "

فصلاح القلب يعني أداءه كل ما نيط به من فرائض ومن أعمال قلبية والتي تبدأ بالتصديق وقد سبق أن سميناها إيماناً وقلنا إنها ليست كل الإيمان ولكنها ركنه وشرط فيه.

وصلاح الجسد يعني أداؤه لكل ما نيط به من فرائض وأعمال الجوارح، وقد سبق أن سميناها إيماناً وأنها ليست كل الإيمان ولكن ركن وشرط فيه، فإذا ما اجتمع الإثنان حصل الإيمان الحق، وهذا الإيمان الحق هو الذي عناه الشرع بالقول " **الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات....**"

فهي علاقة تركيبية من جزءين لا ينفك أحدهما عن الآخر أو كما قال التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح تعقيباً على قول الله تعالى " **وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** " قال فألزم الإسم العمل وألزم العمل الإسم[١].

وقد علقت الشريعة الجزاء ودخول الجنة على هذه العلاقة التركيبية مجتمعة في كل نصوص القرآن سواء بنفس الصيغة السابقة كما في قوله تعالى " **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ**

1- الإبانة لابن بطة لوحة 173.

نُزُلًا " وقوله " **الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ** " وقوله تعالى " **أَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** " ونظائرها، أو لعلاقة شرطية مثل قوله تعالى " **...وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...**" ثم تؤكد بقوله " جزاءاً بما كانوا يعملون "، " **نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** " لا بما كانوا يقرون ويصدقون.

وخلاصة القول أن المعنى الحقيقي للإيمان الحق الذي يُعبد الله به والذي يُوصف أصحابه بأنهم المؤمنون حقاً، والصادقون، والمتقون، والذي يدخل أصحابه الجنة،هو الذي يشمل العلم والتصديق والإقرار باللسان وعمل القلب والجوارح جميعاً، وهو المتمثل في قوله تعالى: " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ".

وكذا في قوله تعالى: " **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(16)** ".

وقوله تعالى: " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)** ".

وجُمع ذلك كله في آية البر بقوله " **... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)** "

فهو إيمان قلبي بمواد الإيمان " من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين " ويقين " ثم لم يرتابوا " بل هو في ازدياد " زادتهم إيماناً " ولم لا وقد جعل قلوبهم وجلة تحذر الآخرة، متعلقة بربها ترجو رحمته، متوكلة عليه " وعلى ربهم يتوكلون" صابرة وراضية " الصابرين في البأساء والضراء " دفعهم كل ذلك إلى الإمتثال بكل جوارحهم " **يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** " بل وبذل النفس والنفيس للفوز بجنة الله ورضوانه " وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. فأجدر بهم أن يكونوا هم، وهم فحسب " أولئك هم الصادقون "، " هم المتقون " ، " هم المؤمنون حقاً " دون غيرهم من الأدعياء الكاذبين والمروجين لهم، وبهذه الصيغة الحصرية وهي وقوع ضمير الفصل (هم) بين معرفتين والتي تفيد كما أخبر الجاحظ في البيان والتبيين الحصر والقصر والتوكيد وأن ما بعدها خبر لما قبلها، أي حكم وليست صفة عارضة.

أضف إلى ذلك استهلال الآيات بقوله تعالى " إنما المؤمنون " وهي من أساليب القصر مثل " إنما الله إله واحد " أي لا سواه، بما تفيد إن في التحقيق وما لنفي من سواهم.

ثم انظروا يا معشرمن لم يعرف حقيقة الإيمان، ولم يتذوق حلاوته، ولم يحياه واقعاً وإنما ألفاظ صماء وعبارات جوفاء، ونظريات مجردة لا دفء فيها ولا حياة.

انظروا إلى ذلك الفيض من المعاني وذلك الحشد من الدلالات، بل من الأدلة والبراهين، كل لفظ مقصود، وكل تركيب متعمد، أليس بكلام العليم الخبير؟

انظروا إلى تلكم الآيات البينات الساطعات القاطعات، وهي تتوالى تترى في سياق متسق متناغم لتعبرعن حقيقة الإيمان، وتصف أصحابه بالمؤمنين حقاً، فقد سبق ذكر إيمان لا حقيقة فيه ولا استحقاق لصاحبه، فكان مطية القوم فضلوا وأضلوا.

وتصفهم بالصادقين فليسوا أدعياء مفتئتين على الحقيقة، وتصفهم بالمتقين فليسوا بمنافقين ولا متلونين.

كلها تستهل بهذا الأسلوب الحصري " إنما المؤمنون " " إنما يؤمن " " ليس البر...ولكن " لتشد انتباهنا إلى هؤلاء المعنيين بهذا الإسم وحدهم وتغلق الباب دون سواهم، وتبعث لدينا الشوق إلى معرفة خصالهم وأفعالهم التي استحقوا بها هذا الشرف دون غيرهم، مهنئين – فازوا وظفروا ورب الكعبة – ومتمنين – اللهم ألحقنا بهم واهدنا سبيلهم.

ثم تتوالى خصال الخير والإيمان لتكشف عن قلوب عامرة متعلقة بربها خوفاً وطمعاً لا يخالجها ريب بل هي في شوق إلى مزيد، وجوارح ممتثلة منقادة في سباق الخير لتبرهن لباريها أنها لا تقل عن تلك المضغة المنقادة.

ثم لا تدعنا الآيات مع هذا الإسهاب في خصال الخير ودواعي الإستحقاق، حتى نشرد بعيداً عن هذا الركب النوراني المستحق لهذا الفضل، فتعيدنا تارة أخرى وبأسلوب حصري أكثر تأكيداً على اختصاص أصحاب هذه الفعال دون سواهم لهذه التسمية (أولئك هم المؤمنون حقاً... الصادقون، الذين صدقوا، المتقون)، لتختم به الآية.

ونسألكم ما معنى أن يتكرر نفس السياق بنفس الأساليب والتراكيب اللغوية في كل آيات الإيمان الحق؟ أليس له دلالة لديكم؟ أليس هذا مقصوداً؟

لماذا عميت عنه أبصاركم وبصائركم وتعلقت بشوارد لا تسمن ولا تغني من جوع؟.

" ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ "

إذن فهذا هو المعنى الوحيد والمعتبر في الشرع للإيمان، والإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، والدين الذي دانهم به والمجازى عنه بدخول الجنة،

والتي جعل ثمنها النفس والمال بقوله تعالى " **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ... ".**

وبعد هذا البيان والتوكيد والحصر لمعنى الإيمان نسألهم من أين أتيتم بهذا الإفك المفتري وذلك الهراء الغث الفاضح، اللهم إلا نوع من الشغب ليس إلا، ليطفئوا نور الله بأفواههم.

فالذين حصروا معنى الإيمان في الإقرار والتصديق أو أدخلوا العمل من نافلة القول أو ذراً للرماد في العيون على خلاف ما بينا، إنما أرادوا أن يفرِّغوا دين الله من مضمونه بل قد جاءوا بدين جديد كما قال التابعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا نقول لهم إلا كما قال الله تبارك وتعالى في سورة القلم.

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) ".

الفصل الثاني

تفاضل الإيمان (الزيادة والنقص)

في الباب الرابع استعرضنا مذاهب المرجئة في مسمى الإيمان ورأينا أن الفرق الثلاث الأول (الجهمية – الأشاعرة – الحنفية) تتشابه مقالتهم في مسألة زيادة الإيمان ونقصه إذ أن الإيمان عندهم وهو العلم والتصديق القلبي إنما يقع كاملاً في القلب فلا يزيد ولا ينقص حيث أن نقصه – كما يقولون – شك وهو كفر وزيادته تعني قبوله النقص وهو كما قالوا.

وعلى هذا فإيمان الملائكة والنبيين كإيمان آحاد الناس فلا تفاضل في التصديق. وإنما إختلفت عباراتهم فقط في التعبيرعن هذا المعنى.

فعند الجهمية كما ينقل عنهم ابن تيمية " إذا كان العلم في القلب فهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان النبيين ولو قال وعمل ما عسى أن يقول ويعمل".

وعند الأشاعرة يقول الجويني:" إذا حملنا الإيمان على التصديق فلا يفضل تصديق تصديقاً كما لا يفضل علم علماً "، ويرى الجويني أن النبي يفضل من عداه لإستمرار تصديقه حتى وقت الغفلة، وبعصمة الله له من الشك الذي قد يعرض لغيره وليس في ذات التصديق.

وعند فقهاء الحنفية ينقل عنهم ابن تيمية أنه " بعد كمال ما أنزل الله، ما بقى الإيمان يتفاضل، بل إيمان الناس كلهم سواء، إيمان السابقين كإيمان أفجر الناس " ويتقرر ذلك في كتاب العالم والمتعلم المنسوب لأبي حنيفة حين يجيب سائله عن تساوي إيمان الناس بإيمان الملائكة والرسل رغم أنهم أطوع منا قائلاً:

" لقد علمنا أنهم كانوا أطوع لله منا، وقد حدثنا أن الإيمان غير العمل، فإيماننا مثل إيمانهم لأنا صدقنا من وحدانية الرب وربوبيته وقدرته بما جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة وصدقت به الرسل "

واختلف الفريق الرابع – مرجئة الخلف – عنهم وقالوا بزيادة الإيمان ونقصه ولكن من باب العمل الذي به يكمل الإيمان. فمنشأ عدم الزيادة والنقصان وعدم التفاضل عند المرجئة مرده إلى أنهم حصروا الإيمان في العلم والتصديق القلبي وهو متساوي بزعمهم لدى كل الناس فلا يفضل تصديق تصديقاً.

☜ والقول الحق الذي عليه سلف الأمة هو القائل بزيادة ونقص الإيمان بشطريه وبيان ذلك كالآتي:-

أولاً: قد بينا أن الإيمان الحق هو مجموع ما في القلب من أعمال وكذا أعمال الجوارح، فكلاهما ركنا الإيمان وشرطا تحققه، وأنه علاقة تركيبية من إيمان القلب وعمل الصالحات وبهما جميعاً تتوجب الإستحقاقات بدخول الجنة والنجاة من الخلود في النار. وأن (المؤمنون حقاً) هم دون سواهم من خفقت قلوبهم وانقادت جوارحهم للخالق العظيم وسنثبت بعون الله أن كل هذه الخصال والأفعال سواء المتعلقة بالقلب أو الجوارح كلها قابلة للزيادة والنقص ويزيد معها الإيمان وينقص.

ثانياً:- إن التصديق ذاته يمكن أن ينقص ولا يكون كفراً لأنه يكون قد تخطى حد الشك إلى الرجحان ويزداد حتى يصل إلى اليقين وعنه ينقص حتى يصل إلى مجال عمل الشيطان وهو الوسوسة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما شكى له الصحابة ما يجدونه منها فقال ﷺ" أوقد وجدتموه ذلك محض الإيمان" فسمى ذلك إيماناً إذ لم يداخلهم الشك.

وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم " الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة، قولوا أمنا بالله ورسله" تثبيتاً فلا يعتورهم شك، وهو قول الرسول معلماً لنا " اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ".

فكما قلنا لابد للإيمان من بداية يكون ما دونها شكاً وما بعدها إيماناً ثم يزداد حتى يصل إلى اليقين، وإن كان اليقين أيضاً درجات، فعلم اليقين غير عين اليقين غير حق اليقين.

فليس يقين الكافرين في الدنيا بمعاينة آيات الله والثابت بقوله " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم " كيقينهم المتحقق في الآخرة حين يقولون " **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** "، وكذلك ليس يقين المؤمنين في الدنيا كيقينهم المتحقق بدخول الجنة ورؤية ربهم حين يقولون " لقد جاءت رسل ربنا بالحق " فهم لم يدخلوها إلا بإيمانهم بحقية ما جاء به الرسل.

واقرأوا إن شئتم قوله تعالى: " **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)** " فقد انتابتهم الغفلة ثم أدركوا أنهم إلى نهاية ثم هناك مزيد علم وآخر حتى يصل إلى علم اليقين ثم يتخطاه إلى المعاينة وهي عين اليقين ثم يتحقق المصير وحق اليقين.

ثالثاً: عودة إلى تزايد التصديق عند الناس، نؤكد أيضاً أن الناس يتفاوتون في قدر التصديق الواجب على كل منهم وهذا ما يقرره ابن تيمية بقوله: " فإنه لابد في الإيمان من تصديق الرسول في كل ما أخبر، لكن من صَدَق الرسول ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيها من الأخبار والأوامر المفصلة فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر، وكذلك لا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر الله به الرسول وكل ما نهى عنه وكل ما أخبر به، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو وما يحرم عليه، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف

أمره المفصل في الزكاة، وكذا الحج، فصار يجب من الإيمان تصديقاً وعملاً على أشخاص ما لا يجب على آخرين " .

رابعاً: نقول إن تفاوت الناس في التصديق والإيمان لا ينكره إلا مكابر، فتصديق وإيمان التابعين ومن بعدهم وهم من خير القرون يختلف عن تصديق وإيمان الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورأوا دلائل لنبوة ومعجزات الرسول، وإيمان عامة الصحابة ليس كإيمان وتصديق من سماهم الله بالصديقين والذين جعلهم الله في رتبة بعد الأنبياء وقبل الشهداء في مثل قوله تعالى: **" وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا "** فالمعية هنا في دخول الجنة مع تفاوت المراتب.

وتصديق الصديقين عامة يختلف عن إيمان وتصديق أبي بكر الذي خص بذلك اللقب حتى أصبح علماً عليه، وتصديق أبي بكر وإيمانه لا ريب يختلف عن تصديق النبي الذي تلقى خبر السماء وجاءه أمين الوحي ورأه وسمع منه وهو غير إيمان من جاء بالوحي من الله وغير إيمان الله بنفسه سبحانه و من أسماءه الحسنى المؤمن.

خامساً: ثم إن الآيات التي تكلمت عن زيادة الإيمان لم تتكلم إلا عن زيادة الإيمان القلبي في مثل قوله تعالى: **" وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) "**

وقال تعالى: **" الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ " .**

وقوله تعالى: **" .. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ "**

أليس هذا زيادة في إيمان القلب وتصديقه وطمأنينته وتوكله وتعلقه بربه

سادساً: وأخيراً وليس آخراً فإن هناك من الأنبياء والصالحين والخلصاء من سأل الله أن يريه من الآيات لزيادة الإيمان والطمأنينة والتصديق كما صرحت به النصوص.

فها هو إبراهيم عليه السلام يسأل ربه " **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** " فلم يكن سؤاله عن عدم إيمان ولكن طلباً للزيادة عن إيمان سابق وإلا كان السؤال عبثاً وإجابة الله تعالى له عبثاً – حاشا لله.

وقد صح عن أحد الصالحين كما يحكي عنه القرآن أنه " مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه .." إلى أن قال " أعلم أن الله على كل شيء قدير " فهل هذا بدء علم أم إضافة إلى علم سابق وتصديق سابق؟

وحواريو عيسى حين قالوا :" **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** " فهل كانوا في شك من قدرة الله وهم الخلصاء من أتباع المسيح وهو ما قد يفهم من منطوقهم لأول وهلة، وإنما هو استعظامهم أن يخصهم الله بهذا الفضل ويجيبهم لهذا المطلب وهذا شأن كل من طلب الآيات وكان مقصدهم زيادة التصديق والإطمئنان كما قالوا ".. **نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** "

وأما عن مرجئة الخلف الذين قالوا أن الزيادة والنقص إنما هي في الأعمال على أن الأعمال من الإيمان مع أنهم يرون أن النقص في الأعمال لا يوجب الكفر فنقول لهم ألا ترون أن النصوص التي تكلمت عن الأعمال تبدأ كلها بقولة لا إله إلا الله كحديث جبريل عليه السلام ووفد عبد قيس وشعب الإيمان وغيرها؛ فهل ترون أن النقص عنها لا يوجب الكفر؟ إذاً فقد انتفت ضرورة هذه الكلمة لدخول الجنة – وإلا لزمكم أن تحدوا حداً للأعمال إذا انتقص يكفر صاحبه نصاً وليس تحكماً واشتهاءً، ولن تجدوا إلا ما دلت عليه النصوص التي اعتمدناها

وأعملناهاعلى ظاهرها بعد استيفاء شروطها بينما أولتموها وحرفتموها عن ظاهرها لمحض شبهات حان الحين لدحضها والرد عليها.

الفصل الثالث

الرد على الشبهات النصية

تنويه:- نريد أن ننوه إلى أن النصوص التى أوردوها هنا إنما أتوا بها لتعضيد فكرة مسبقة ومذهب معتمد، وليس لأنها فى ذاتها هي التي قادتهم إلى هذا المعتقد وذلك المذهب.

بمعنى آخر أن النصوص هنا موظفة ومسخرة لخدمة المعتقد المسبق ومن ثم شابها ما شابها من الإنتقائية، والإجتزاء، والتعسف في الفهم ، وعدم مراعاة قواعده وأصوله المتعلقة بطرق دلالة الألفاظ على المعاني، ودون الإلتفات إلى أسباب الحكم وشروط تطبيقه.

ومن أجل ذلك كله فقد ضربوا النصوص ببعضها وادعوا فيها تناقضاً وتضارباً يتحتم معه التأويل، مع أنها ولكونها من عند الله وبحفظه قد سلمت من هذه الآفة كما أخبرنا ربنا في شأنها حين قال: " **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** " وقال تعالى عنه: " **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد** ".

وادعوا فيها استشكالاً وغموضاً مع وصفه سبحانه لها بأنها " آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم " وقوله تعالى " **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ** " وقوله" **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** " وعهده لنبيه ﷺ ببيانها بقوله " **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون** ".

فهل قصر صلوات الله عليه في البيان وأسلمهم لهذا الغموض وذاك الإضطراب ليتخذوه مطية لتأويل النصوص؟

فمثال ما دل على الإنتقائية إستدلالهم بحديث الجارية على الإيمان الحق الموجب لدخول الجنة في حين أنه لإجراء الأحكام الدنيوية، مع استدراكهم على مخالفيهم حين استدلوا بحديث المقاتلة لإدخال الشهادة في مسمى الإيمان بأنه لإجراء الأحكام الدنيوية وليس للنجاة من النار.

ومثال ما دل على الإجتزاء : التقاطهم لرواية من حديث الجهنميين تقول:" فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط " ليدللوا على خروج الأعمال من مسمى الإيمان، مع وجود روايات أخرى تقول عنهم " أمر الملائكة يخرجوهم فيعرفونهم بآثار السجود".

والتقطوا رواية عن رجل أدخله الله الجنة قال عن نفسه: " أني لم أعمل خيراً قط " مع ورود رواية تقول عنه " كان يسيء الظن بعمله " فأثبت له عملاً، وأخرى تقول " لم يبتئر عند الله خيراً " بمعنى يدخر.

ومثال ما دل على التعسف في الفهم: فما كان في مواقف خاصة وحالات بعينها، جعلوا منها قواعد عامة مطردة، مثل طلبه ﷺ الشهادة من رجل على فراش الموت ولا يقدر على غيرها، كحالة عمه أبي طالب أو الغلام اليهودي، وكذا حديث درس الإسلام في آخر الزمان حتى لا يدري ما صيام ولا صدقة ولا نسك، فاستنتجوا من ذلك أن الإقرار وحده يكفي لإثبات الإيمان الحق.

<u>أول الشبهات :-</u>

نبدأ مستعينين بالله في إيراد الشبهات الثلاث الأُول والرد عليها

أ - النصوص التي تشير إلى أن الإيمان محله القلب مثل قوله تعالى:" **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم** " .

ب - النصوص التي تشير إلى مغايرة الإيمان للعمل الصالح مثل قوله تعالى : " **الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات...**"

جـ - النصوص التي ترتب العمل على الإيمان مثل قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم...**" وغيرها .

وإنما أجملناها معاً لأنا تناولنا في الفصل الأول من هذا الباب ما يثبت أن الإيمان الحق لا ينحصر في القلب وإنما هو مجموع إيمان القلب (الباطن) وإيمان الجوارح (الظاهر)، وبتفصيل أكثر أنه المكون من أعمال القلوب جميعها وأعمال الجوارح (الصالحات) بما فيها الشهادة، وفي هذا ما يكفي لمن أنصف ولكن سنعرج إلى كل حالة بمزيد بيان.

☜**أما عن النصوص التي تشير إلى أن القلب هو محل الإيمان** ، مثل قوله تعالى:" أولئك كتب في قلوبهم الإيمان"، وقوله تعالى" إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان" وقول الرسول ﷺ " اللهم ثبت قلبي على دينك ". قالوا: فدلت هذه النصوص ونظائرها على أن الإيمان فعل القلب وليس فعل القلب إلا التصديق.

ونقول **أولاً:-** إن هذه النصوص أشارت إلى إيمان القلب ولم تحصر الإيمان فيه بأي دلالة لغوية على الحصر وبأيٍ من أساليب القصر المعروفة، ولم تنف الإيمان عن غيره، فَمِن أينً إستفادوا هذا الحصر؟.

ثانياً:- قولكم أنه ليس في القلب إلا التصديق لا ريب مصادم بالنصوص التي تثبت غيره من أعمال القلب مثل المحبة والتوكل والخشية والخضوع والرضا والتسليم لله، وضدها لغيره، وكذا المحبة والتواضع والحياء مع أولياء الله وضدها لأعدائه، وكذلك النصوص التي تشير إلى انتفاء الإيمان وعدم اجتماعه في القلب مع بعض الآفات مثل الكبر والحسد، واستحقاق أصحاب هذه الآفات عدم دخول الجنة وهي جزاء الإيمان الحق بكل شروطه.

ثالثاً:- أن هناك من النصوص التي سقناها والتي تثبت تصديق القلب ويقينه لدى بعض الكفار وأهل الكتاب ولم تخرجهم عن الكفر أو تثبت لهم استحقاق اسم الإيمان وإن عبر فيها عن التصديق بالإيمان مثل قوله تعالى: " فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به .." فعلمنا أن تصديق القلب ليس بكاف في إثبات الإيمان الحق.

رابعاً:- قول الرسول ﷺ " اللهم ثبت قلبي على دينك " يفيد تغير إيمان القلب – زيادة أو نقصاً – فهل تقولون بذلك؟ وهذا من الإجتزاء في الإستدلال.

خامساً:- النصوص التي سبق ذكرها في أول الباب والتي سمى رسول الله ﷺ فيها أعمال الجوارح إيماناً يوجب الجنة، مثل حديث وفد عبد قيس وفيه" مرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة " .

فأمرهم بالإيمان بالله وحده، وعرفه بالشهادة والصلاة والزكاة والصوم وغيرها، ومثل حديث شعب الإيمان، وحديث الأعرابي حيث جعل شرط دخول الجنة صدقه في أداء شرائع الإسلام.

والنصوص التي تسمي الأعمال إيماناً أكثر من أن تحصى وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان تراجم كثيرة لذلك مثل (باب الجهاد من الإيمان، باب صوم رمضان من الإيمان، باب الصلاة من الإيمان ...)، وغير ذلك وأورد فيها أحاديث كثيرة.

سادساً:- هناك من النصوص الكثير التي تنفي الإيمان عن الواقع في المعاصي بشروطها كما بيَّنا مثل: " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن "، قوله" والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قالوا خاب وخسر يا رسول الله، فقال من لم يأمن جاره بوائقه" أو " من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم " والنصوص التي تنفي دخول الجنة عن النمام والديوث وقاطع الرحم والعاق وغيرها من النصوص التي أولوها واستقامت لنا بشرط التوبة وعدم الإصرار ليس إلا، فهل هذا شرط معجز حتى تؤلووا بدونه مئات النصوص؟.

سابعاً:- النصوص القرآنية الشريفة التي أتت بصيغة القصر لتحدد لنا ماهية الإيمان الحق والتي تقول إنما المؤمنون، والمؤمنون حقاً هم من اجتمعت في قلوبهم سائر أعمال الإيمان وليس التصديق فحسب بالإضافة إلى إنقياد جوارحهم بفعل الطاعات، فهل اعتمدتم ذلك الحصر وتركتم ما عداه تصديقاً لربكم وإيماناً بأنه من أصدق من الله حديثاً؟ أليست هذه النصوص مصادمة لحصركم الإيمان في القلب؟ بل في عمل قلبي أوحد لا دليل فيه على الحصر وإنما تثبته ولا تنفي غيره. فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

☜**أما عن استدلالهم بالآيات التي تجمع بين الإيمان والعمل الصالح** كما في قوله تعالى: " الذين آمنوا وعملوا الصالحات..." واستدلوا على أن العطف للمغايرة فعلم أن الإيمان غير عمل الصالحات، وقالوا لا يعطف جزء الشيء على كله، ولا يعطف أحد المتساويين على الآخر.

نقول __أولاً:__ نكرر ما قلنا أننا قد أثبتنا أن كلاً من إيمان القلب (الباطن)، وإيمان الجوارح (الظاهر) لا يسمى إيماناً حقاً بمفرده لوجود الأول لدى الكفار، ووجود الثاني لدى المنافقين، وأكدنا أن كلاً منهما جزء أو ركن في الإيمان الحق، وأن الإيمان الحق يتألف منهما مجتمعين، وأن الجزاء يترتب عليهما مجتمعين، فهو علاقة تركيبية وإذا اجتمعا خصت أعمال القلب باسم الإيمان، وإيمان الجوارح بالإسلام أو عمل الصالحات، وهذا ما قرره الإمام ابن تيمية ونقله في مجموع الفتاوي عن أبي طالب المكي بقوله: " الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فقال في تحقيق ذلك " فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه" .

وقال في تحقيق الإيمان بالعمل" ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات أولئك لهم الدرجات العلا ".

فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يثبت معه توحيد".أ.هـ

__ثانياً:__ أما قولهم ولا يعطف جزء الشيء على كله، فهو إنحراف في الرأي مرده إلى استخدامهم مصطلحات المتكلمة التي غالباً ما يموهوا بها ويشغبوا بها على المخالف من حيث إنها قد تجد قبولاً كمقدمة منطقية ولكنهم لو قالوا عطف خاص على عام وهذا غير ممتنع في اللغة ولا في الشرع فسيظهر عوارهم فانحرفوا عنه لتحقيق مقصدهم، وهذا ما ورد في الشرع كثيراً مثل قوله تعالى: " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .." حيث أن تحقيق العبودية إنما يتأتى بإقامة الصلاة وغيرها من الشرائع ولذلك عقب على ذلك بقوله **" وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ "** .

وإن كان الأصح والأدق أن يقال عطف جزء الإيمان الظاهر على جزءه الباطن لتلتئم منهما حقيقة الإيمان الشرعية فإن الشيء المركب من جزئين لا يمتنع عطف أحدهما على الآخر وإن كان أحدهما إذا أطلق يشملهما اسمه معاً وذلك في مواضع الإنفراد، واختص إيمان القلب بلفظة الإيمان حين الإقتران.

☜**أما استدلالهم بالنصوص الدالة على الأوامر والنواهي بعد إثبات الإيمان** في مثل قوله تعالى: **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... "** فقالوا إن الله تعالى جعلهم مؤمنين قبل أن يكتب عليهم الصيام فلو كان الصيام جزء من الإيمان لما كانوا مؤمنين إلا بعد القيام به، وكذا سائر الأعمال.

نقول **أولاً:** قولهم أن الله جعلهم مؤمنين قبل أن يمتثلوا فنسألهم ما قولكم في قوله تعالى:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ..."؟ فهل جعلهم الله أيضاً مؤمنين قبل أن يؤمنوا بالله ورسوله...الخ؟ فبأي شيء آمنوا إذاً. وبم جعلهم مؤمنين؟

وفي مثل قوله تعالى**" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه ... "** الآية فبأي شيء تحقق الإيمان على- فهمكم – إذ لم يؤمنوا بعد برسوله؟

وإنما المقصود أن الله تعالى يوجههم إلى ما يحقق إيمانهم ويجعلهم مؤمنين حقاً، وإلا سيبقى محض زعم كما في قوله تعالى: " ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين " فجعل التولي عن الطاعة نافياً للإيمان وكاشفاً عن كونه كان مجرد زعم.

وكذا في قوله تعالى: " **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آَمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ** " فجعل التحاكم إلى الطاغوت مبرراً لجعل إيمانهم مجرد زعم وليس حقيقة وهل حسب المدعون أن يتركوا أن يقولوا آمنا دون تكاليف ودون ابتلاءات؟ وكيف يعلم إيمانهم الحق من الزعم " **فَلَيَعْلَمَنَّ**

اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ " ، " وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ".

وفي قوله تعالى:" ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب "، يعني المدعين إيماناً.

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون إمتثال ودون تمحيص؟ بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

<u>ثانيا:</u> وقد تأتي النصوص ويخاطبهم الله بالذين آمنوا ثم يعلق إيمانهم على الإمتثال بترك المعاصي أو فعل الطاعات كما في قوله تعالى: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ".**

وفي قوله بعد آيات خاطبهم فيها بالذين آمنوا " **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ..."** فعلق الإيمان على الوفاء بحق الله في المغنم.

وعلق إيمانهم وإسلامهم على توكلهم على الله وعدم الخوف من عدوهم وهي أعمال قلبية غير التصديق الذي تزعمون أن ليس في القلب غيره، حين يقول على لسان موسى عليه السلام " **وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ".**

<u>ثاني الشبهات(حديث الجارية):-</u>

وهو الحديث الذي طبقوا عليه قواعدهم المنطقية ليخلصوا منه إلى أن الإيمان هو التصديق رغم أنه لا يحمل أي إشارة إلى التصديق وإنما قصاراه الدلالة على الإقرار الذي لا يعدو أن يكون مبتدأ الإيمان الظاهر لإجراء الأحكام الدنيوية كما في حديث المقاتلة وغيره. وإليك الحديث..

1- حديث جارية معاوية بن الحكم السلمي كما يرويه عنه مسلم في صحيحه قال:-

" كانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكنى صككتها صكة، فأتيت رسول الله فعظَّم ذلك عليَّ، قلت يا رسول الله أفلا

أعتقها؟ قال: إئتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت في السماء، قال: من أنا، قالت أنت رسول الله، قال: فاعتقها فإنها مؤمنة ".

2- ورواه أحمد في مسنده عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء وقال: يارسول الله : إني عليَّ رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها؟ فقال رسول الله ﷺ : أتشهدين أني رسول الله؟ قالت نعم، قال: أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت نعم، قال: اعتقها "

ووجه الإستدلال أن النبي ﷺ : شهد لها بالإيمان دون أن يشترط العمل ، فالإيمان يثبت بمجرد الإقرار وإن قالوا التصديق.

نقول: هل المقصود في الحديث هو بيان حقيقة الإيمان الشرعية، أم بيان ظاهر الإيمان الذي تتعلق به الأحكام الدنيوية، من تزاوج وعتق وميراث وغيره؟ مثل قوله تعالى :" **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَات ..**" حيث أن إيمان القلب (الباطن) لا سبيل إلى علمه، إذ أن مورد الحديث كما حكاه الصحابيان المعنيان بأمر الجارية فيما إن كانت تجزئ في العتق كرقبة مؤمنة أم لا تجزئ، فالموضوع لا علاقة له ببيان حقيقة الإيمان الشرعية.

وهذا ما أكده الإمام ابن تيمية حين رد على هذا الاستدلال بقوله: " وهذا لا صحة فيه لأن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن، فإن المنافقين الذين قالوا: آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين، وهم في الظاهر مؤمنون، يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون يناكحوهم ويوارثوهم، كما كان المنافقون على عهد رسول الله، ثم قال:- " والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة، لم يكن على الناس ألا يعتقوا إلا من يعلمون الإيمان في قلبه، وهم لم يؤمروا أن ينقِّبوا عن قلوب الناس".

نقول ولا أحد من الناس يعلم ذلك ولا حتى رسول الله حيث يقول عنه ربه " لا تعلمهم نحن نعلمهم " ويستكمل الإمام قائلاً " والمقصود أن النبي ﷺ إنما أخبر عن تلك الأمَة بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة، وإلا فقد ثبت عنه أن سعداً لما شهد لرجل أنه مؤمن قال: أو مسلم " وكان يظهر من الإيمان ما تظهره الأمَة وزيادة ". انتهى

ونكتفي بهذا القدر ففيه الكفاية لمن أنصف.

مجموعة أخرى من الشبهات النصية:-

سنجملها هنا لأن وجه الإستدلال منها واحد ثم نشرع مستعينين بالله في الرد عليها تفصيلاً.

<u>أولاً:</u> نصوص تبين أن النبي ﷺ قد اقتصر في أمره لدخول الناس الإسلام على قولة

" لا إله إلا الله " ومنها:-

1- قوله ﷺ لعمه وهو على فراش الموت : يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله .

2- حديث الغلام اليهودي المحتضر. وفيه " أن النبي ﷺ زار يهودياً وابناً له مريضاً على فراش الموت، فأمر الشاب أن ينطق بالشهادة، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: الحمد الله الذي أنقذ بي نفساً من النار.

3- كذا الأحاديث المروية عن المقداد وخالد وأسامة وفيها يقول رسول الله " أقتلته وقد قال لا إله إلا الله .." فقالوا إنما يكفي للإسلام أو الإيمان الحق مجرد الإقرار.

وإجمالاً نقول إن هؤلاء إما كانوا على فراش الموت أو حيل بينهم وبين استئناف الحياة بالقتل فلم يكن في مقدورهم أن يأتوا بغير الشهادة، والشهادة مدخل للإسلام وليست كل الإسلام أو الإيمان الظاهر الذي قد يكون حقاً وقد لا يكون، فمن قالها وحال الموت بينها وبين بقية الإسلام حكم بإسلامه، شأنه في ذلك شأن من قالها وصلى ثم حال الموت بينه وبين الصيام والزكاة.... أما من قالها ولم يمت فهو مطالب بكل حق للإسلام وإلا فقد أمر الإسلام بقتاله بمقتضى حديث أمرت أن أقاتل الناس..." وغيره هذا مجرد تعقيب فقط ثم نستكمل الرد بعد بيان باقي الشبهات.

<u>ثانياً:</u> <u>حديث السجلات أو البطاقة:-</u>

وملخصه " أن رجلاً يؤتى على رؤوس الأشهاد وتخرج له سجلات مد البصر مليئة بذنوبه فتوضع في الميزان حتى يظن أنه هالك – ثم تخرج

بطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع في الميزان فتطيش السجلات ولا يثقل مع لا إله إلا الله شيء".

واستدلوا أن مجرد التلفظ بلا إله إلا الله يوجب دخول الجنة مهما عمل، ولم لا وقد ثقلت موازينه؟ نسأل هل سيحدث ذلك مع كل صاحب بطاقة فيعافون مثله ولن يعذب أحدٌ؟

ثالثاً: أحاديث الشفاعة :-

1- ومنها قول الرب تبارك وتعالى " وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله " البخاري

2- ما ورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وفيه " فيقول الله ﷻ : شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر من أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل "

قالوا إن الله أخرج من النار قوماً جاءوا بتصديق مجرد لا عمل معه، فدل ذلك على أن العمل ليس ركناً في الإيمان، فهؤلاء حقيقة الإيمان ثابتة لهم بالتصديق.

نقول تعقيباً فقط: الرواية السابقة ذكرت أنهم لم يعملوا خيراً قط ولم تذكر حتى الشهادة ولا التصديق وفي رواية البخاري الآتية هذه ذكرت الشهادة وذكرت آثار سجودهم – ألا يدل ذلك على شيء؟

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة " حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار ممن كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم بأثار السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل" .

رابعاً: حديث الرجل الذي أوصى أبناءه أن يحرقوه بعد وفاته خوفاً من الله وفيه" قال رجل لم يعمل خيراً قط: إذا مات فحرقوه..." وسنذكر سائر

الروايات لنبين الانتقائية البغيضة التي اعتادوها لاثبات المذهب وفي نفس السياق نذكر حديث الرجل الذي قتل مائة نفس فقالت عنه ملائكة العذاب:" إنه لم يعمل خيراً قط " ولم يذكروا قول ملائكة الرحمة " أنه جاء تائباً على ربه ".

نقول: أما عن استدلالهم بتلك النصوص فإنهم كعهدنا بهم قد التقطوا من الروايات ما يخدم معتقدهم فبعضها ينص على أن الناجي من النار لم يعمل خيراً قط ولم ينص على الإقرار مثل رواية مسلم في الشفاعة وبذلك وجب إخراج العمل والإقرار من مسمى الإيمان ويكتفى بالتصديق المجرد على قول البعض، وبعض الروايات ذكرت مع عدم العمل الاقرار بقولة لا إله إلا الله فحسب ودون شروطها كسائر الروايات وبها قال من قال بإدخال الاقرار كشطر أو شرط في صحة الإيمان.

الرد أولاً : نقول: إن هذه الروايات لم تشترط مع القول الصدق ولوازمه وقد علم من نصوص أخرى شرطيته مثل (صدقاً من قلبه – مخلصاً بها قلبه – مستيقناً بها قلبه – يبتغي بها وجه الله ... الخ).

فهل يكتفى بتلك الروايات ونسقط شرط الصدقية؟ أم نضيف إليها غيرها من النصوص لنستوفي سائر الشروط؟ فما هو معلوم أن المنافقين يقولونها بل ويعملون ولكن دون مصداقية ولذلك استحقوا الدرك الأسفل من النار واستثنت الآيات التاليات من سورة النساء من هذا المصير الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله، فاستحقوا بذلك معية المؤمنين. كما يخبر عنهم رب العزة بقوله تعالى" **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)** [النساء]

كما أن هناك من قالها وكان من أهل النار كما ورد في رواية البخاري لحديث الشفاعة وفيه " أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيء ممن أراد أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله.

فما الذي فعله صاحب البطاقة ليثقل ميزانه ويكون من المفلحين غير القولة والتي لم ينص على غيرها؟ وقد قالها غيره ونال ما نال من الخلود

في النار أو يكون آخر من يخرج منها بعد أن مكث فيها خمسين ألف سنة، ولم تطش قولتهم السجلات ولم تثقل موازينهم مثله، فيثبقى الاحتمال الآكد أنه قالها حال إسلامه ومات فجب الإسلام ما قبله.
أم ماذا تظنون بربكم وبماذا تأمركم به أحلامكم؟ بل أنتم قوم طاغون؟
ثم إن الروايات لم تشترط شهادة أن محمداً رسول الله مع أنها شرط لمن سيخرجهم النبي ﷺ من النار لأنهم من أمته... أم ماذا تقولون؟
إذن هناك شروط لم تتضمنها تلك الروايات ووردت في روايات ونصوص أُخر، إما بعبارة النص أو بلازم العبارة المنصوص عليها أيضاً وبالتالي وجب جمع الروايات والنصوص لاستيفاء سائر الشروط وهذا هو السبيل الوحيد للوقوف على الفهم الحقيقي فما نقص في نص أو رواية استوفى في أخرى وما أجمل في واحدة استبان من أخرى، فالنصوص تفسر بعضها البعض، وإنما عدلوا عن هذا السبيل لأنهم لم يكونوا يبغون معرفة الحق وإنما هو الشغب والانتصار للهوى وضرب النصوص ببعضها.
<u>ثانياً</u>: ولنا وقفة طويلة مع عبارة " لم يعمل خيراً قط " كما وردت في شأن الذي قال لبنيه إذا مت فأحرقوني، فكما جاء في روايتهم أنه لم يعمل خيراً قط، جاء في رواية البخاري قول النبي ﷺ عنه :" كان في من قبلكم رجلاً يسيء الظن بعمله "، فهو يثبت له عملاً ويثبت أيضاً منتهى الخشية من الله تعالى والتواضع حتى أنه لم يره عملاً ينفعه كحال من قال فيهم رب العزة " والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ... " ثم صح عن البخاري أيضاً رواية قال فيها لبنيه حين الوفاة " أي أب كنت لكم، قالوا خير أب، قال فإن أباكم لم يبتئر عند الله خيراً "
فما معنى جوابهم " خير أب " ؟ وكيف يكون خير أب إن لم يربهم ويعلمهم دينهم وينصح لهم؟ أليست هذه أعمالاً ؟ وإلا فما معنى الخيرية ؟ وقوله " فإن أباكم لم يبتئر عند الله خيراً " أي يدخر فهو يرى أن عمله كفافٌ، وهذا من إساءته الظن بعمله، فإنه يرى أنه لم يأت من الحسنات وأعمال الخير القدر الذي يذهب به السيئات فهو يرى أنه بلا ريب مؤاخذ وإن لم تذكر له سيئات فلا يسلم منها ابن آدم.

فكما ترون خشية وتواضعاً، ونصحاً للأبناء وتوجيهاً هذا ما كشفت عنه ألفاظ النصوص ولوازمها وهناك المزيد الذي لم تكشفه ثم يقولون تصديق مجرد يا حياءً ما لهم لا يستحون.

وفي حديث الشفاعة في رواية البخاري " فيعرفونهم بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود " فقد سجدوا وصلُّوا وبه تميزوا عن الذين لم يستطيعوا السجود يوم يكشف عن ساق ورغم ذلك كانوا من أهل النار.

أليس هذا عملاً؟ هذا الذي لم يعمل خيراً قط في رواية مسلم.

وفي حديث قاتل المائة نفس قال عنه ملائكة العذاب " إنه لم يعمل خيراً قط " وهذا ما التقطوه فهو ما يعنيهم، ولم يلتفتوا إلى سائر عمله الذي لا يعنيهم وما قالته ملائكة الرحمة: " أنه لقى الله تائباً " وهو ما يضنون به على الله، فلو مات أحد عليها وإن أتى قراب الأرض خطايا، مات لا يشرك بالله شيئاً هوىً كان أم شيطاناً فقد انخلع من طاعتهما إلى رحمة الله.

ثم إن الحديث يكشف عن حرصه الدءوب على التوبة حتى قتل بسببها الذي حال بينه وبينها، وتقبل النصح وسارع إلى الهجرة من أرض السوء لينجو، ترك أرضاً لا يخشى فيها أحداً، ولم يحمله على تركها إلا الخوف من الجليل، فهي أرض تيسر له المعصية، وتركها إلى أرض الصالحين حيث الطاعة والتقوى فكان مستحقاً وجديراً برحمة أرحم الراحمين.

أليس هذا من لم يعمل خيراً قط كما تفهمون ؟

وليس هناك ثمة تعارض بين النصوص، ولكن نشأ التعارض من سوء فهمكم لكلمة خير التي وردت في الروايات، فلو عقلتم لألحقتموها بالتطوعات والحسنات كما دلت عليها بعض النصوص كما في صحيح مسلم " لم يعمل حسنة قط " وفي رواية البخاري " لم يبتئر عند الله خيراً " أي لم يدخر وهذا الصق بالتطوعات، في مثل قوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم ترحمون " فبعد ذكر الفرائض وسائر العبادة ثنى عليها بالخير .

وقوله تعالى : " فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " وفيها إشعار بأنه من

تطوعات الخير حيث عقب عليها بقوله تعالى: " إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم"

وقد أقرض ابو الدحداح ربه حديقته نافلة كما نزلت هذه الآية.

ثالثاً: نقول ونحن بصدد استيفاء سائر الشروط من ذات النصوص من عباراتها أو لوازم عباراتها كما دلت عليها باقي النصوص.

تقول رواية البخاري " حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد أراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار " وفيها أيضاً " ممن أراد الله أن يرحمه "

والآن نسأل إلى من تتوجه رحمة الله التي كتبها على نفسه وقال وسعت رحمتي كل شيء؟ قال تعالى: " **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** " فهؤلاء الذين وسعتهم رحمة الله، وهو ما وعته الملائكة عن أهل رحمة ربهم حين يقولون " **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** " هؤلاء هم من سيرحمهم ويقيهم عذاب الجحيم، فإذا ما وقعوا في المعاصي وعملوا السوء بجهالة فهل هم من أهل الرحمة؟

قال تعالى: " **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** " أرأيت لمن كتب الله الرحمة وصرفها إليه من تاب وأصلح وليس من أصر وعاند، فأضيف إلى الشروط السابقة شرط التوبة وهو ما ذكرته ملائكة الرحمة، أقول: ملائكة الرحمة في شأن قاتل المائة نفس، أنه لقى الله تائباً، وهو الشرط الآكد الحاسم واليسير على من يسره الله ليستحق الرحمة وينجو من الخلود في النار بإصراره وهو من حبسه القرآن كما في رواية البخاري في حديث الشفاعة وفيه " ثم أرجع فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود "

مصداقاً لقوله تعالى " **بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون** " فقد كسبها وصحبها معه فهو صاحب

الكبيرة الذي لم ينفك عنها وينفصل بالتوبة والعمل الصالح والتي ضنوا بها على ربهم.

كل هذه الشروط والأعمال التي تضمنتها النصوص وتبينت من جمعها من خوف وخشية وذلة وتواضع وتوبة وإنابة وصلاة وصيام وهجرة... ثم يقولون أنه مجرد تصديق مع إقرار أو بدون. لا أدري من أي دين أو شريعة أو كتب استقوا تلك العقيدة الفاسدة وكلهم يسمونها عقيدة أهل الحق أو أهل السنة، والسنة منها براء .. براء.. براء.

الباب السادس
الصراع بين الحق والباطل

ويشتمل على ثلاثة فصول:-

- الفصل الأول: موكب النور، ويتضمن مبحثين:
  - المبحث الأول: حقيقة الغاية وموكب الرسل الكرام.
  - المبحث الثاني: مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه.
- الفصل الثاني: حقيقة الصراع، وفيه مبحثان:
  - المبحث الأول: ضرورة الحسم كما وعاه سلف الأمة.
  - المبحث الثاني: التهوين وغياب الحسم عند بعض الخلف.
- الفصل الثالث: أثر دين المرجئة على واقع الناس ومعتقدهم.

الفصل الأول
موكب النور

المبحث الأول: حقيقة الغاية وموكب الرسل الكرام

سبق أن أشرنا إلى أن الإقرار بالربوبية والوحدانية كان أمراً مستقراً في الفطرة الإنسانية لكل البشر منذ بدء الخلق وهم بعد في أصلاب آبائهم، ثم إنهم لمجموعون ليوم لا ريب فيه. فيسألهم ربهم عن عهده لهم، ولا سبيل لهم لادعاء الغفلة عنه أو الاحتجاج بداحض حجتهم من تقليد الآباء واتباعهم بغير بصيرة، فقد أخذ عليهم الميثاق وأقيمت عليهم الحجة.ويشهد لذلك إجابات المشركين حين يُسألون عمن خلق السماوات والأرض، ومن بيده ملكوت كل شيء ومن يدبر الأمر ويكفل الرزق ويهديهم في ظلمات البر والبحر، ولذا كان ملجأهم وملاذهم إذا ما حزبهم أمر وضاقت بهم السبل دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. أليست هذه هي الفطرة التي لا ينكرها إلا المكابرون.

وحتى لا يدعي البعض الغفلة عنها فقد أثبتتها آية الميثاق في قرآننا، حيث يقول رب العزة: " وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون " إنهم حقاً المبطلون الذين أرادوا إبطال تلك الحقيقة وطمس تلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها ويغيروا الدين القيم الذي دانهم به والحنيفية السمحة التي لا عوج فيها، وعنها يقول رب العزة فيما رواه مسلم " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " واقرأ معي إن شئت قوله تعالى" **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)** "وقوله " **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** " كان هذا قبل بعثة الرسل الذين أرسلهم الله ليحققوا العبودية الكاملة لله وحده وليس الإقرار السابق في الفطرة، وذلك من خلال شرائع

ومناهج عملية تضمنتها كتب سماوية منزلة من عند الله لا دخل للبشر فيها بحذف أو إضافة، إليها يتحاكم الناس في شتى جوانب حياتهم، وتحسم الخلاف بينهم وتدرأ الفرقة عنهم، وليقوم الناس بالقسط، مصداقاً لقوله تعالى:

" كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه.. "

وقوله تعالى: **" شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ..."**

ثم قال تعالى بعدها: **" فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم ..."**

وقال تعالى:**" لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..."**

فلم تكن الغاية أبداً هي الإقرار أو حتى مجرد نسك تؤدى وعبادات تقام هنا وهناك ولكنها شريعة سماوية تتبع ومنهج حياة ينتهج مصداقاً لقوله تعالى : **" ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُون "**

وقوله تعالى: **" قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) "** صلاة ونسك ومحيا وممات لله رب العالمين بذلك أمر صلوات الله عليه وهذا هو تمام العبودية لله وبذلك أمر الجن والإنس " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون "**.

وأمر الرسل الكرام " **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت "** يعبدون الله تلقياً لشريعته واتباعاً لمنهجه، ويجتنبون الطاغوت شرعة ومنهاجاً يتبع وإلا فهم ممن قال عنهم ربهم " **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ.."**

إن العبودية لله لا تتحق ولا تستقيم في ظل أوضاع اجتماعية شائنة من ظلم وزور وبخس وتطفيف، ومفاسد وفواحش وتلك الآفات الخطيرة، فلا

صلاة تقبل مع منكر وفحشاء ولا صيام يصح مع قول الزور والعمل به وهكذا.

فلابد لتحقيق العبودية من الأمرين معاً عبادات ونسك يوفى بها حق الله علينا وشكراً لأنعمه وشرائع ومناهج تقيم العدل وتحقق القيم العليا والمبادئ السامية.

قال تعالى: " **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...**"

وقال تعالى : " **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** "

وهذا ما بينه كل الرسل لقومهم، وكان مبعث نقمتهم عليهم وإليك هذا المثال في دعوة شعيب لقومه قال تعالى: " **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** "

ولذلك كان رد قومه عليه استنكافاً وتعجباً " **قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء** " رغم أنهم فهموا أكثر مما فهمتم فعلموا أن الدين هو الصلاة، ولكنهم استنكفوا أن يتدخل هذا الدين في الحياة وتصريف الأموال وغيرها.

ولذلك وضح لهم نبيهم طبيعة رسالته " **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** " فهي عبادة واستقامة وإصلاح وتشريع للحياة وهذا ما فطن إليه فرعون موسى حين قال: " **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** " فقد كان يقصد ما قاله: " **مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** " وفطن إليه كل طواغيت الأرض ولكنه شغب أولياءهم والموطئين لهم ملكهم حيث جعلوا ما استقر في الفطرة قبل بعثة الرسل هو غاية الله من العباد ومراده منهم.

فهل أدركوا الآن حقيقة الغاية؟ وكيف انحرف الناس بها عن موكب الرسل الكرام؟
خابوا وخاب مسعاهم...

المبحث الثاني: مع الأحبة محمد ﷺ وصحبه

استجلاء حقيقة الإيمان كما عاشها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام من أول يوم:-

إن البداية تشير إلى طبيعة الرسالة، وحجم المعاناة، وثقل التكليفات، والتي تتطلب أول ما تتطلب إعداداً ربانياً خالصاً يتسق مع عظم المهمة وجسامة التكاليف للشخص المصطفى المؤهل لحمل الأمانة وما يجب أن يتحلى به من شمائل وخصال تجعله مظنة الخير والرحمة والهداية فهو السالم من الرزايا، والمبرأ عن الدنايا، والصادق الأمين، يصل الرحم، ويحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق.

فبدأ الأمر بإعداده لتلقي خبر السماء فتوالت عليه الرؤى الصالحة الكاشفة والمتحققة كفلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يتحنث في غار حراء، ويتزود لذلك، هل كان غيره يفعل ذلك؟ إنه المصطفى ... حتى جاءه الملك وهو في الغار، فقال: إقرأ.. أمي يخاطبه رسول السماء بإقرأ، ليعلمه أن آيته للناس قرآناً ودستوراً وقولاً ثقيلاً سيعاني الكثير في تحمله وتبليغه للناس، يعظم فيه الرب الخالق المستحق وحده للعباده والشكر على أنعمه وتوالت الآيات تؤكد ذات المعنى " **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(1) قُمْ فَأَنْذِرْ(2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ(3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ(5)** " فالغاية من الرسالة التي سينذر بها الناس هي تعظيم الرب وهجر ما عداه في صورة تكليفات تبدأ بتطهير الثياب لأنه سيكون في حضرة الجليل طول الوقــت " **قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآَنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (6) إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (7)** " ولم يكن النبي وحده المعني بتحمل تلك المشاق ولكن كل من سيتبعه على هذا الأمر من الصحب الكرام.

فكلفوا من أول يوم بما كلف به النبي كما تروى السيدة عائشة وهي تجيب من سألها عن قيام النبي ﷺ فقالت: " ألست تقرأ يا أيها المزمل؟ قال: بلى، قالت: فإن الله ﷻ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام

نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً كاملاً، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة ".

رواه أحمد ومسلم، وفي روايات لغيرهما أنهم قاموا حتى ورمت أقدامهم. وامتدت المعاناة إلى التكذيب والسب والتعذيب الذي وصل إلى محاولة القتل للنبي نفسه بل وقتل من أصحابه ياسر وزوجته سمية رضي الله عنهما، وما كان يعانيه بلال وهو يسحب في رمضاء مكة وغيره، ولا يملك النبي رفع الأذى عنهم فيصبرهم ويبشرهم بالجنة فيصبروا، حتى من استعجل منهم النصر من وطأة العذاب ذكرهم بسنة الله في أصحاب الدعوات السابقة، كما يروي البخاري عن خباب قال: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدة، فقلت يا رسول الله، ألا تدعوا لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه " يغضب النبي من استبطائهم وعد الله رغم ما يراه.

فقال تصبيراً لهم :" لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه " ثم يسري عنهم وهو الرحمة المهداة فيقول " وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه ".

والآن نسأل القوم أكانت تلك المكابدة والمعاناة حتى وهم في البدايات من أجل مجرد إقرار لاتبعة له ولا حقوق بعده؟

لقد كانت الشهادة تعني لهم الكثير، إنها المفاصلة الكاملة بين حياة الكفر بما فيها من عبادة ومناسك وولاء ووشائج، وأعراف وشرائع، وقيم ومبادئ. وبين حياة الإيمان بما تتضمنه من نقيض ذلك وزيادة عليه من عداء مستحكم للكفر والكافرين ومكابدة وتحمل وصبر بلغ أوجه مع تحقيق فريضة الهجرة بما تعنيه من إيثار للدين والفرار به وترك الأهل والمال والأرض، وتحمل مشاق الطريق والخوف من المجهول ثقة بوعد الله.

وقبل كل ذلك وبعده تغير النمط الاجتماعي الذي ألفوه، فبعد أن كانوا فرادى لا ضابط لحركتهم وتوجههم كل يعمل على شاكلته، غدوا جمعاً

موحداً معتصمين بحبل الله لهم إمام يقودهم، يأمر فيسمع له ويطاع اصبروا .. كفوا أيديكم .. أقيموا الصلاة .. آتوا المسكين حقه وابن السبيل .. بكل ما تعنيه اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً .. فلا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وإلا فمن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً .

ثلاث عشرة سنة من الابتلاء والتمحيص مصداقاً لقوله تعالى " **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون** " حتى إذا ما استقر بهم المقام في أرض الهجرة ولم تمض غير سنة تعافوا فيها قليلاً، واشتد ساعدهم هونًا ما ونزلت الآيات تطمئنهم على إيمانهم – وهو غايتهم – وتصفهم بأنهم المؤمنون حقاً ولم لا فهم المتوكلون على ربهم، يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، يزداد فيها الإيمان واليقين، فلا غرو إذا إن يكونوا هم المستحقون المغفرة من ربهم والدرجات العلى والرزق الكريم.

سنة واحدة وإذا برسولهم يطالبهم بالخروج لملاقاة العدو، وإذا بالأمر الإلهي يخاطبهم: " يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار " .

ولكنها النفس البشرية التي تركن إلى الدعة وجني الثمار بأقل تكلفة " وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم " وتكره الموت فالخروج إنما يعني لهم أنهم يساقون إلى الموت، وفيهم أهل المدينة لم يمحصوا مثلهم ولم يبايعوا على الخروج للقتال وإنما على المنعة فحسب. وعلم الله ضعفهم فكان الوعد بالنصر والمدد المتوالي، والبشرى، والأمنة، والتثبيت والتطهير من رجز الشيطان، حتى تعليم فنون القتال: " **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ** "، وإن كانت الحقيقة " فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم " ولتتحدد الغاية بعدها بشكل أوضح " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " .

قاتلوهم حتى لا يكون كفر وتكون الدينونة كلها غير منقوصة لله؛ فهل سيحقق هذه الغاية القاعدون عن العمل فضلاً عن الجهاد؟ هل أدركتم أيها الناكثون يا من حولتم هذه المشاهد الإيمانية الرائعة إلى مجرد نظريات

فارغة وتهويمات مجردة لا حياة فيها ولا صدق؟ هل أدركتم هذا التفاعل الحي بين الله وحزبه؟

ربٌ أراد سبحانه أن يعبد بما شرع، فيصطفي عباده المختارين، يربيهم ويصنعهم على عينه، فيعلنون ولاءهم خالصاً له ويسارعون إلى الطاعة والامتثال، ليمحصهم، فيكابدون ويتحملون ويصبرون ويصدقون فتكون الرحمات ويكون لهم إحدى الحسنيين.

هل أدركتم هذه المعاني؟ وأيم الله إنها لم تخطر ببالكم إذ كنتم في معية الشيطان وأنتم تقررون ما يمليه عليكم، وزين لكم أعمالكم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس، وحين تتجلى الحقيقة ينكص على عقبيه قائلاً إني بريء منكم إني أخاف الله والله شديد العقاب.

هذا عن أول معركة، وكان العود مازال غضاً طرياً والقدرات محدودة، فكان التدخل والمعية على هذا النحو، فهل تمضي الأمور دوماً بهذا اليسر؟

إنه العليم الخبير الذي يدير معاركه مع أعدائه من أولها إلى منتهاها، ومن خلالها يربي ويبتلي وينقي الصف، ويصطفي الصادقين" **فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين** ".

هو يعلم قدرات حزبه وجنده ويعلم طاقتهم البشرية وهل بذلوها طيبة بها نفوسهم أم ضنوا بها على ربهم.

ويعلم أيضاً متى يضعفون فيتدخل رافعاً العنت عنهم، ويعلم دخائل نفوسهم وهل اغتروا بالنصر فنسبوه لأنفسهم أو شُغلوا عن غاياتهم بمتاع عارض فيتخلى عنهم عقاباً وتمحيصاً كيوم حنين وأحد، يقول تعالى: " **...وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِين** " وفي أحد يقول:" **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** " ويقول أيضاً " **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا** " ما كسبوا من الذنوب وآفات النفس وأمراض القلوب، وهكذا فريق يشذ ولا يفطن إلى

حقيقة المهمة وينحرف عنها فيكون الابتلاء والاصطفاء " **ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** " ثم " **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِين** ".

وهكذا عشر سنوات أخرى من المعارك والابتلاء والتمحيص فماذا كانت تعني لهم تلك المعارك؟ وكيف يرونها؟ ستجدون الإجابة في هذا الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ قال: " غاب عمي أنس بن النضر ﷺ عن قتال بدر، فقال يا رسول الله: غبت عن أول قتال قاتلت مع المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليُرينَّ الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس فوجد فيه بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، قال أنس كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وأشباهه" من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " ما الذي حمله على ذلك؟. أتصديق مجرد قد ضمن له الجنة؟.

ولم تكن تلك المعارك الحربية إلا جزء من المعركة الكبرى مع النفس والشهوات والشيطان وهم الأعداء الحقيقيون.

فكيف أداروا معاركهم تلك؟ لقد كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار.

وما قصة أبي الدرداء مع أخيه سلمان بخافية على أحد حتى نصحه سلمان بقوله " إن لربك عليك حقاً،وإن لبدنك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حقٍ حقه "

وكذا قصة عبد الله بن عمرو الذي آل على نفسه أن يصوم النهار ويقوم الليل ما عاش، فراجعه رسول الله وفي كل مرة يقول إني أطيق أفضل من ذلك حتى ألزمه رسول الله بما يطيق.

وقصة حنظلة الذي ظن بنفسه نفاقاً وأخبر به أبا بكر فقال: والله إنا نلقى مثل هذا، - أبو بكر يظن في نفسه نفاقاً مثله ولم يقل أن إيمانه كإيمان الملائكة- فانطلقا إلى رسول الله ﷺ حتى دخل عليه قال حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك! قلت يا رسول الله

نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عاسفنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله : والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة " .

فهل رأيتم كيف يديرون معركتهم مع النفس والشهوات – إنهم يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، ومن لم يظفر منهم بالشهادة كان خائفاً من أن تعجل له حسناته في الدنيا فلا مطمع له في غير الآخرة.

وها هو عبد الرحمن بن عوف ﵁ وهو من العشرة المبشرين بالجنة – وقد أتى له بطعام وهو صائم فيقول: " قتل مصعب بن عمير وهو خير مني وكفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام " البخاري

وها هو ابن مسعود ﵁ كما يحدث عنه مسروق قال: " قال رجل عند عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين أكون من المقربين أحب إليَّ، قال: فقال عبد الله: لكن هناك رجل ود لو أنه إذ مات لم يبعث، يعني نفسه" .

وها هو عمر بن الخطاب ﵁ وسابقته وفضله لا ينكران يحكي عنه ابنه عبد الله فيما رواه البخاري عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قال: " قال لي عبد الله بن عمر: هل تدري ما قال أبي لأبيك؟ قلت لا، قال:فإن أبي قال لأبيك: يا أبا موسى هل يسرك إسلامنا مع رسول الله ﷺ وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه برد (١) لنا وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس؟

فقال أبي: لا والله ولقد جاهدنا بعد رسول الله، وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على يدينا بشر كثير وإنا لنرجو ذلك، فقال أبي: لكني والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك برد لنا، وأن كل شيء عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس، فقلت إن أباك والله خير من أبي ".

1- برد: ثبت

يتهمون أنفسهم بالنفاق ويخافون أن تعجل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ويودون أن لا يبعثوا، ولم ينقل عن أحدهم أنه قال إن إيمانه كمل أو أنه كإيمان الملائكة ولم يخطر ببالهم.

لذلك فقد مدحهم ربهم بقوله تعالى" **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ.."** كيف صدقوا؟

وقال تعالى: " **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.."** [الفتح: ٢٩]

وقال عنهم:" **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** (38) " [النور: ٣٧ - ٣٨]

فهل يسأل هؤلاء عن مكانة العمل من الإيمان؟ وما قولهم إذا سمعوا مقالة السوء هذه أن الصلاة والزكاة ليستا من الإيمان والتي سمعها التابعون؟

ولنا وقفة طويلة مع مثال واحد يوضح موقفهم من تارك العمل - وهو الموقف من مانعي الزكاة – ففيه ... يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى :" **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم** " ولهذا اعتمد الصديق ﵁ في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة حيث حرمت قتلهم بشرط الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ونبه بأعلاها على أدناها.

ثم قال: وقال عبد الله بن مسعود " أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له ".

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: " أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقه "فما الذي فعله أبو بكر هل أتى بشرع جديد ؟ أم استحدث أمراً لم يكن قبله؟ وهل له ذلك؟

إنه لم يفعل أكثر من إمضاء أمر الله في الآية وإعمال سنة نبيه في الحديث " أمرت أن أقاتل الناس ... " .
فهذه سنة الخلفاء الراشدين المهديين، لا يبتدعون ولا يستحدثون، فهي ذات السنة ولذلك قال رسول الله ﷺ عضوا عليها بالنواجذ ولم يقل عليهما، فما الذي عقله الصديق من أمر النبي، وأزال به تردد الفاروق بقوله" والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة " وهل كان ذلك قياساً كما يدعي المبطلون فكلٌ منصوص عليه في الآية والحديث.وقال رضي الله عنه " والله لو منعوني عناقاً أو قال عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم عليه "فانعقد بذلك الإجماع الثاني للأمة عن بكرة أبيها بعد الثقيفة، وفي كلٍ فالعبرة بمستند الإجماع أجمعوا أم اختلفوا لما صح المستند، ولكنا ذكرناه لنبين أن الأمة مجتمعة خرجت وهي منشرحة الصدر لقتال مانعي الزكاة ولم يسألوا أنفسهم هل هؤلاء كانوا مقرين بوجوبها مع امتناعهم عن أدائها أم كانوا جاحدين؟ كما يقول الأدعياء، فلم يشغلهم هذا التنطع وهم عازمون على إهدار دماء كانت بالأمس محرمة عليهم، ولا زالوا يقرون ويصلون ولكنهم فرقوا بين الصلاة والزكاة.
يقول الإمام ابن تيمية " والصحابة لم يقولوا أأنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة، بل قال الصديق لعمر رضي الله عنهما " والله لو منعوني عقالاً..." فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب [١].
وقال الحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام: " جهاد أبي بكر الصديق – رحمه الله تعالى- بالمهاجرين والأنصار على منع الزكاة، كجهاد رسول الله ﷺ أهل الشرك سواء، لا فرق بينهما في سفك الدم وسبي النساء واغتنام المال فإنما كانوا مانعين لها غير جاحدين بها"[٢].
فلم الحيرة في أمرهم؟ ولم يصح النقل أبداً أن المسلمين فرقوا في قتالهم لهؤلاء عن قتال أصحاب مسيلمة والأسود، بل كلهم كانوا على السواء إلا ما فهمه بعض فقهاء الخلف الذين أشرنا إلى بعضهم سابقاً.

---

[١]- الدرر السنية(35/8)
[٢]- الإيمان لأبي عبيد من مجموع الرسائل الأربع التي حققها الشيخ الألباني.

وسنكتفي بهذا المثال الذي شهد إجماع الجيل الفذ على الموقف من تارك العمل بحق من حقوق الله.

وقبل أن نستكمل المسيرة الإيمانية مع موكب النور سنطيل الوقفة مع هذا المثال الذي يبين حقيقة الصراع بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ومتى يحسم؟ فنعود إلى بداية هذا الصراع.

الفصل الثاني
حقيقة الصراع

المبحث الأول: ضرورة الحسم كما وعاه سلف الأمة

إن الله تعالى لما أراد أن يعبد في الأرض لم يشأ أن يخلق خلقاً مجبولين على الطاعة مجبورين عليها فقد تحقق ذلك في عالم الملأ الأعلى، وإنما خلق البشر وأوجد فيهم إرادة الطاعة والمعصية ومشيئة الكفر والإيمان " **فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** " وأوجد لكل محفزاته ومثبطاته، ما يعين على الطاعة وما ييسر المعصية، فجعل في النفس الإنسانية مقومات الخير والشر " **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ". وإن أودعها فطرة تدل على الخير وتنفر من الشر، وهي واعظ الله في القلب.

ثم أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب الهاديات رجاء هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

وإلى جانب هذه الأمور الحاضة على الخير، وفي المقابل ركب في النفس شهواتها، وأوجد العدو المتربص والذي لا هم له إلا أن يصرف الناس عن الهدى وأن يقعد لهم صراط الله المستقيم ومعه وسائل الغواية.

ومن هنا نشأ الصراع بين الحق والباطل، ومن رحمة الله أن أوجد من السنن ما يكفل بقاء الحق واستمراره مثل سنة المدافعة، قال الله تعالى " **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْض** " وأوجب على نفسه سبحانه نصر المؤمنين قال تعالى" **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين** " وقال تعالى" **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** " ولكن بشرط " **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه** "

وسنعرض لأكثر من صورة من صور هذا الصراع يتبين لنا منها كيف يحسم الصراع لصالح الحق.

ونبدأ بهذا النموذج الفريد الذي قدمه القرآن لنشأة الصراع في قصة خلق آدم، وكيف بدأت العداوة بالأمر بالسجود، ثم تكليف الله لآدم بصورة رمزية يتحقق فيها معنى العبودية " **وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة** " .

ولقد فطن إبليس إلى أن انتصاره على آدم إنما يتحقق بإخراجه من الجنة وأن ذلك مرتهن بمعصيته لربه فيما أمره، فكانت نقطة انطلاقه لإدارة الصراع هي تغيير حقيقة الأمر وتزييفه، كما يفعل المبطلون.
وجاءه بصورة الناصح الأمين " **قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى** " واستخدم حيله " **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِين** " ، " **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ** " .
ويخسر آدم جولته الأولى مع عدوه، ويتحقق الأمر المحتوم، وينزل آدم وذريته من الجنة ومعهم عدوهم.
وتبدأ جولات أخرى من الصراع، وما يعنينا هنا هو الدرس المستفاد من هذه الجولة، وأن خسارة آدم لها لأنه غفل عن عدوه ولم يلتفت إلى هدفه ونسي عهد الله له بحقيقة العدو، وهو ما يجب أن يعيه بنوه من بعده.
قال تعالى:" **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) يس** ، ويتأكد لنا أن من أهم عوامل الحسم في هذا الصراع هو استجلاء حقيقة العدو، فمتى استبانت للمؤمنين حقيقة العدو ووضح موقفه من الحق، فلن تقف قوته ولا كيده حائلاً أمام القوة الإيمانية المستنفرة لإزهاقه " **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ".
☜ ونعود لمثالنا وهو قتال الصديق للناكثين والمانعين الزكاة لنؤكد أن العامل الحاسم في نصر المؤمنين هو وضوح رؤيتهم لعدوهم فلم يترددوا ولم يفرقوا بين من كفر بمنع حق الله ومن كفر كفراً صراحاً بالردة أو ادعاء النبوة. فهي درجات متفاوتة من الكفر، ولكن الحكم عندهم واحد فهو القتل والسبي والغنيمة، ولم ترتجف أيديهم وهم يواجهون جزيرة العرب التي خرجت عن بكرة أبيها.
ويتضح الأمر أكثر إذا أدركنا الفارق بين قاتل الفاروق ﵁ وقتلة عثمان ﵁، فقاتل عمر
" أبو لؤلؤة المجوسي " واضح الكفر، فلم يتعد أثره على الأمة خسارة الخليفة وإن كان المصاب جللاً، أما قتلة عثمان والمحرضون فهم

منتسبون للإسلام وباسم الإسلام لتغيير منكرات مزعومة، وهنا دخل اللبس وتعددت الرؤى، وانقسمت الأمة وخسرت جولتها مع عدوها.
ولأن الصراع لن يتوقف بين الحق والباطل إلى قيام الساعة وتتعدد صوره وأشكاله، وقد علم الشيطان أنه لن يعبد في جزيرة العرب موطن عزة المسلمين بالطريقة الواضحة الجلية وأيس من ذلك فقد رضي بما يحقره الناس من أعمالهم، وصدق قائل الصحابة حين قال للخلوف " إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعرة كنا نعدها على عهد رسول الله من الموبقات ".
فكانت هذه الأعمال هي مدخله، لأنه فطن إلى أن بها تتحقق العبودية لله، فاستنفر جنده وأعوانه وجادلوا أولياءهم في شأن الأعمال فما جدواها؟ وحقروا لهم الذنوب، فما ضررها وقد كمل الإيمان بالتصديق والإقرار، فبرز قرن الإرجاء متدثراً بثياب الفقهاء والعباد، وهل ينتقي الشيطان أعوانه من العامة والرويبضة؟ ومن سيضل الناس ويلبس عليهم دينهم؟.
فهل رفع " المؤمنون حقاً " الراية واستسلموا لكيد الشيطان وجنده وأولياءه الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله بتخرصاتهم ويبدلوا دين الله بخبث معتقدهم؟
لا ورب الكعبة إنه دين الله، وهو الذي يدير المعركة من مبدئها إلى منتهاها كما قلنا فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والله متم نوره ولو كره المشركون.
فتسير القافلة الإيمانية غير عابئة بهذا النباح، وغير ملتفتة عن غايتها، ويسير موكب النور متسلحاً بنور الله وهديه فالنور وسيلة وغاية "... **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)"** [المائدة]
وتصدى التابعون ومن عاصرهم من الصحابة لهذا المكر متسلحين بنصوص الوحي فهي نور الله الذي لا يطفأ، فلم ينشغلوا عنه بحجج كلامية ولا بأقيسة منطقية ولم يتعدوا ظواهر النصوص وألفاظها إلى تأويلات فاسدة ممجوجة، وقد سقنا طرفاً من ردودهم على المرجئة في

أول البحث، وسنعيد ترتيبها وعرضها بصورة أوضح، ونتعرض للمعتقد وفساده وموقف العلماء منه وردهم عليه، كي ندرك مدى خطورة هؤلاء القوم، وخطأ من قلل من شأنهم.

أولاً: أصل المعتقد عند مرجئة التابعين وتحدده هذه الآثار وكلها سبق تخريجها في مواضع من البحث :-

1- ما ذكره الذهبي عن معمر قال كنا نأتي أبا إسحاق السبيعي فيقول من أين جئتم؟ فنقول من عند حماد فيقول: ما قال لكم أخو المرجئة؟ ، قال معمر: قلت لحماد، كنت رأساً في أصحابك فخالفتهم فصرت تابعاً.

قال الذهبي: يشير معمر إلى أنه تحول مرجئاً إرجاء الفقهاء وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان ويقين في القلب.

2- ما يرويه عبد الله بن أحمد في السنة والطبري في تهذيب الآثار كل بسنده عن معقل بن عبد الله الجزري، قال في جزء من قصة طويلة " فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح فأخبرته أن قوماً قبلنا أحدثوا وتكلموا وقالوا إن الصلاة والزكاة ليست من الدين ، وأنهم يقولون ليس في الإيمان زيادة.

3- وفي الأثر السابق عن معقل أيضا قال: ثم قدمت المدينة، فجلست إلى نافع فقلت: أنهم يقولون نحن نقر بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونشربها، وأن نكاح الأمهات حرام ونحن نفعل.

ثانياً: رد العلماء عليهم، سبق أن ذكرنا أن ردودهم كانت تنحصر في نصوص الوحي فلم يكونوا أصحاب جدل ولذلك فقد أعزهم الله وسدد رميتهم وإليك هذه الردود.

1- استدل الزهري على فساد هذا المعتقد بقول رسول الله " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ... " يقصد أن هناك من الذنوب والأعمال ما يذهب حقيقة الإيمان فلم تكن قد ابتدعت بعد فرية كمال الإيمان.

2- واستدل نافع بحديث رسول الله ﷺ " أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا ..." مبيناً إنما القتال كان على الكلمة وحقها من صلاة وزكاة وكل حق الله.

3- واستدل عطاء بن أبي رباح بقوله تعالى: " **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** " وقال فالصلاة والزكاة من الدين.

4- ورد أبو وائل شقيق بن سلمة عليهم بما حدثه عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" مبيناً أن هناك من الذنوب ما يلحق الفسوق والكفر بصاحبه.

5- ومن الصحابة من أدرك المرجئة كأنس رضي الله عنه يقول فيما رواه عنه الطبري وابن مردويه والبزار وهو يشير إلى أن الصلاة والزكاة من الدين:" هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم وتصديق ذلك في كتاب الله، قال تعالى: " **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** " وقال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ".

6- وهذا ما ينسبه ابن أبي مليكه إلى كل من قابلهم من الصحابة بقوله فيما رواه البخاري: " أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما فيهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل" كما يقول المرجئة.

ثالثاً: حكم التابعين على أصحاب هذا المذهب:-

1- قال إبراهيم النخعي لذر الهمداني وهو أول من تكلم في الإرجاء" ما هذا الدين الذي جئت به؟ " وقال سعيد بن جبير" إن هذا يحدث كل يوم دينًا "، فهو في رأيهم دين جديد محدث.

2- وقال إبراهيم النخعي عن حماد بن أبي سليمان تلميذه: " لا تدعوا هذا الملعون يدخل عليَّ بعد ما تكلم في الإرجاء " فهم في نظرهم مستحقون اللعنة.

3- قال هشام: قال لي شهاب بن خراش" إن لم تكن قدرياً ولا مرجئاً حدثتك " فهم لا يرونهم أهلاً لتحمل الحديث.

4- وقال سعيد بن جبير عنهم: " المرجئة يهود هذه القبلة " وقال " مثلهم كمثل الصابئين" ويرى أنهم بين اليهود والنصاري ... فهل ترونهم بعد مسلمين؟

5- وقال نافع عمن قال" نحن نقر بالصلاة فريضة ولا نصلي..." قال " من فعل ذلك فقد كفر ".

وعن آثرهم على الإسلام وأهله:

قال إبراهيم النخعي: " لفتنتهم عندي أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة " وقال عنهم: " تركوا هذا الدين أرق من الثوب السامري "، وقال يحي وقتادة: " ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء"، وقال الزهري:" ما ابتدعت في الإسلام بدعة هي أضر على أهله من هذه". الإرجاء ".

بهذا القول الفصل، وبهذه الدرجة من الوضوح وعدم التردد استبان للمسلمين خطورة هذا المذهب، حتى أنهم يعتبرونه أشد ضرراً على الأمة من فتنة الأزارقة.

وهذا هو سلاح الحسم الذي سبق التنويه إليه وإلى ضرورة أن تنتبه الأمة إلى حقيقة الخطر المحدق بها، ولولا ما حدث من تداعيات الفتنة الكبرى وتفرق الأمة واقتتالها، وشيوع المظالم مما وفر البيئة المناسبة لإزدهار هذه المقالات الشاذة المتسامحة مع المظالم والرذائل، وكذا لاحتضان بعض الملوك لأصحاب هذا المعتقد.

لولا ذلك لاندثرت في مهدها وخبا سعيرها كما حدث إبان عهد المتوكل عندما انتصف لعلماء السنة وساعدهم على الذب عن الدين، وبيان عوار وخطورة هذا المعتقد.

ويستمر موكب الهدى، وركب الإيمان مع علماء السنة وأصحاب الحديث ومن أقوالهم:

1- ما قاله الحميدي عمن قال " إنَّ من أقرَّ بالصلاة والزكاة والحج ولم يفعل من ذلك شيئاً حتى يموت هو مؤمن" قال الحميدي:" هذا هو الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله وفعل المسلمين، قال الله ﷻ " .. **وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** " .

2- وتبعه بنفس الوضوح والحسم الإمام أحمد بن حنبل بقوله: " من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به ".

3- وسبق أن ذكرنا عن الإمام محمد بن جرير الطبري في كتابه تهذيب الآثار نقله لقول ابن عيينه " فأما المرجئة اليوم فيقولون الإيمان قول بلا عمل، فلا تجالسوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصلوا معهم ولا تصلوا عليهم " .

4- وما نقلناه عن أبي طالب المكي بقوله " فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقاً ينقل عن الملة، ومن عنده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفر لا يثبت معه توحيد ".

هكذا بنفس الحزم والحسم فهو كفر صراح وصاحبه كفر بالله كفراً لا يثبت معه توحيد، ولا يصلى معه ولا عليه، وهو دين جديد مبتوت الصلة عن دين الله الذي دانهم به.

ولم يبالوا بفزاعة الخروج والاعتزال ولم يشغلوا أنفسهم بتمويهات أهل الإرجاء وتعريفاتهم، ولكن فزعوا إلى نصوص الوحي ليردوا كيد الكائدين وإبطال المبطلين، ولم تأخذهم بهم رأفة في دين الله لما أدركوا خطورتهم على هذا الدين، فكانوا مقاتلين عن دينهم أكثر منهم محاجين مجادلين.

المبحث الثاني
التهوين وغياب الحسم عند بعض الخلف

ثم لم يلبث أن فتر الحماس قليلاً، وخفت حدة المواجهة، وقد يكون مبعث ذلك إلى فتور الهمة من طول النزال، وما نال القوم من عنت بسببه، وزيوع الظاهرة واستفحال أمرها، وعظم أمر من تورط في الترويج لها متابعة بلا بصيرة، وانجراف العلماء إلى منازلة أهل الإرجاء بمنطقهم وتعريفاتهم، فهان الخطب، وقلَّ معه الحسم، وغدا الأمر مجرد مساجلات كلامية تفتقد الحسم، وإن ظل علماء السنة وأصحاب الحديث على موقفهم من رفض الإرجاء وأهله، وتأكيدهم على إدخال الأعمال في مسمى الإيمان حقيقة كما تدل عليه النصوص.

وإليكم بعض الآثار الكاشفة لذلك:-

1- ما نقله عبد الله بن أحمد من كتاب أبيه عن الفضيل بن عياض تعليقاً على قولـــــــه تعالى:" **فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ ...**" [التوبة:11]

قال: فالتوبة من الشرك جعلها الله قولاً وعملاً بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال: وقال أصحاب الرأي – يقصد أبا حنيفة وأصحابه – ليس الصلاة والزكاة ولا شيء من الفرائض من الإيمان، إفتراءً على الله وخلافاً لسنة نبيه، ولو كان القول كما يقولون لم يقاتل أبو بكر أهل الردة.

2- قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسن الأجري في أخلاق العلماء: " فالأعمال بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يُصَدِق الإيمان بعمله مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج وأشبهاه لهذه، ورضى لنفسه بالمعرفة والقول دون العمل لم يكن مؤمناً ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيباً منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرنا تصديقاً منه لإيمانه فاعلم ذلك " ثم قال " هذا مذهب علماء المسلمين قديماً وحديثاً، فمن قال غير هذا فهو مرجئ خبيث أحذره على دينك ، والدليل على هذا " **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ...** " الآية.

3- قال الإمام البغوي في شرح السنة: " اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان لقوله سبحانه

وتعالى: " **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**... " إلى قوله: " **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** " فجعل الأعمال كلها إيماناً وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة.

4- قال البخاري: " لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر، لقيتهم كرات قرناً بعد قرن ثم قرن بعد قرن، أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة، ثم سمى بعضهم وقال فما رأيت واحداً منهم يختلف في أن الدين قول وعمل وذلك لقوله تعالى:" **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ**.." .

5- روى أبو عمرو الطلمنكي باسناده عن اسحاق بن راهويه إملاءً " أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وقال اسحاق إنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة وآحاد أصحاب رسول الله – يقصد واحد بعد واحد – والتابعين وكذلك بعد التابعين من أهل العلم وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن على ما فسرنا وبيَّنا أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص " ثم قال: " واتبعهم على ما وصفنا من بعدهم من عصرنا هذا أهل العلم إلا من باين الجماعة واتبع الأهواء المختلفة، فأولئك قوم لا يعبأ الله بهم لما باينوا الجماعة.

وليت هؤلاء العلماء بقوا على نفس الدرجة من الوضوح والحسم التي كان عليها التابعون ولم ينزلقوا مع أهل الإرجاء في تعريفاتهم وحدودهم المنطقية، وقد هالهم عظم أمر بعض أئمة الإرجاء فهم فقهاء وعلماء معتبرون، فكان نقدهم لهم حان متسامحاً، ووصل ببعضهم الأمر أن اعتبر أن النزاع بينهم وبين المرجئة نزاع لفظي، واختلطت الأوراق واضطربت الأقوال ودخلت على بعضهم الشبهات وهم يرون أنهم في منأى عنها.

وانظر معي إلى بدو قول الإمام ابن تيمية وهو من أكثر العلماء الذين تصدوا لمقالات المرجئة على اختلاف مذاهبهم يرد على المرجئة في

مجموع الفتاوي (544/7) **بقوله:** " والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر من الإيمان فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضاً وجعلها هي التصديق فهذا ضلال بيِّن، ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن".

* وأكد ذلك في (487/6) قال: " وقد بسطنا الكلام على هذه في مسألة الإيمان وبيَّنا أن ما يقوم بالقلب من تصديق وحب الله ورسوله وتعظيم، لابد أن يظهر على الجوارح وكذلك بالعكس ولهذا يستدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن ".

* وقال في (616/7) " فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب وعلم أن من قال من الفقهاء " أنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن العمل لا يقتل أو يقتل مع إسلامه " فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية ".

* وانظر أيضاً إلى قوله في شرح العمدة (جـ 2 ص86) في معرض تقريره لكفر تارك الصلاة : " وأيضاً فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل كما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف وعلى ما هو مقرر في موضعه، فالقول تصديق الرسول، والعمل تصديق القول، فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمناً، والقول الذي يصير به مؤمناً قول مخصوص وهو الشهادتان فكذلك العمل هو الصلاة ..."ثم قال " وأيضا فإن حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط، فمن لم يفعل لله شيئاً فما دان لله دينا، ومن لا دين له فهو كافر ".

وتحت عنوان أعمال القلوب ليست من الإيمان يورد ابن تيمية قول الله عز وجل " **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** " ثم يورد رد الخوارج على الآية بقولهم " إن الله وصفهم بمجرد كراهة ما نزل الله، والكراهة عمل القلب " ثم حصر ابن تيمية الإيمان عند المرجئة في قولين – بعد استبعاد قول الكرامية الشاذ – القول الأول

عند الجهمية ووافقهم الأشعري الإيمان مجرد ما في القلب، والثاني عند فقهاء المرجئة هو قول اللسان وتصديق القلب ثم قال: " وعلى القولين أعمال القلوب ليست من الإيمان عندهم كأعمال الجوارح فيمكن أن يكون الرجل مصدقاً بلسانه وقلبه مع كراهة ما نزل الله وحينئذ فلا يكون هذا كافر عندهم " ويرد عليهم قائلاً: " الآية تتناوله وإذا دلت على كفره، دلت على فساد قولهم ".

وهنا يسوى بين الفريقين في لازم قولهم بإخراج أعمال القلوب من الإيمان فيمكن أن يكون المرء عند كليهما مؤمنًا مع كراهة ما نزل الله ثم يبين فساد هذا القول.

ويعود ويؤكد هذا المعنى بقوله " ومن هنا غلطت الجهمية والمرجئة في أنهم جعلوا الإيمان من باب القول – عند الجهمية قول القلب وعند المرجئة قول القلب واللسان – ولم يجعلوا عمل القلب مثل حب الله ورسوله ومثل خوف الله من الإيمان فغلطوا في ذلك".

ثم انظر هنا إلى تلطفه مع هذه الشنائع وحنوه على أصحابها – قوم يرون إيمان المرء مع كراهة ما نزل الله ورب العزة يجعلهم مرتدين، ولا يجعلون حب الله ورسوله وخوف الله من الإيمان فيقول غلطوا في ذلك ثم قارن بين موقفه منهم وموقف التابعين أهل السنة الحقيقيين كسعيد بن جبير الذي قال عنهم " المرجئة يهود هذه القبلة " وقول نافع " من فعل هذا فهو كافر " ولم يكونوا قد بلغوا معشار ما بلغ القوم ولم يكن الجهم قد ظهر بمقالاته وإنما كانوا يقصدون الفقهاء العباد من التابعين.

فما الذي حدا به إلى هذا الحنو وذلك التلطف وجعله يفرق بينهم مرة أخرى وبين الجهمية؟ انظر إليه يقول " والمرجئة الذين قالوا الإيمان تصديق القلب وقول اللسان والأعمال ليست منه، وكان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها ولم يكن قولهم مثل قول جهم فعرفوا أن إبليس وفرعون كفار مع تصديق قلوبهم"

وهل قال الجهم إن إبليس وفرعون كانا مؤمنين ؟ بل يرى كفرهما وإن أرجعه إلى عدم تصديق القلب حقيقة.

فلكون هؤلاء فقهاء وعباداً يجب أن تلتمس لهم الأعذار ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بقوله: " وهذه الشبهة التي أوقعتهم – عدم التبعيض والتعدد – مع علم كثير منهم وعبادته وحسن إسلامه وإيمانه – هكذا يراهم – ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأمة أهل علم ودين ولهذا لم يكفر أحد من السلف أحداً من مرجئة الفقهاء – أليس التابعون السابقون من السلف؟ ثم يستطرد " بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا من بدع العقائد " مع أن مدار الأمر كله في صميم العقائد وأصول الدين وكما سماها التابعون السابق ذكرهم " ديناً جديداً محدثاً" وكانوا يقصدون إرجاء الفقهاء فلم يكن قد ظهر الجهم بعد، وقد مر بك قول التابعي الجليل إبراهيم النخعي لذر الهمداني المرجئ: ويحك يا ذر ما هذا الدين الذي جئت به؟ ثم يبالغ في التهوين ويصل مداه قائلاً " فإن النزاع فيها لفظي أي بينهم وبين السلف – لكن لفظ الكتاب والسنة هو الصواب "

يقصد أنهم إذ قالوا بعدم زيادة الإيمان فقد صادموا النص فليس لأحد أن يقول بخلاف النص ثم يعود عليهم بالملامة ويسويهم بقول جهم قائلاً : " ولكنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان – وقد قال أنهم لم يدخلوها – لزمهم قول جهم وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضاً فإنها لازمة لها"

ثم يعود ويلتمس لهم العذر قائلاً " ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم.

هكذا تراه عندما يتناول المذهب والمعتقد يجمع المرجئة الفقهاء والجهمية في سلة واحدة ويدلل على فساد قولهم جميعاً، وعندما يتطرق إلى الأشخاص يفرق بينهما ويرى أن قولهم من بدع الأقوال وليس العقائد

وأنه خلافٌ لفظي، فلعل دافعه إلى ذلك هو خوف الملام من نقد الأعلام وهي الآفة التي أدت إلى اضطراب أقوال كثير من العلماء وتحيرهم.

ومن العلماء الذين حاولوا التخفيف من وطأة هذا الرأي ولذلك وقعوا في التناقض والاضطراب أيضاً الإمام الذهبي عند تعريفه لإرجاء الفقهاء فيقول:

" وهو أنهم لا يعدون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون الإيمان إقرار باللسان واليقين في القلب، والنزاع في هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غلو الإرجاء من قال لا يضر مع التوحيد ترك الفرائض "

أخبروني بربكم ما الفارق بين هذا القول الأخير الغال المتشدد وبين الأول الذي يرى أن الفرائض ليست من الإيمان، فهم مؤمنون إيماناً حقيقياً موجب للجنة مع عدم حاجتهم إلى الفرائض؟ هل هناك ثمة فارق إلا التقديم والتأخير في الجملة إلا إذا كانت ستضيف معنى بلاغي يحتاج إليه السياق.

فكان هذا التهوين والتساهل من هؤلاء العلماء وما وقع فيه بعضهم من اضطراب إيذاناً بفتح الباب لأدعياء الحلول الوسط ليضربوا ضربتهم، فكانت قاصمة الظهر تلك الفرية الكبرى التي افتراها متأخرو الفقهاء وشراح كتب الحديث والمتون حين أدخلوا الأعمال في مسمى الإيمان ولكن من باب الكمال لينسفوا بسوء مكرهم وقصدهم كل جهد بذله التابعون وعلماء السنة في حربهم مع المبطلين والزنادقة، وفتح الباب معه لتأويل جل نصوص الشريعة وهو ما لم يعرفه صحابة رسول الله ولا التابعون لهم بإحسان، وبُدل دين الله وجاؤنا بدين جديد وهو ما لم يصل إليه مطمع إبليس منهم . ولا حول ولا قوة إلا بالله ولكن ".. **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21)** [يوسف]

الفصل الثالث

أثر دين المرجئة على واقع الناس ومعتقدهم

قبل أن نخوض في آثار هذا الدين الوافد على واقع الناس ومعتقدهم، نريد أن ننوه إلى أن غايتنا من هذا البحث هي كشف هذا الزيف وفضح هذا المسمى ديناً، ولم نقصد الإساءة لعالم أو تجريح فقيه، فهذا ليس من شيم المسلمين وأخلاقهم خاصة وقد أمرنا رسولنا ومعلمنا ومربينا ﷺ أن ننزل الناس منازلهم فقال ﷺ(أقيلوا لذوي الهيئات عثراتهم) إن كانت ثمة عثرات، أما وقد كانت طعنات نافذات في صميم الدين وفي حقيقة الإيمان فلا هوادة ولا مهادنة ولا مداهنة في الحق فلسنا من أنصار إتباع الحلول الوسط، والالتقاء في منتصف الطريق، فبقدر ما نتزحزح عن الحق نُثَبِّت أركان الباطل.. فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

ولم تعننا أبداً أشخاص الذين ننتقد مذهبهم عظمت أم دقت في أعين مريديهم مع أن في سيرتهم ما يقال لو أردنا ولكن هذا ليس مبتغانا، وحتى لا يتباكى الباكون على اللحم المر والعرض المنتهك وغيره من الشغب الرخيص ليصرفوا الأنصار عن حقيقة المقصد، فكما قلنا ليس مقصدنا التعريض بالأشخاص وإنما المقصود هو الدين والمعتقد وأثره على الدين الحق، ولم يعننا أيضاً إن كان انحرافهم عن قصد وابتغاء حظوة أم كان عن متابعة بغير بصيرة لمشايخهم، وإنما ذكرنا من ذكرنا – وأقللنا – لأن عظم أمرهم واشتهارهم كان له أعظم الأثر في إدخال الشبهة على البعض فهون من خطورة المعتقد، واضطربت الآراء واختلطت الأوراق، وما كان مقطوعاً به عند صحابة رسول الله والتابعين وعلماء السنة أصبح مظنوناً عند غيرهم، وماهت الحقائق وغدا هذا المعتقد هو الدين الوسطي المعتدل المتسامح وغيره هو التشدد والتطرف بل والبدعة.

والآن أما وقد انحسر مفهوم الإيمان في مجرد التصديق القلبي الذي لا يمكن ضبطه، والإقرار الذي أصبح بمضي الوقت مجرد كلمة تكتب في

الهوية لا ينسخها عمل مهما عظم، وكذلك ضاع مفهوم الكفر ولم يعد له وجود عملي والذي كان من أهم معانيه التولي عن الطاعة والمتمثل في قوله تعالى:" **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)** **[آل عمران]**

فهل نستطيع الآن أن نطوي هذا السجل؟ في حين أن أوراقه هي وحدها التي تقرأ اليوم وكتبه هي التي تدرس وآراؤه هي التي يعتقدها الناس خاصتهم وعامتهم.

ونقترب أكثر من واقع الناس ونسأل ما هو الدين الذي يدين به الناس اليوم؟

وتتحدد الإجابة إذا علمنا المصدر الذي يتلقى منه الناس معلوماتهم ويسهم في تكوين أفكارهم ومعتقداتهم.

ونحن إذاً بإزاء فريقين من النخب والخواص وهم المنوط بهم صناعة وعي الناس وتوجيه أفكارهم ومعتقداتهم.

الفريق الأول :- ويتمثل فيما يسمى بالاتجاه التقليدي والمحافظ والذي عني بحفظ التراث الديني فهو في رأيهم يمثل خلاصة جهد سلف الأمة على اختلاف توجهاتهم، وسندع هذا الفريق قليلاً.

الفريق الثاني:- ويتمثل فيما يسمى بالتيار الإصلاحي والمجدد والمتسامح مع كل أهل الأهواء والنحل والاتجاهات الفكرية الشاذة مهما كان غلوها وشططها بل وإلحادها وزندقتها، سواء منها القديم كالحلولية والباطنية وعباد الموتى من الصوفية والمؤلهين للأئمة من الشيعة وغيرهم، أو الحديث منها كالاشتراكية والعلمانية وسائر الاتجاهات العصرية التي ترمي إلى عزل الدين وتنحيته جانباً عن واقع الناس، ووصفه بالرجعية والتخلف والاستبداد، وبأنه قيد على حرية الفكر والإبداع.

وقد وجدوا ضالتهم في زبالة آراء المرجئة وسوء معتقدهم ونعني به مذهب الجهمية، وقد رأوا فيه الغنى عن دين الله الحق وهم بعد مسلمون مصلحون، في حين نظروا إلى كل من يدعو إلى تصحيح الإيمان وتوضيح دروب الكفر ومخاطره على أنهم تكفيريون غالون وخوارج معاصرون.

تمثل هذا الفريق فيما يسمى بجيل الرواد والمصلحين من أمثال الأفغاني وإقبال وبهادرخان والطهطاوي ومحمد عبده ورشيد رضا وقاسم أمين وأحمد أمين وطه حسين والعبادي ومرورا بنعمان القاضي وسامي النشار والقلماوي وامتد ليشمل ما يسمون بالمفكرين الإسلاميين المعاصرين مثل محمد عمارة وكمال أبو المجد وجمال البنا وغيرهم، ومازال الباب مفتوحاً على مصراعيه لكل الذين بهرتهم الحضارة الغربية وسلموا قيادهم لأئمة الكفر من المستشرقين والمفكرين الغربيين، فهم في رأيهم محققون ومدققون وأصحاب منهج علمي لا يخطئ ولا يجامل، فأخذوا عنهم دينهم ومعتقدهم الذي لا يخرج في مجمله عن دين ومذاهب الفرق الضالة وخاصة المرجئة.

وسنشير إلى مثال واحد لما تناوله المستشرقون عن أصحاب هذه المذاهب وكيف حذا هذا الفريق المستغرب حذوهم.

فالمستشرقون يعدون أصحاب هذه المذاهب حركات ثورية تطالب بالعدالة الاجتماعية ضد طغيان الدولة الدينية والمتمثل في عدم المساواة بين رعاياها، وهم أيضاً ناقمون على الالتزام بأحكام الدين وفرائضه.

فقد قسم المستشرق " فلهاوزن " أهل الإسلام إلى محافظ وهو الذي يحترم الجماعة والوضع القائم وثائر مثل المرجئة والخوارج والشيعة، وخلص إلى أن المرجئة حركة ثورية ضد طغيان المستعمرين الفاتحين ولذا فقد وسعت مفهوم الإيمان ليقبل جميع الشعوب المضطهدة لكي تكون يداً واحدة على الشعب الفاتح.

" ويرى فان فلوتن " نفس الرأي فبعد أن ذكر معتقد الجهمية أن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر باللسان ولزم اليهودية والنصرانية في دار الإسلام فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله، قال: " كان من الطبيعي أن تدفع مثل هذه العقيدة أصحابها إلى احتقار الفرائض العملية للإسلام ووضعهم واجبات المرء نحو من يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن ".

ولقد ظهر أثر هذه الرؤية السياسية لنشأة الفرق في كتابات هذا الفريق من المستغربين.

ففي كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، وما نقله عنه نعمان القاضي في كتاب الفرق الإسلامية في الشعر الأموي وكتاب أبي زهرة المذاهب الإسلامية قولهم: " إن الشيعة والخوارج كان أول أمرهما حزبين سياسيين تكونا حول الخلافة، وأن رأي الخوارج فيها ديمقراطي، ورأي الشيعة ثيوقراطي، أما المرجئة فكانت حزباً سياسياً محايداً " ثم قال " وبعد أن كان مذهبا سياسياً أصبح – بعد – يبحث في أمور لاهوتية، وكانت نتيجة بحثهم تتفق ورأيهم السياسي " وقد تخطوا بذلك النشأة الدينية المحضة وتجاوزوا عن تأثيرها على حقيقة الدين.

أهداف شيطانية:-

وقد وضع أصحاب هذا الاتجاه نصب أعينهم أهدافاً وأفكاراً يجب تحقيقها للنهوض بالأمة حسب زعمهم.

فتحت مسمى الإصلاح الديني والتنوير والتجديد فهموا أن الأمة لن تقال من عثرتها، وتقوم من كبوتها إلا بالتخفف من قيود التراث الرجعي التي تقف حجر عثرة في طريق نهوض الأمة، وأنه لابد من تطويع الإسلام بكل الوسائل لمسايرة الحضارة الغربية فكراً وتطبيقاً، وإذا ما كان التمسك بالدين والتعصب للمذهب مانعاً من تحقيق التقارب بين الشعوب والأمم، أو كان سبباً للتمييز بين المواطنين، فلابد من إزالة كل العقبات

التي تمنع من التقارب بين الأديان والمذاهب، وكذلك لابد من التقليل من هذا الزخم الديني وتدخله في حياة الناس وقيمهم بحيث يصبح مجال عمل الدين بكل مؤسساته وأدواته هو توجيه وعي الناس نحو تحقيق هذه الأهداف. وهذا ما عناه وزير أوقاف مصري سابق حين رد على وزير الأديان الفرنسي انتقاده لدور منابر المساجد في صناعة التطرف الديني فطمأنه بأنه سيتصدى لذلك بتأميم المساجد وتعيين الخطباء ثم قال: " إن المساجد ما هي إلا مؤسسة من مؤسسات الدولة ويجب أن توظف لخدمة أهدافها ".

وأيضاً يجب أن يقتصر الحضور الديني في صورة رمزية خاصة في المناسبات الدينية بدعوى أن الشعب متدين بطبعه.

وفي سبيل تحقيق أهدافهم هذه وقيمهم العالمية كان لابد من هذه الخطوات:-

أولاً: التقليل من قيمة السنة النبوية إن لم يكن من سبيل لإنكارها، إما لكونها في معظمها غير مقطوع بها أو بدعوى مصادمة بعضها للعقل، وخرجت الكتب والإصدارات التي تُعْنَى بتحقيق هذا المقصد مثل كتاب دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين لحسين أمين، وفيه يحاول التدليل على أن السنة النبوية لم تكن معروفة كمصدر للتشريع خلال عهد النبوة والصحابة وإنما لجأ التابعون إلى استحداثها مع اتساع رقعة الفتوحات وعدم كفاية أحكام القرآن لحاجة الشعوب، وشكك في مشروعيتها لعدم عصمة النبي إلا فيما يبلغ من قرآن، وأضاف أن أنصار الالتزام بالسنة قد ألجأوا الفقهاء إلى وضع الأحاديث لتمرير آرائهم حتى أصبح وضع الأحاديث مسلك من السهولة بمكان، وطعن في اعتماد علماء الحديث على السند في معرفة الصحيح لأنهم أهملوا المتن .. وهكذا.

ثانياً: التقليل من إمكانية الاستفادة من نصوص القرآن في مجال التشريع فرغم أنها قطعية الثبوت إلا أن دلالتها في الغالب ظنية إما لأنها نصوص

عامة أو لأنها ظواهر يمكن تأويلها أو تحتمل أكثر من معنى والمحكم منها قليل.

ثالثا: وطالما لن يعول كثيراً على النصوص في التشريع فلا معنى لوجود تلك العلوم المعيارية الإسلامية من أصول فقه وتفاسير وعلوم حديث.

رابعاً: إذاً فالمعول عليه هو معرفة المبادئ الكلية للدين والتي قصدها الإسلام بتشريعاته وسبق تحديدها بحفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض والتي يمكن التدخل فيها لتتوافق مع المعايير الإنسانية.

خامساً: إنه يمكن تحقيق فائدة أوسع في مجال التشريع بمراعاة المصالح المرسلة الواسعة والاستصحاب الواسع والاستحسان، وبدرجة أكثر جرأة باللجوء إلى القوانين الوضعية المطبقة في البلدان المتقدمة والتي جاءت نتيجة جهود متضافرة لأمم راقية لا تبغي إلا تحقيق القيم الإنسانية الرفيعة للشعوب مثل العدل والمساواة والحرية.

وكان من نتيجة ذلك أن نُحِّيَ شرع الله جانباً وحكمت شرائع الكفر في الدماء والأعراض والأموال، وزادوا على ذلك أن سخروا من الحدود وأحكام الميراث وتعدد الزوجات وقوامة الرجال وغيرها والتي تكرس في نظرهم للتفريق بين الجنسين وعدم المساواة بينهما وإهدار مكتسبات المرأة.

وأما ما يتعلق بحد الردة والجزية وكذلك الجهاد فهي في نظرهم من رواسب الماضي العنصري وقد تخطاها الزمن وسقطت بالتقادم.

ولأنهم يرون أن الإسلام ليس فيه فقه سياسي محدد وإنما ترك ذلك لرأي الأمة، فلا مفر إذاً من الاستعانة بنظم التشريع لدى تلك الأمم الراقية وخاصة التجربة الديمقراطية حيث الحكم فيها للشعب من خلال مجلس نيابي أعطاه الدستور حق التشريع وتقرر قوانينه بمقتضى الأغلبية.

أي أنه لو فرضنا أن دولة ما طبقت بعض أحكام الشريعة كجلد شارب الخمر مثلاً فهذا الحكم لم يكتسب صفة القانون والإلزام بصدوره عن الله عز وجل بل لصدوره عن السلطة التشريعية ممثلة للشعب، فالله جل جلاله – عندهم – ليس من حقه التشريع بذاته وإنما يختار من أحكامه بناءً على موافقة مصدر السلطات ومالك حق التشريع والإلزام وهم البشر.

هذا على مستوى النخبة والتي تملك كل وسائل صنع الوعي وتوجيه الناس كوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وكذلك الكتب والدراسات العلمية والجامعية وغيرها التي تشكل أفكار الناس وآراءهم على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم وأعمارهم وتجمعاتهم حضرية كانت أم ريفية.

فما الذي يمكن أن نتوقع أن يكون عليه دين ومعتقد العامة منهم؟ بل ونظرتهم للدين والتدين.

☜ نسوق مثالاً من زمن الرواد كما يحكيه أحمد أمين في سيرته الذاتية، والذي يبين سبب نقمته على رمز التدين في مجتمعه ويعكس نظرته ونظرة المجتمع للتدين يقول: " كم تقدمت إلى بيوت رضوا عن شبابي وشهادتي ومرتبي ولكن لم يرضوا عن عمامتي، فذو العمامة في نظرهم رجل متدين، والتدين في نظرهم يوحي بالتزمت وقلة التحدث والالتصاق بالرجعية والحرص على المال ونحو ذلك من معانٍ منفرة ".

هذا عن دين الفريق الأول من النخبة والمتأثرين بهم من العامة.

الفريق الثاني:- الاتجاه المحافظ ويتمثل فيما يسمى بتيار الصحوة الدينية والجماعات الإسلامية المنتسبة للسنة على اختلاف توجهاتها ورؤاها، وقد ساعد على نشأتها تأثرها بالمحاولات السابقة لإحياء التراث الديني ومحاربة البدع والضلالات والمتمثلة في مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن

قيم الجوزية ومن بعدهم محمد بن عبد الوهاب وكتابات وأفكار المودودي وسيد قطب في مواجهة ما يسمى بجاهلية العصر.

وقد يكون أحد أسباب انتشارها هو هذا التغول والفجور والتجرؤ على الدين الذي ظهر في نهج الفريق السابق لدرجة استدعت نقمة ومعها غيرة كثير من الناس على الدين عموماً، ذلك إلى جانب نظرة هذا الفريق إلى السلطات الحاكمة على أنها راعية للمشروع الغربي ومصالحه على أساس أنه الضامن لاستمرارهم في السلطة ولو على حساب مصالح شعوبهم وقيمهم المستمدة من الدين.

ورغم اختلاف الأفكار بين أصحاب هذه الاتجاهات وتباين السبل المتبعة لتحقيق الغايات إلا أن الناظر إليهم قد يرى أن هناك ثمة جامع بينهم هو الرغبة في عودة الناس إلى التمسك بالدين من خلال إحياء التراث الإسلامي ونبذ القيم الوافدة ومحاربة البدع والمذاهب المغايرة.

تساؤلات مشروعة :-

وهنا تبرز عدة تساؤلات لنا الحق في طرحها بعد توضيحنا لمفارقة دين المرجئة على اختلاف مذاهبهم للدين الحق الذي دائنا الله به.

فإلى أي دين يريدون عودة الناس؟ وإلى أي تراث يجب توجيههم؟ وما هو المقصود بمذهب أهل السنة وقد ادعاه كل الفرقاء؟ ثم سؤال جانبي: ما هو المذهب المغاير الذي يريدون محاربته؟

ونبدأ بتوضيح السؤال الأخير.. لا شك أنه مذهب التشيع المقيت والذي نشأ في صورة مؤامرة على الإسلام بدأ بالفتنة الكبرى ولم ينته، ونما وترعرع على حساب دماء شهداء آل البيت، مذهب ينكأ الجراح وينمي الأحقاد والعداوات ليحافظ على زخمه واستمرار بقائه فهو في مجمله يستند إلى العواطف أكثر من الأفكار، هو مذهب معلوم القصد والهوية، وظاهر الفساد في جُل توجهاته وطقوسه فهو مذهب سياسي أكثر منه ديني كالبهائية والدرزية.

ولكن هناك علامات استفهام .. فلم يكن هذا المذهب يمثل خطراً إبان التقارب السعودي مع إمام اليمن لمواجهة البعث القومي، وتغايرت الصورة تماماً بعد نجاح الثورة الخومينية وخوف القوم من تداعيات تصدير الثورة فهل الباعث سياسي محض وموجه؟ أم أنها الفزاعة التي تشحذ همم الأنصار لوجود عدو متربص؟ أم أن هناك تخوف حقيقي من المد الشيعي رغم وضوح فساده وقلة تأثيره؟ فرغم وجود أتباع له مدفوعي الأجر في كثير من الأقطار إلا أنه لم يراوح مكانه منذ عقود.

نقول هذا لنلفت الانتباه إلى سلم الأولويات في العمل الإسلامي، ثم نعود إلى الأسئلة الأكثر أهمية : أي دين تريدون؟ أإلى الدين الحق دين الإسلام الحنيف؟ الذي يعني الاستسلام والخضوع والإذعان والانقياد الكامل لله قلباً وجارحة، ويعني إسلام الوجه لله والمتمثل في قوله تعالى:" **وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22)**" [لقمان]

فلا تمسك بالشهادة بغير هذا التسليم والاستسلام لا بمجرد الإقرار، ويعني " **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)**
[النساء]

ويعنـــي" **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36)** [الأحزاب]

ويعني" **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)**
[آل عمران]

أم أنه دين الخوارج المارقين؟ بالمناسبة ما الذي تعنيه لكم كلمة مارقين؟ فهم مرقوا من الدين بالكلية - شئتم أم أبيتم لتسلم لكم تأويلاتكم – إن كان

كلام نبيكم يحمل على الجد وليس الهزل بأبي أنت وأمي يا رسول الله رغم أنف المؤولين.

أم دين المعتزلة والقدرية المهووسين والمفتونين والمتحزلقين؟

أم دين الشيعة المتآمرين؟ وهم أهون من أن نزيد.

أم دين المرجئة – ولا نقصد الجهم الحاقد المتآمر – وإنما الفقهاء الذين قال فيهم التابعون قولتهم وضربوا لهم مثل السوء وردوا كيدهم في حسم وعزم لا يقاربه ريبكم وتلعثمك م، وكذلك مرجئة الخلف الذين أرادوا التحايل فأبطلوا النصوص ليسلم لهم إفكهم، فهل ترضونه ديناً لكم؟

أم تقولون أن عباءة الدين من الاتساع بحيث تقبل كل هذا الشتات والتمذهب والتحزب والتفرق، وأن صراطه يستقيم مع هذا الاعوجاج والانحناء والزوايا الحادة منها والمنفرجة والقائمة على الباطل.

وما موقع هذه الآيات من أفهامكم؟قوله تعالى:" **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)** [الشورى]

وقوله تعالى:" **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)**
[آل عمران]

وقوله تعالى: " **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (159)**
[الأنعام]

وقوله تعالى: " **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (52) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53)** [المؤمنون]

أم أنها محض تراث؟

ومن هم فرق الأمة الذين لن ينجو منهم إلا واحدةً بمقتضى حديث رسول اللهﷺ: " وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة " إن لم يكونوا المارقين السابقين ؟ ومن هي الفرقة الناجية إن لم يكونوا أصحاب محمد وتابعيهم وعلماء السنة الذين قالوا كلمتهم ولم يغيروا فحددوا لنا الدين القيم وصانوه وميزوه عن دين أهل المذاهب السابقة؟

وإلى أي سنة ينتسبون؟ أسنة موكب النور هؤلاء أم سنة حماد بن أبي سليمان ومن تبعه أم سنة الأشعري والماتريدي أم سنة الخلف المبطلون؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات ومن ثم الاستجابة لنداء الحق يحددها بدرجة كبيرة شكل البناء التنظيمي لهذه التيارات ونوع وآلية التفكير والطرح لديها إذا ما توفر هذا النوع من التنظيم الحركي والفكري أم أنها مجرد حركات عفوية ظهرت كردود أفعال.

وإن كان الأمر الجدير بالملاحظة أن حجر الزاوية عند جُل هذه التيارات وخاصة واسعة الانتشار منها يكمن في الرأس " الشيخ أو الداعية " ومؤهلاته التي لاقى من أجلها القبول وأوصلته إلى تلك المكانة وأصبح له مريدون يفرض عليهم نوعاً من الوصايا التي تتفاوت في مدي إلزاميتها، فقد تكون أدبية محضة وقد يقلل من فاعليتها تعدد الدعاة والمشايخ في التيار الواحد وتعدد رؤاهم وأطروحاتهم.

وإن كان اللافت للانتباه محدودية قدرتهم وجرأتهم بل وإرادتهم على الاختيار والانتقاء والفرز والتحقيق فيما يحويه التراث من عقائد وآراء متباينة، وحتى على المستوى الفقهي لا يملكون إرادة التنقيح والاختيار للرأي الأصوب وإن ظهرت أدلته، وكأن الاختلاف أمر حتمي لا مناص

منه ولا قدرة على التحرر منه أو أنه من المناطق المحرمة التي ألزموا أنفسهم بعدم الاقتراب منها كنوع من الأدب مع العلماء يرجونه لأنفسهم، فأضافوا على ذلك التراث بحقه وباطله وصوابه وخطأه هالة من القدسية وألزموا بها مريديهم.

ألا ترونهم يقررون في كتبهم ودروسهم ما يقرره الطحاوي في عقيدته وغيره من مرجئة الحنفية بأن الإيمان هو التصديق والقول دون العمل وأن الكلمة وحدها تكفي للفوز بالجنة وينسبون هذه العقيدة كما نسبوها إلى أهل السنة ، ويستدلون عليها بذات الشبهات ويحتجون بداحض حجتهم، فإن ضُيق عليهم وسُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد لحق بهم ما لحق بالقوم من ذم وعابٍ تحولوا إلى إرجاء الخلف القائل بإدخال العمل في مسمى الإيمان لفظاً وتمويهاً فحسب، بقولهم الإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، حيث إن ترك العمل عندهم لا يقدح في حقيقة الإيمان على خلاف ما بيناه وقرره سلف الأمة الحقيقيون من الصحابة والتابعين وعلماء السنة المعتبرين الذين حسموا أمرهم وقالوا كلمتهم في أصحاب هذه العقائد الباطلة.

فهل يرجى من أمثال هؤلاء أن يراجعوا دينهم ومعتقدهم حتى على المستوى الشخصي تحقيقاً للنجاة الفردية فهي إما جنة أبداً أو نار أبداً، فضلا عن رجاء الخير لمريديهم وإعفاءاً لأنفسهم من تبعة حمل أوزارهم أو من باب الدلالة على الخير وغيره.

وهو عندنا من باب الصدع بالحق والإعذار إلى الله ولعلهم ينتهون.

ويبقى أن نهمس في آذان الذين يدعون اتباعهم للكتاب والسنة... ولكن ... وآهٍ من ولكن هذه ... بفهم سلف الأمة.

نقول: أي سلف تعنون وقد تباينت أفهامهم؟ أم أن كلاً مصيب وخاصة في موضوعنا وهو تحديد الدين الحق الذي دائننا الله به والذي يجب أن يلتزموا به إن لم يكن الأمر مجرد ترف فكري؟

ولماذا نسلم باختلافاتهم في دين الله؟ ومع التسليم بوقوعها فليست لأنها مراد الله ولا لأن كلام الله يحتملها لقوله تعالى " **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** " فمرد الخلاف إنما هو من عندياتهم وليس من عند الله إما لعدم وقوفهم على الدليل أو للانتقائية والتعسف في الاستدلال واجتزاء النصوص لتخدم هوى ومذهب مسبق، أو لاعتمادهم أصولاً للفهم تمنع من الاعتداد بالدليل كتقديم القياس والرأي على أحاديث الآحاد وإن صحت، أو تقديم عمل أهل المدينة على الحديث وإن صح بدعوى أنهم أهل الحديث ونظائر هذا، أو لمجرد الادعاء بوجود نقص في النصوص تجبره أصولهم المدعاة كما قال قائلهم " إن النصوص لا تفي بِعُشر مِعشار الشريعة "

ثم إن فهم وبيان هؤلاء السلف على اختلافاتهم – وإن أكبرنا جهادهم في طلب العلم – ليس بأولى من فهم وبيان الرسول الكريم وهو الذي علمه ربه البيان وفرضه عليه وقد أوتي جوامع الكلم.

ثم لماذا عطلوا مداركهم وعقولهم التي أنعم الله بها عليهم؟ وسيحاسبهم على إعمالها والاستفادة منها في فهم دين الله، وقد ذم الله قوماً قالوا:" **لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** " فجعل ذلك سبباً لاستحقاقهم سوء المصير، وذم آخرين بقوله " **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** " فهذا وصف شائن لمن لم يتدبر كلام الله فهل يرضونه لأنفسهم؟ ولن ينفعهم يومئذ التعويل على فهم غيرهم " **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** " فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟

ثم لماذا التقليل والتهوين من شأن أنفسهم؟ وهم يملكون من الأدوات والآليات ما لم تكن متوفرة لسابقيهم من تجميع النصوص وتبويبها وتمييز صحيحها وسبب ورودها وقواعد الفهم وأصوله لغوية كانت أم عقلية، أم أنه عبادة الأشخاص والكهنوت الذي لا يقبله ديننا؟

فمرجع ذلك في رأيي كثرة التأويلات لنصوص الوحي مما ألقى بظلاله في الاعتقاد بأن لنصوص الوحي ظاهراً يجب تأويله ولا يعلم تأويله إلا الخاصة وباطناً لا يعلمه أيضاً إلا الخواص، فهل يختلف هذا الفهم عما يبتغيه المتصوفة من الوصول إلى حالة المكاشفة التي يفهمون بها ما لم يفهمه العوام؟

وهو أيضاً ما سلكه المتفلسفة من أمثال ابن رشد في محاولته للتقريب بين الوحي والعقل وخلص إلى أن ظواهر النصوص يجب أن تؤل لتتفق مع المعقول ولا يعلم الباطن المراد إلا الخواص.

وآخر سؤال هل أنصفتم مع أنفسكم حين ادعيتم مفارقة الفريق السابق بالعودة إلى التراث ونصوص الوحي؟

الخاتمة

وآلان نوجز ما أسلفنا بيانه.. أن الغاية من بعثة الرسل لم تكن لمجرد الإقرار لله بالوحدانية فقد سبق الإقرار بها قبل بعثة الرسل، ولا حجة لأحد في ادعاء الغفلة عنها. وإنما هي تحقيق العبودية لله كما أمرنا بقوله تعالى:" **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** " وبقوله تعالى **:" وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** "، فهي إذن الإذعان والإنقياد لله قلباً وجارحة.

وقد أثبتنا أن أيّاً من إيمان القلب أو إيمان الجوارح لا يسمى إيماناً بمفرده، وأن كلاً منهما جزء أو ركن في الإيمان الحق، وأن الجزاء يترتب عليهما مجتمعين؛ فهو علاقة تركيبية منهما، وأنهما إن اجتمعا معاً خُصت أعمال القلب باسم الإيمان وأعمال الجوارح بالإسلام أو عمل الصالحات، وهذا ما قرره الإمام ابن تيمية ونقله في مجموع الفتاوى عن أبي طالب المكي بقوله: " فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفراً لا يَثْبُت معه توحيد" أ.هـ

فهل هذان الأمران – إيمان القلب وإيمان الجوارح – اللذان يتحقق بهما الإيمان الحق ويغيب بغيابهما أو بأحدهما قد تضمنهما مسمى الإيمان عند المرجئة؟ أم انحسر عنهما إلى مجرد الإقرار لله بالعبودية في أحسن الأحوال؟

ولا نقصد بالمرجئة هنا مرجئة الجهمية الذين يخصهم القوم بكل عاب وذم يلحق بالإرجاء، مع أن المؤرخين قد اعتبروا أن قولهم منسلخ عن قول أهل الملل الحنيفية. وإنما نعني مرجئة الفقهاء الذين قال قائلهم" نحن نقر بأن الصلاة فريضة ولا نصلي، وأن الخمر حرام ونشربها " فقال عنهم التابعون: " من فعل هذا فقد كفر " وقالوا " هم يهود القبلة "، والذين قالوا الإيمان قول بلا عمل، فقال عنهم ابن عيينة " لا تصلوا معهم ولا تصلوا عليهم ".

وكذلك نعني بهم المرجئة الخبثاء المحتالين الذين أدخلوا العمل في مسمى الإيمان من باب الكمال وليس أصلاً في حقيقة الإيمان، بحيث يصبح ترك العمل والإصرار على المعاصي غير قادح في مسمى الإيمان، وضنوا على الله أن يخضع له العصاة بالتوبة فهم مؤمنون وإن تركوا الفرض وأصروا على الذنب، فأدخلوا العمل في مسمى الإيمان لفظاً وأخرجوه حقيقة تمويها واحتيالاً خلافاً لعقيدة الأمة التي ذكرها الإمام الشافعي بقوله:" وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون إن الإيمان قول وعمل ونية ولا يجزي واحد من الثلاث إلا بالآخر "، فهل عسانا نقول قولتهم فنشذ بها عن عقيدة أهل السنة الحقيقين؟

وهكذا حُق لهذا المذهب أن يوصف بأنه دين جديد منقطع الصلة عن دين الله الذي دائنا به.

أما وقد دخلت الشبهة على كثير من العلماء الأفذاذ وانطلت عليهم حيلة المحتالين وضلالات المضلين فلا سبيل للنجاة من هذا الزيغ وذاك الضلال إلا إذا طرحنا التقليد جانباً فمن نقلد؟ وقد ضل من ضل مع عظم القامات وعلو المقامات، وقد هُدي من هُدي بخلوص النيات والعودة إلى النبع الصافي والمحجة البيضاء، فهي ليست عصية على الفهم كما صعبها القوم على أنفسهم حين قرروا أنه لابد من واسطة وترجمان لكلام النبي الذي أوتي جوامع الكلم وقالت عنه السيدة عائشة - رضي الله عنها- : " كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه " [١]، أم يكون مبلغ قولنا ما قاله المنافقون " **مَاذَا قَالَ آَنِفًا** " أو قولهم " **مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ** " فهؤلاء هم الذين يعييهم فهم كلام نبيهم وهو عليهم عمى، وقد ألزمه الله بالبيان بل وعلمه إياه، فهل بيان غيره أوفى من بيانه وحجته أنصع من البيضاء؟

1- رواه أبو داود برقم 4839، وصححه الألباني برقم 2097 من السلسلة الصحيحة.

أما وقد أعذرت إلى الله فلا أملك إلا أن أتلو قوله تعالى: " **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (55) الزمر**

وبعد ... فما سبق بيانه هو محاولة متواضعة من عبد فقير إلى عفو الله ورحمته، وقد هالني ما آل إليه دين الله وكيف ضيع في الأرض ودرست حقيقته وأصبحت أثراً بعد عين، وجاؤنا بمسخ مشوه وزيف مموه لا شية فيه ولا صلة بينه وبين دين الله الذي دائنا به وأرسل من أجله الرسل.

فقد يقول قائل ويشغب شاغب ممن تستهويهم الأسماء، وتتعلق قلوبهم بذوي الهيئات، والذين يحنون الهامات ويطأطئون الرؤس في محراب السادة الكبراء لمجرد أنهم علماء أعلام، وينسون أنهم بشر يصيبون ويخطئون بل يَضلون ويُضلون.

أولئك المفتونون الذين قال فيهم ربهم :" **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ..** " حين اتبعوهم بلا بصيرة وتابعوهم في غيهم وسوء معتقدهم وفساد دينهم.

أقول: قد يقول قائلهم ومن أنت حتى تنصب نفسك حكماً على دين الناس، وتنال من هذه الجبال الرواسي، وتطال تلكم القمم العوالي؟ أقول: إن هذا هو عين الشغب والتهييج فقد تركوا اللب وتمحكوا بالقلف، فالقضية ليست فيمن أكون ولكن فيما أقول وعمن أنقل، فقد قالها من قبلي سلف الأمة الحقيقيون من التابعين الأجلاء من أمثال النخعي والزهري ونافع وابن جبير وابن رباح وغيرهم، وقالها علماء السنة الكرام من أمثال الحميدي والشافعي وابن حنبل وابن عيينة حين قالوا عن دين رؤوس الإرجاء من الفقهاء والعباد التابعين – زمناً وليس فعلاً – من أمثال ذر الهمداني وحماد بن أبي سليمان ومن تابعهم في معتقدهم: " إنه دين محدث "، " ما هذا الدين الذي جئت به؟ "، " إن هذا يحدث كل يوم ديناً ". فهم يرونه

ديناً جديداً وليس ثمة مذهب، وهو أخوف ما يخافونه على هذه الأمة، وأن هؤلاء الملعونين – كما سماهم النخعي – أشد فتنة من مارقة الخوارج الذين يهرب القوم من الوصم بهم ليقعوا فيما هو أنكى وأشر كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

فلا تنشغلوا بشأني الضعيف ومقامي الهذيل، فلست إلا صرخة قادمة من الزمن الجميل، وومضة من قبسات موكب النور الجليل، أن أفيقوا من هذا السبات العميق، وانتبهوا إلى هذا الخطر العظيم، ما دينكم وما تعبدون؟ وممن تأخذون؟ وهل كل سلفكم فعلاً صالحون؟

وتمتد صرختي إلى من يهمه الأمر.. إلى الدعاة الناصحين والحريصين على دعوة الناس إلى الطاعات وعمل الصالحات، والأخذ بحجزهم عن الوقوع في المعاصي وانتهاك الحرمات، والذارفين دموع الثكالى على ما آل إليه أمر الناس، وقد تنوعت أساليبكم بين الترغيب والترهيب، وترقيق القلوب، والتزهيد في رغد العيش والتذكير بالموت..الخ.

أقول: ءالآن وقد أمّنتموهم على حسن دينهم وخلوص معتقدهم، وأن إيمانهم في حصن حصين وإسلامهم في ركن ركين، فهم الموحدون وقد بذلوا الكلمة التي جعلتموها مفتاح الولوج إلى جنة الخلد وإن أضاعوا الفرض وعصوا الرب وماتوا مصرين على ذلك.

وأسألكم ما جدوى صرخاتكم في مفازات تلك القلوب الآمنة من مكر الله؟ وهل تردعها وقد ران عليها ما كانوا يكسبون؟.

وأقول: إن كنتم جادين حقاً في عودة الناس إلى الجادة – وأحسبكم كذلك – فصحّحوا للناس عقيدتهم وبصروهم بالإيمان الحق وأن ما هم عليه إنما هي عقيدة الإرجاء المذمومة من قبل سلف الأمة الحقيقين، وإلا فصرخاتكم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

وأخيراً.. فهذا ما من الله به عليَّ من فضلٍ يضاف إلى سابق فضله وسابغ أنعمه التي لا تعد ولا يوافيها شكر وأهمها نعمة الإسلام راجياً من المولى سبحانه أن يتم أنعمه عليَّ ويجعلها في ميزان حسناتي ويثقل بها موازيني وأن يختم لي بالباقيات الصالحات.

ولله الحمد والمنة في المبتدى والمنتهى أن وفقني لاختيار الموضوع وأعانني بأقل جهد مني على الاستمرار فيه والانتهاء منه، فو الله ما خلوت بنفسي ولا هجعت إلى فراشي إلا وتواردت إلى الخواطر وتزاحمت الأفكار وصفت المخيلة لاختيار أفضلها، ولا أمسكت بالقلم لأدون فكرة إلا وتداعت العبارات والصياغات لتفسح ليَّ المجال لانتقاء أنسبها حسب إمكاناتي المحدودة وكل ذلك دون إعداد مسبق فالفضل كله لله، ثم ومن باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله، فالشكر موصول لإخوة أحباء أعانوني على الخوض فيه لاستكماله والذين أعادوا إليَّ الثقة بنفسي والاعتداد قدرٍ ما بقدرات لي رأوها وحفزوني واستنهضوا فيَّ الهمة لإعادة اكتشافها بعد أن عطلت على مدى أكثر من ثلاثين سنة راجياً أن أنفع بها نفسي والمسلمين ولم يبخلوا عليَّ بالنصح في حينه، وكذلك الأخوة الكرام الذين سخروا امكاناتهم لكتابة البحث وأعداده فنياً ليخرج بهذا الشكل الجيد ولم يقصروا في النصح أيضاً فاللهم أسأل أن يجزيهم جميعاً عني خير الجزاء ويجعله في ميزان حسناتهم وأن يوفقنا إلى ما يحب ويختار وأن يهدنا ويهد بنا ويجعلنا هداة مهدين إنه ولي ذلك والقادر عليه ... آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع لصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثالث

مناقشة الإرجاء من الناحية الفكرية

الباب الرابع

مذاهب المرجئة في مسمى الإيمان

الموضوع الصفحة

الباب الخامس

القول الفصل (بيان حقيقة الإيمان الشرعية)

الباب السادس

الصراع بين الحق والباطل

هذا الكتاب

- يميط اللثام عن معتقد قديم جديد ألا وهو (الإرجاء) الذي فصل العمل عن حقيقة الإيمان، وحصر الإيمان في معناه اللغوي التصديق متجاوزاً المعنى الشرعي المعبِّر عن مراد الله منه.
- يخاطب الكتاب كل المعنيين بالشأن الإسلامي بدءًا من المنتسبين إلى سلف الأمة إلى المجددين الذين أخذوا دينهم من مستشرقي الغرب وانتهاءً بالعلمانيين وكلٌّ قد ابتُلِيَ بنهر الإرجاء فمقلٌّ ومكثِر.
- ويسأل الكتاب: هل آن الأوان لتستفيق الأمة من سباتها وتنضو عنها هذا الثوب المهترئ وتعود إلى مصدر عزتها وكرامتها (وحي السماء)؟ الذي تمسك به سلفها الصالح بحق - الصحابة والتابعون وعلماء السنة الكرام - فعُصِمُوا من الضلال.